قريبا من بهاء طاهر



البهاء حسين

قــريباً مــن
بهـــاء طــاهــر

البهاء حسين

بهاء طاهر

- من مواليد مدينة الجيـزة عـام ١٩٣٥ م، لأبـوين من قرية الكرنك في صعيد مصر.
- تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بـالجيزة، وتخـرج في كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٥٦ م.
- أنهـى دراسـات عليـا فـي التـاريخ ١٩٦٥م، والإعلام ١٩٧٣ م.
- بدأ العمل قبل تخرجه منـذ عـام ١٩٥٥، مترجمـا في مصـلحة الاسـتعلامات المصـرية، والتحـق بالإذاعة عام ١٩٥٧ م، حيث عمل فـي البرنـامج الثاني مذيعا ومخرجا ومقدم بـرامج، وعمـل فـي إذاعة صوت العرب من ١٩٥٩ إلى ١٩٦١م.
- أصبح منذ عـام ١٩٦٨ م نائبـا لمـدير البرنـامج الثاني.
- في عام ١٩٧٥ م اضطر إلـى تـرك العمـل فـي الإذاعة والتوقف عن نشر الأعمال الأدبية.
- في الفتـرة مـن ١٩٧٦ م حتـى ١٩٨١ م حيـث عمل مترجماحرا مـع منظمـات الأمـم المتحـدة

المختلفة استقر في جنيف منذ عام ١٩٨١ حيث عمل مترجما في مكتب الأمم المتحدة حتى تقاعده في ١٩٩٥

- عمل بالتدريس محاضرا خارجيا في أكاديمية الفنون، وفي كلية الإعلام، وفي معهد الترجمة بجنيف.
- نشر له: الخطوبة ١٩٧٢ م، بالأمس حلمت بك ١٩٨٤ م، أنا الملك جئت ١٩٨٥ م قالت ضحى عام ١٩٨٥ م، شرق النخيل ١٩٨٥، خالتي صفية والدير ١٩٩١ م، الحب في المنفى ١٩٩٥ م، ذهبت إلى شلال ١٩٩٨ م، نقطة النور ٢٠٠١ م.
- وصدرت له الأعمال: فاصل غريب، ترجمة لمسرحية يوجين أونيل ١٩٧٠ م، البرامج الثقافية في الإذاعة ... دراسة نظرية ١٩٧٥ م. مسرحيات مصرية (عرض ونقد ١٩٨٥ م، أبناء رفاعة ... الثقافة والحرية. دراسة ١٩٩٣

م، ساحر الصحراء، ترجمة لرواية باولو كويلهو ١٩٩٦ م.

- نال جائزة الدولة التقديرية للفنون والآداب عام ١٩٩٨ م.
- ترجمت أعماله إلى عدة لغات، خاصة " خالتي صفية والدير " التي ترجمت إلى ٩لغات، وفازت بجائزة " أتشيربي " الإيطالية، كأفضل رواية مترجمة عام ٢٠٠٠ م.
- قدمت عن أعماله عدة رسائل جامعية، في الداخل والخارج، لنيل درجتي الماجستير والدكتوراه.

قائمة المحتويات

١- فيما يشبه المقدمة
٢- بعيدا إلى الكرنك
٣- موسيقى وملك المظاهرات
٤- أيام الجامعة
٥- هنا القاهرة
٦- كاتب وكتابة
٧- الدنيا ... قصص وروايات
٨- ... وكتابة أخرى
٩- في المنفى
١٠- عن الوطن
١١- بقية من ضوء ورمق
١٢- عن العالم والمذاهب والأصدقاء
١٣- الحياة ... صور وأصدقاء وتأمل منفرد

تقديم

لا أستطيع أن أتجاسر على القول بأن أديبنا الكبير بهاء طاهر، لو حاول أن يكتسب سيرته الذاتية لما كانت أفضل من هذا العمل الذي يقدم لنا سيرته الذاتية لو كتبت بقلم بهاء طاهر نفسه ستكون امتدادا إبداعيا لكتاباته القصصية، وقد ينقصها بعض التفاصيل والعناصر العادية والأحداث العابرة والعلاقات الإنسانية التي قد لا يجد ضرورة فنية في ذكرها، أو يمنعه تواضعه ورهافته الشعورية من ذلك.

على أني أقول بغير تحفظ إن هذا الكتاب الذي يقدم لنا السيرة الذاتية لبهاء طاهر في شكل حوارات مطولة وتفصيلية، ومختلفة المجالات والآفاق والاهتمامات والمواقف، يقدم لنا صورة شاملة تجمع بين تفاصيل دقيقة لحياة أديبنا الكبير، فضلاً عن كشف أسرار بعض أعماله وقيمه الإبداعية. وعلاقاته الإنسانية ورؤاه السياسية والاجتماعية وأذواقه وخلفياته، مما يجعلها وثيقة بالغة الإحاطة والتعميق لمسيرة أديبنا الكبير الحياتية والإبداعية.

والملاحظ أن الأستاذ المحـاور " البهـاء الحسـين " على معرفة محيطـة وعميقـة بحيـاة أديبنـا الشخصـية فضلاً عن دقائق أعماله الإبداعية، نتبين هـذا مـن خطتـه التي رسمها للحوار معـه، سـواء فـي مجـال الحيـاة أو مجال الكتابة، فضلاً عن مقدمته (فيمـا يشـبه المقدمـة) التي عرض فيهـا الرحلـة الطويلـة العميقـة إلـى بهـاء طاهر لاستكمال معرفته الوجدانية والتذوقيـة والعقليـة بـه إنسانًا وكاتبا ومواطنًا مصريا عربيـا، هـذا إلـى جانـب لغته الأدبية الرقيقة التـي تكشـف عـن أديـب مبـدع لا مجرد محاور صحفي، ونتبـين هـذا بوجـه خـاص فـي نفسه لجلساته المختلفة مع بهاء طـاهر إلـى موضـوعات متصـاعدة إلـى آفاقـه الحياتيـة والمعرفيـة والإبداعيـة المتنوعة وملاحقاته في بعض التفاصـيل الدقيقـة الخاصـة والعامة بادئًا من مسقط رأسـه وعائلتـه وملاعـب صـباه والمصادر الأولى لقيمه وثقافتـه. منـتقلاً معـه فـي كـل جلسة من الجلسات مع المراحـل والآفـاق المختلفـة مـن تنميتة الثقافية ومشاركاته الحياتيـة والسياسـية والفكريـة، فضلاً عـن الإبداعيـة التـي يحـرص أن يعـرض فيهـا

لبعض نصوصها، فضلاً عن مناقشة دلالاتها وما وراءها من رؤى وقيم أخلاقية، ووطنية وفكرية وجمالية واجتماعية وإنسانية عامة.

وفي هذه المحاورات لا تنكشف لنا هذه الأبعاد المختلفة لبهاء طاهر إنسانًا وكاتبا ومفكرا صاحب موقف فحسب، بل نكاد نعيش معه تاريخه الخاص الذاتي بل التاريخ الوطني الهام، كذلك لمصر في تجليه السياسي والفكري والأدبي والفني فضلاً عن التاريخ العام لعصره كله في تجليه السياسي والفكري والأدبي كذلك.

ولهذا يكاد هذا الحوار الشامل العميق المتعدد الآفاق مع بهاء طاهر يكون على حد تعبير المحاور الأستاذ البهاء حسين أعظم رواية كتبها بهاء طاهر على الإطلاق. على أنه إذا كانت هذه الرواية تنتسب بحق إلى بهاء طاهر إفضاء مضمونًا، فإنها تنتسب في بنيتهاوتسلسلها الى المحاور المثقف الأديب البهاء حسين وهو عمل مشترك ممتع ومبدع ينتسب اليهما معا، وهو جدير بغير شك بالنشر. وإن كانت لي

ملاحظتان: الأولى ملاحظة جزئية تتعلق بقول الأستاذ بهاء في حوار صفحة (٥٣) " بأن اتفاقية الجلاء كانت تنص على أن تكون للإنجليز قاعدة عندنا ". وفي حدود معرفتي إنه ليس في اتفاقية الجلاء مثل هذا النص. ولكن النص الموجود هو دون أن أتذكره بحذافيره أنه إذا هاجم السوفييت تركيا فيمكن للجيوش البريطانية أن تعود إلى موقعها في منطقة السويس " وأذكر أن هذا النص كان من العوامل التي دفعت جانبا من الشيوعيين المصريين إلى رفض وإدانة حركة الجيش في بدايتها. على أن هذا النص كان نصا شكليا وكان احتماله بعيدا، أما واقعيا فلقد خرج من مصر دون رجعة ٨٠ ألف جندي بريطاني كانوا يمثلون قاعدة عسكرية للاحتلال والسيطرة البريطانية على مصر.

أما الملاحظة الثانية فهي أن الحوارات تتخللها بعض الكلمات والتعابير العامية داخل السياق العربي الفصيح. وفي تقديري أنها لم تكن تبتعد عن الطابع

الفصيح العام للحوار بـل كانـت تعمقـه وتضـفي عليـه حيويه ومصداقية وعمقًا.

ولهذا لا أنصـح بتفصـيحه "، بـل هـو بعاميتـه أكثر فصاحة فـي سـياقه ولا يحتـاج إلـى مزيـد مـن التفصيح. وأتمنى ألا يكـون فـي هـذه العاميـة الوظيفيـة وليست التعبيرية ما يـدعو إلـى تغيرهـا أو يحـرم هـذا العمل المبدع الجميل من أحقيتـه بـل كفاءتـه واسـتحقاقه للنشر ضمن مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة.

محمودأمين العالم

الإهداء

لـ:

عبد القادر حميدة، نصـار عبـد الله، عبـد المـنعم رمضان، محمود عبد الوهـاب، يسـري حسـان، محمـود قرني، فارس خضر، أسـامة الرحيمـي، سـعد القـرش، حسـن عبـد الموجـود، سـالم عبـد السـلام، مصـطفى الضـبع، هشـام علـوان، عـادل إسـماعيل، سـامح الأسواني ... وأصدقاء آخرين ...

شركاء في حب بهاء طاهر.

" ... ولما المرأة ذهبـت ... ولمـا تفـرق الـذين اجتمعوا حولي ... ولما وجدت نفسي وحيـدا اكتملـت فـي تمامي، ولما كنت أنت إلهي وأنا صـفيك ... أنـت النـور وأنا صدى النور ... أتملى في ذاتي فـأراك وأتملـى فيـك فأراني فإني بعيدا عن الآحـاد جئـت لنكـون واحـدا أنـا وأنت. الآن ولم يبـق وقـت وبقـى الأبـد. الآن أناجيـك فتعرفني ... أدون سري بعيدا عـن الأعـين لعينـك أنـت فتعرفني ... أتطلع إلى قرصك اللامع الـذي يرقـب مـن السماء كل شـيء وأنقـش علـى الصـخر سـري: أنـي حزين ".

" أنا الملك جئت "

" فيما يشبه المقدمة "

بهاء طاهر، الآن، لماذا؟

الرجل والسؤال شغلت بهمـا طـويلاً، وفـي مثـل سني لا يشغل المرء شيء بلا مبرر.

هل كنت أبحث فيه عن أب لحيـاتي! هـو وحـده أريد أن أراه من قريب، وأن أحكي معـه عـن أي شـيء، وكل شيء.

أعرف أن رغبتي هذه لا تهم أحـدا غيـري، وقـد تكون بلا معنـى خاصـة، أن حـوارات عديـدة أجريـت معه، تناولت كل شيء عنه، تقريبا، أو هكـذا يخيـل الـى. لكن حين قرأتها شـعرت أكثـر أننـي احتـاج أن أحكـي معه.

لماذا لا يحاوره محب مزعج؟ هكذا تساءلت!!

على ذكر الحب. أتذكر أنه قـال لـي: أنـا لسـت من الشخصيات الجاذبة للعـداوة. وقتهـا حسـدته وكنـت واقعا في حبه مـن زمـن. حينمـا قـرأت " الحـب فـي المنفى".

وفي هذه المحاورات الطويلـة والمرهقـة، أكتـب ملامحه ... ملامح الروائي الذي يحمـل عبئًـا حقيقيـا ... اسمه روح العالم.

* * *

في صباح دافئ توجهت إلى بنايـة فـي الزمالـك يسكنها بهاء طاهر.

وردة أو وردتان كانت في يدي وأنـا أصـعد إليـه في الدور الحادي عشر محبـا ومتوجسـا ... هـل تخـدم عيناي قلبي!!

والآن، وقد مضت سـنة، أسـأل نفسـي ... هـل هذا الكاتب الحزين، لغز كنت أريد أن أحله!

لماذا أخذت على عـاتقي أن أؤكـده بـالحوار ... مسافة التعاطف الحميمة! أسأل ... هـل حقًـا أصـبحت " قريبا من بهاء طاهر "، وأستطيع أن أكتبه في كتاب!

كيف أفسر لنفسي هـذا الشـعور ... أسـافر إليـه من مرسى مطروح وأحاوره، ساعتها أحـس أنـه واضـح وأنني أعرفه وأحيط به، وبعد قليل ... ريثمـا أخـرج إلـى

الشارع، أفتش جيراننا عنـه، عـن حقيقتـه، عـن مفتـاح امسك به، ولا أفلح!

هل أفتش عن آثار حضارة قديمـة وموغلـة فـي الغموض! هذا الرجل واضح جـدا وسـري جـدا، ألـيس كذلك! إن أشياء فـي شخصـيته وحياتـه سـتظل بعيـدة عني. هكذا أقول لنفسي، ولا أقنع، فـأرجع – مـن جديـد – أبحث عن بهاء طـاهر. قـرأت كتبـه كلهـا، وسـألت كثيرين عنـه – واجهتـه ... هـل أنـت نبيـل وعظـيم! واقتنعت لكنني لعنته، لأنه أتعبنـي ومـا زال بعيـدا كمـا يريد!!

كم مرة سألت نفسي عن سره. كم مرة!!

حسنًا ربما كان علـى أن أهـدأ، لأمسـك الخـيط من أوله ...

أحببت – منذ زمن بعيد – المتنبـي ويحيـي حقـي والمازني والعقاد وعلى أدهم وأحمد بهـاء الـدين ومحمـد حسنين هيكل وآخرين. والآن، فـي أبريـل ١٩٩٦، أحـب معنى جديدا هو بهـاء طـاهر. آخـر طبعـة، أو توليفـة عصرية رائعة من هـؤلاء جميعـا، إنـه وحيـد وشـديد

الكبرياء وعـابر كبيـر. وهـو ابـن حقيقـي للحضـارة المصرية، قد نختلف في تقيـيم الحسـاب النهـائي لـه ... إنسانًا وكاتبا، لكنه يبقـى كـدليل حـي يقـوي ثقتنـا فـي أنفسنا ويمنحنا قدرا هائلاً مـن الثقـة فـي قـدرات الفـرد على احتمال الحياة.

باختصار ... هو بهاء طـاهر، ببسـاطته البـاهرة وعمقه، بروحه اليقظة دائما. ثم إنه شـخص حـزين قبـل أي شيء آخر.

أتذكر أنني فتنـت " بالحـب فـي المنفـى " حـين قرأتها في ٢٨ أبريل ١٩٩٦.

أتذكر – جيدا – تلك الرغبة العارمـة فـي تحطـيم العالم وإعادة ترتيبه على هـواي لمـاذا يطاردنـا الحـزن هكذا، ولماذا يتحتم علـى الحـب – دائمـا – أن يمـوت! ولم أجد عند أحد إجابة.

كانـــت هـــذه الروايـــة الأمثولـــة أو " كاملـــة الأوصاف " علامة فارقة. قبلها كنت أقـرأ عنـه وأرصـد – عـن قريـب – صـديقي إيهـاب دكـروري، يحبـه ويتحدث عنه بشره لا حد له.

كنا – أنا وإيهاب – نحب أنفسنا وبعضنا البعض ببراءة وعنف شديد، ونرغب – في نفس الوقت – عما نحبه بصدق واستهانة مدهشة. نرغب عن أنفسنا وعنا، كأن بيننا شخصا – غير مرئي – يحبك مصادفات ومواقف غريبة تحول دون الانسجام إلا لبعض الوقت، والاختلاف الحاد – أيضا – بنفس القدر! شخصا ما يسكننا ويحرض فينا صبوة مسعورة للفهم والتفتيت ... ما حدث لنا وبيننا وما سيحدث.

عن نفسي أنا هكذا ... وحيد تماما، وخلفي – دائما – كل أحزان الطفولة ... تطل من رأسي، وأحاول أن أتدارك حياتي بافتعال سلام بيني وبين نفسي، وبيني وبين الناس، لكنه لا يجئ! وبأحلام لست على يقين من أمرها!

ما الذي يمكن أن يحدث أسوأ من ذلك!!

أبي مات، لم تكن أمي قد أكملت العشرين من عمرها حين مات. أربعة أطفال، أكبرهم بنت في السابعة وأصغرهم أنا ... في السنة الأولى، أصبحنا في العراء، لا نملك سوى بيت طيني صغير، ما زال

هناك في أخميم. والحق، لقد ترك وراءه أرضا كان يمكن أن تغير حياتنا لولا أن اغتصبها أعمامي وأولادهم مباشرة بعد موته الفادح!

هل هناك إذن شيء أسوأ من ألا ترى أباك، أليس بشعا أنك لا تملك ذكرى معه، أو حتى صورة شخصية له!

المهم، ها هو الشاب، بائع الحلوى القديم المحاصر، دون مبالغة أو رغبة في إثارة العطف، بأحلامه وبغير قليل من العداوات والأحقاد الصغيرة والمطبات في كل منعطف!

ها هو الآن في المنيا – خريف ١٩٩٣ – طالبا بتمهيدي الماجستير، يبحث عن نفسه – كالعادة – وعن شخص له نفس الملامح ... القلق والشغف بشيء كبير، وقد وجده.

كان أحمد بهاء الدين طريح سكوت مطبق انتهى بالموت. ويحيي حقي كان قد مات فعلاً، ولم يبق أمامنا – أنا وإيهاب – غير أن نواصل القلق والبحث عن الشيء الكبير.

كنا نفتش في أنفسنا، وفـي الكتـب، وفيمـا حولنـا عن أحد يمد لنا يـده، لينقـذنا مـن جلبـة فـي داخلنـا لا تحتمل، احتجاجا على كل الموجـودين. وعلـى الفوضـى التي تحت السماء. كنا نريد شخصا كبيرا.

أنا ارتحت حـين وجـدت رفيقًـا اسـمه " علـى أدهم" ... من زمن كنت أحتمي به، لكنه ميت!

أما إيهاب، فقد وجد ضـالته فـي " بهـاء طـاهر" واعتبره كاتبه الشخصـي والأب الضـد. طبعـا لـم نكـن نبحث عن أب بالمعني الحقيقي، بل كنا نفـتش عـن شـيء نحتمي به من واقع موحش لا نجـم فيـه أو ضـوء ينيـر ولو من بعيـد! ... عـن روائـى نـتلمس لديـه الحكمـة والطمأنينة، وتعلقت آمالنـا الأخيـرة بـالروائي الـذي لـم نستطع انتزاعه من أفكارنا أبدا. ما معنى هـذا كلـه. بهـاء طاهر كاتب، وفي الدنيا كتاب غيره! فما الـذي شـغلنا بـه إلى هذه الدرجـة! ولمـاذا أشـغل القـارئ معـي بقصـة إعجاب قد تبدو رومانتيكيـة بـلا معنـى. لكنهـا ليسـت كذلك.إنهـا – فـي الحقيقـة – قصـة إعجـاب بالقيمـة، بالموقف، والدور.

ولبهاء طاهر معـان كثيـرة أخـرى، منهـا الفـن الرفيع واحترام الـذات، ثـم إنـه أعطـى الحيـاة كثيـرا، وكان – دائما – في الجانب الخاسر، وفيمـا بعـد اكتشـفت إحساسه اليومي العميـق بأنـه مـؤتمن علـى رسـالة ... رسالة حقيقية مكلف بها من النـاس، ومـن أجـل النـاس. هي الحب العظيم للحياة والبشر!

سكتنا عن بهاء طاهر فترة طويلـة، كأننـا نعاقـب أنفسنا، أو نعاقبـه، علـى التلاشـي أمـام روعتـه بهـذه السرعة، روعتـه علـى الـورق، وفـي ملمـس الاسـم والتاريخ.

ترى كيف يكون في الواقـع، هـل نـراه قريبـا، وجها لوجه ... نتكلم معه ونكون أصـدقاء. فـي الحقيقـة لم نسع لـذلك، لكنهـا المصـادفة. ففـي أواخـر ١٩٩٨، كنت أفكر فـي موضـوع يصـلح أطروحـة للـدكتوراه. كنت في بني سـويف، أحضـر مـؤتمرا هنـاك، وبالليـل شردت ممن حولي، أفكر في موضـوع يسـتحق الكتابـة! وفاجأني إيهاب – قال: ما رأيك، وعرفـت مـاذا يقصـد.

غريبة، كنت أنا أيضا – في نفـس الوقـت – أفكـر فـي بهاء طاهر، وهكذا كان حتميا أن أراه.

أخذت من صديقي رقـم الهـاتف، وكتبتـه بتـدفق على ظهر رواية " قالت ضـحى " كانـت نسـخة مكـررة عنده، كتبت الرقم صاعدا إلـى أعلـى – لا أدري لمـاذا – ٣٤١٠١٣٩ (الآن ٧٣٦٠١٣٩)، وحـــين عـــدت إلـــى مطروح طلبته ولم يرد، ظللـت شـهرين أطلبـه ولا يـرد أين هو ومتى يأتي، لا أحـد يعلـم، كنـت أقـرؤه باللـيـل وأطلبه بالنهار، ولا يرد، ثم عرفـت أنـه فـي سويسـرا، وفي يوم فوجئـت بصـوته ... صـوت عـريض يخـرج راكضـا مـن الأعمـاق، عرفتـه بنفسـي معتـذرا عـن الإزعاج، كان الوقت عصـرا، والرجـل شـديد التهـذيب يداري النوم. أخبرته بما أريد، واتفقنا علـى موعـد تـرك لي حرية تحديده.

واليوم ١٣ ديسـمبر ١٩٩٨م كنـت عائـدا لتـوي من المنصورة، سـعيدا، فالصـباح دافـئ، وفـي السـماء مزق من سحاب أبيض جميل.

اتصلت به من إمبابـة، وبعـد قليـل رأيتـه، تـم ترتيب البرنامج في ذهنه على أنني مجـرد باحـث همـه الحصول على الدرجة، لاحظت ذلـك مـن إهـداء علـى أحد كتبه ...

" إلى د/ بهاء حسين، مع أطيـب أمنيـات النجـاح والتوفيق ".

هكذا!!

إهداء محايد بحجم اهتمامه بالمسألة. ولم أكن كذلك، لست باحثًا ولا تعنيني الدكتوراه، أنا شاعر قبل أي شيء، ثم كيف لا يدري! ماذا أقول له، هل أحكي عني وعن إيهاب ... عن حبنا له، كيف أرهقنا وماذا صنع بحياتنا! ... كيف لا يدري!

كنت أظن أن الحـب الـذي أحبـه لـه، سـيجعله يحس – من بعيـد – بحـالي. ألا يحـس الناسـك بحـال المريد! كيف يكتب لي مثل هذا الإهداء الماسـخ! لـم اقـل شيئًا، ولم أجرؤ على سؤاله ... هل قـرأت لـي شـيئًا يـا أستاذ!

وخرجت من عنده. أتـذكر، مسـحوبا إليـه أكثـر فأكثر بمشاعر لا أكاد أتبينهـا، مشـاعر مبهمـة، عميقـة وهائلة! وهو، هل حاول التفكير في!

ولكن. لماذا ينشغل بي. أنـا منـدهش، بـل لـيس هناك من يدهشه ذلك أكثر مني! ولا أبـالغ ... يـا إلهـي، ماذا يحدث! ما الذي ربطـه بوجـودي، ولمـاذا أحـاول – بكل هذا الإصرار – أن أفهمه!

من أين أبدأ كي أفهم رجـلاً لا يهـب نفسـه كليـة لأحد، ولا يتورط بسهولة، ثم إنه يـتكلم ويـتكلم ولا يقـول – في النهاية – إلا ما يريد!

طالما تصـورته كشخصـية هربـت لتوهـا مـن مأساة يونانية واسـتقرت هنـاك ... فـي (١١٠ شـارع ٢٦ يوليو بالزمالك) إنه متفرد وحافـل بـالغنى والتنـوع، وأنا لا أريد أن يكون كلامي عنـه تراتيـل فـي محرابـه، ماذا أفعل، حسنًا، سأتكلم دون ترتيب أو تزويق.

أبدأ باليوم الذي اسـتولت علـى فيـه فكـرة هـذا الكتاب، وأصبح – من ثم – لزاما علـى أن أكتبـه، رغـم

أنه ليس من السـهل أن تكتـب عـن رجـل غيـر قابـل للانصهار في قالب، ومستعص على التحليل.

لم تكن فكرة الكتـاب مجـرد فكـرة عاديـة عـن حياة وآراء كاتب مرموق، بل كانت شـيئًا حميميـا يتعلـق بي. إنني – بهذا الكتاب – أحـاول أن أفهـم العلاقـة بـين بهاء طاهر الذي قرأته، وبهاء الذي يعيش بيننا.

حين خرجت من عنده، أتـذكر، لـم أكـن مقتنعـا بشكل العلاقة بالمرة، ولا متفـائلاً بمسـتقبلها إذا اسـتمرت بين باحث وروائي، ولم أكن قد فكـرت فـي شـيء بعـد يجعلني قريبا منه.

وبعد عام – تقريبا – مرت أمـامي حياتـه، كنـت أقرأ حوارا معه، أو شيئًا عنه، وفجـأة برقـت فـي ذهنـي عبارة " هكذا تكلم بهاء طـاهر " فيمـا بعـد بعيـدا إلـى المنفى مع بهاء طـاهر ... و " بعيـدا إلـى الكرنـك ... " وا ... وا جاءتني الفكرة في فجـاءة داهمـة. قلـت: هـذا بالضبط ما أريد ... حياة بهاء طاهر فـي كتـاب. رائـع، وأنا مستعد، لكن قبل ذلك اسـتطلع رأيـه بـالطبع. آلـو؟

كان يستعد للسفر بعـد سـاعة، أخبرنـي وقـال: أوافـق مبدئيا لحين رجوعي من بيروت.

متى؟

بعد ١٠ أيام

وضعت سـماعة التليفـون بفـرح، وبـدأت فـي المشوار.

بعد شهرين كنت معه في القـاهرة أسـجل – فـي ١ يناير ٢٠٠٠ – أول فصل.

- عقلـه – علـى عكـس جسـمه مخلـوق ينـبض بالحياة، ولا يكف أبدا عن التفكير.
- شخص متماسك، ومـن الخـارج سـهل جـدا أن تكتشف تواضعه وبساطته الآسرة.
- لا يوجد موضوع يصعب عليك أن تحاوره فيه.
- ذوقه الشخصي في كل ركن بشقته.
- رغم معاناته الطويلة، إلا أنه غيـر عـدواني علـى الإطلاق.
- يطارد الرواية ويبحث عنها في كل مكان.
- واقعي.

- بعينيـه نظـرة غريبـة، سـتظل بالنسـبة لـي مستعصية على التحليل.
- حزنه الأول، القديم، لـم يمحـه التحقـق الأدبـي، ولم تخفـف كثافتـه الراحـة الماديـة أو تمنحـه الأمان. إنه حزين حتى النهاية.
- حذر، شـكاك، وهـو فـي نحولـه أشـبه بمسـلة فرعونية، أو هيكل عظمي متحـرك. أنفـه الكبيـر نسبيا، ونظارته التي تخفي نصف وجهـه، تمنحـه إلى ذلك شكل راهب في الأعـالي ... سـاخر فـي وداعة ومنتظر.
- لا فوضى في شخصيته أو حياته.
- محدث ساحر.
- معتدل المزاج، لا تنتابه تغيرات مباغتة.
- ليست لديه جمل متفصحة جاهزة لكل مناسبة.
- قرأت ... أن كل إنسان – فـي سـيرته الذاتيـة – يعيد على نحو أو آخر، اختراع نفسه مـن جديـد. لكن بهاء لم يفعل ذلك.

- ما زال وفيا لذائقته التي لا تتعـاطف بسـهولة مـع الكتابة الجديدة. بالذات كتابتي!
- متأنق، ويمكن للمرء أن يتكهن بذلك من كتابته.
- يحفل بالتقاليد ويحترمها.
- لابد أن تشعر تجاهه بالإعجـاب حـين تناقشـه أو تقترب منه ... الإعجاب بغير حد. وبهـاء طـاهر – أيضا – إنسان حسـاس، ثـم إنـه قـادر علـى الاعتـزال ... ذلـك الإنجـاز المطلـق، دون أن يخلق العداوات، ولا تهمـه مظـاهر الحيـاة، قـدر ما تعنيه حقائقها الجوهريـة ... ولابـد أن يـؤمن بما يفعل كي تتحرك دوافعه العميقة.

هل قربته لكم!

هذا هو بعـد سـنة ... عشـرة وحـوار وإرهـاق واختلاف وسفر ... والحق لم يطلب منـي أبـدا أن يطلـع على سؤال قبل التسجيل ... لقـد كانـت ذاكرتـه وحاسـته الروائيـة والتاريخيـة وأسـرار الكلمـات، دائمـا، تحـت أمره. وفي يدي جهاز مفتوح يسجل كلامـه، وعقـل بـارد شكاك يسجل ملامحه. نشفت ريقه وأزعجتـه، بحثًـا عـن

الحقيقة لا حبا في التملك. وكـان يغرينـي فيعـري نفسـه أكثر في التقصي معي، هل كـان يبحـث هـو الآخـر – عن حقيقة نفسه!!

وفكرت. إنه من تلـك المخلوقـات القـادرة علـى التجرد التام، بحيث لا يمكنك اتهامه!

* * *

حين ولد بهاء طـاهر – فـي ١٣ ينـاير ١٩٣٥ – كان العصـر مزحومـا حولـه بالتناقضـات وبـالقلق ... سياسيا واجتماعيا، ولما كبر كانت فكـرة النهـوض التـي تجسـدت فـي مشـروعات القوميـة والوطنيـة ... تلـك الأحلام الكبيرة في طريقهـا للانكسـار ... ولـم تلبـث أن انكسرت، وبدأ بهاء رحلة اغتراب لم تنته بعد.

كان شاهدا حساسـا علـى فتـرة معقـدة عاشـتها مصر، ولم تنج حياته من هذا التعقيد!!

في طفولته عاش تجربة مروعـة، عنـدما قضـت الملاريا على نصف عائلته في الجنـوب كـان طفـلاً فـي السابعة، والذين ماتوا لم يكن يعرفهم، لكنـه بكـى علـيهم حين رأي أباه يبكي! وعرف الحزن طريقـه إلـى روحـه

للأبد. إنه من جيل كان على موعد مع الحلم والحزن والانكسار.

في أواخر الأربعينيات، كان هناك فوران شامل. وأبناء هذا الجيل كانوا يحلمون ... كانوا يريدون امتلاك الحياة بالأحلام ... أو – بتعبير صلاح عبد الصبور – حاولوا امتلاك المستقبل بالمعرفة! وحين قامت ثورة يوليو أرادت أن تعيد صياغة العلاقة بين الناس. وأن تنظم أحلامهم، لكنها لم تر طريقة لذلك سوى الطريقة التي اختارتها ... حبست عقول الناس في قفص وأطلقت – من جهة أخرى – ملكاتهم. وبدأ الجيل كتابته بالكتابة ضد الثورة. أي ضد أحلامه! ثم جاءت النكسة فانهار يقين أبنائه بكل شيء. ولم يكن ثمة مهرب من الانهيار إلا بالكتابة.

هذا إذن – كما يقول شكري عياد–" جيل ثورة ١٩٥٢، وهذا قدره التاريخي: لقد بدأ اللعب بالقلم حين كان الجو مليئًا بالصياح والتهليل، وعندما ثبت القلم بين أصابعه كان الجو مليئًا بالصراخ والعويل، وكان عليه أن يحمل أوزار السابقين ويسير دون دليل".

أما صاحبنا فكانت لديـه أسـباب إضـافية تغـذي إحساسه بالألم وبالتاريخ.

لقد كانت دراما ذلك الإنسان الـذي عمـل جاهـدا تحت الشمس ولا يحصل علـى شـيء (فكـرة العـدل)، كانت تطارده كفكرة وفي الواقع.

أتذكر سخريته المريرة وهو يحـدثني عـن الـذين عملـوا– ليـل نهـار – فـي الترجمـة، وفـي التـدريب بمصلحة الاستعلامات أثناء حـرب ١٩٥٦، كـان معهـم، ثم أرسلت القيـادة – بـدلاً مـنهم – أصـحاب المكاتـب المغلقة!! الذين لم يعملوا شيئًا على الإطـلاق، إلـى أوربـا في بعثة ترفيهية على سبيل التكريم.

وفـي الإذاعـة نسـى بهـاء طـاهر " الأديـب " بداخله لسنوات طويلة، فأعطى كـل وقتـه وجهـده مـذيعا ومقــدم بــرامج ومخرجــا، وفــي النهايــة كــان أول المغضوب عليهم، وحورب في أكل عيشـه حتـى اضـطر إلى الفرار بكبريائه.

على جانب آخر كانت مشـاهد الألـم حـادة فـي تجربة طلاقه وفي اغترابه بعيدا مدة ٢٠ سنة.

لا أنسى قوله لـي عـن طلاقـه والأسـى يكسـو ملامحه: " مأساة أن عالما بأكمله يتقـوض مـن حولـك ". وقبل ذلك كله، لم يكن في مقدوره – ولـيس فـي نيتـه – أن ينسى أبدا مرارة فقرهم الشديد فـي الطفولـة. أريـد أن أقول: إنه كان يعمل طوال الوقـت ولا يحصـل علـى مـا يريد. تلك هي دراما الإنسان، كل يـوم، تحـت الشـمس! وبهاء طاهر يؤمن تماما بالعنصر الدرامي للتاريخ.

التاريخ ... لقد كان إحساسه بالتـاريخ فـي حالـة يقظة دائمـة!! إنـه ينـبش فـي الماضـي ويتطلـع إلـى الحاضر والمسـتقبل مسـتقرئا التـاريخ. وعرفـت مـاذا يريد.

إن التاريخ – بالنسبة لـه – لـيس هـو الأحـداث التي حدثت وانتهت، بل هو الـدوافع الحيـة الممتـدة فـي اليوم. تلك الطاقة التي تحرض الحيـاة علـى اسـتمرارها وديمومتها. بالنسبة لبهاء طاهر.

عرفت أنه لا يمكن الفصـل أبـدا بـين التصـوف والتاريخ!

حين سئل عن سر اختيار مؤلفات إدجار ألن بو، ليترجمها إلى الفرنسية، قال بودلير: " لأننا متشابهان متقاربان. لقد فتنني منذ صفحاته الأولى التي قرأتها له، فلم أعثر بينها على الموضوعات إلى كانت تراودني فحسب، بل لقد عثرت بالمثل على العبارات التي كانت تجول بخاطري، وكان أسبق مني إلى تسجيلها ".

تذكرت هذا السر، أو هذا الشبه، وأنا أتساءل عن الذي يجمع بيني وبين بهاء طاهر.

هو كبير في كل شيء، وأنا في أول الطريق، هو ناسك وأنا مريد، هو روائي وأنا شاعر، هو لف الدنيا وخبر الناس ومختلف التجارب، وأنا أحاول.

ما الذي يجمع بيننا إذن؟

أهي الرغبة المحمومة في الاختلاف عن الآخرين. أهي كراهة التفاهة والتكلف والإدعاء. أهي الحاجة لأن نؤمن بشيء كبير. ربما، هل يجمعنا الانحياز المطلق إلى المفترض ... أي ما يجب أن يكون، لا إلى اليمين أو اليسار، جائز. لكن ما أعرفه –

يقينًا – أنني – مثلـه – أحـب الليـل والحريـة وصـوت فـايزة أحمـد. ثـم اكتشـفت – فيمـا بعـد – أن إيمانـه (وأمله) الكامل بأن " شيئًا مـا " يجـب أن يتحقـق هـو نفس إيماني.

لقد كانت " الثقافة " هـي القاسـم المشـترك فـي هذه المحاورات، الثقافة، الثقافة، دائمـا كـان يـردد هـذه الكلمة، وفي نفس الوقت كان مولعا بـالتفكير فـي " حـال مصـر "! كأنـه يقـول ... إننـا لـن نحـل مشـاكلنا إلا بالوعي ... بالتنوير ... بـ " أن نتثقف يا ناس ".

كان يحس – إحساسا شبه دينـي – أن فـي رقبتـه دينًا تجاه ذلك، وكنت أشـاركه هـذا الهـم، وفـي رأسـي تطن عبارة أندريه مالرو الضيقة " افعل مـا يجـب عليـك ".

وجمعنـا – أيضـا – حـب أحمـد بهـاء الـدين ويحيي حقي وروايات " العطـر " و " سـيد هارتـا " ثـم اختلفنا حول " اذهب حيـث يقـودك قلبـك " ومفاوضـات كامـب ديفيـد الثانيـة وقصـيدة " النثـر " و " رباعيـة الإسكندرية " والعقاد وهذا الكتاب وأشـياء أخـرى، وكـان

لابد أن نختلف. فأنا لا أعتقد – كما يعتقد بهاء طاهر – في نظرية المؤامرة ... أن الغرب لا هم له غير إجهاض أحلام العرب، إن كانت لهم أحلام! ولا أعتقد – أيضا – في أن رواية سوزانا تامارو العذبة " أذهب حيث يقودك قلبك " عمل من أعمال التبشير! كما ذهب هو، وأكتب " قصيدة النثر " التي لا يحبها، وأحب العقاد وهو لا يطيقه ... بل يرى أنه الأب الشرعي للإرهاب!. ولا أعتقد في جدوى المفاوضات مع إسرائيل، وهو لم ييأس، ثم اختلفنا حول هذا الكتاب.

كان بهاء طاهر – تواضعا أو زهدا أو حقيقة – يرى أن مثل هذا الكتاب يليق بكبار الأدباء الذين – على حد تعبيره – صنعوا شيئًا. ثم إنه معترض على فصوله الكثيرة. وهو – ختاما – غير مسئول عن أي شيء تجاهه ... عنوان الكتاب، ترتيب الفصول، موعد أو مكان الطبع ... إلخ، هكذا قال لي – أكثر من مرة –، ولم أكن قد طلبت منه شيئًا، ولا كان في نيتي أن أطلب؛ لأنني أعرفه! أعرف أن آخر ما يشغله هو أن يسعى لشيء. فقط هو يتأمل ويكتب وينتظر. ثم إنه لم

يطلب مني أن أكتب عنـه شـيئًا. أنـا الـذي تطوعـت – راضيا – بخصم سنة من عمـري أضـيفها إلـى عمـره. وربما قيل – في معرض التعريـف بـي –: إننـي كاتـب سيرة بهاء طاهر فحسب، والحق إننـي لا اشـعر بالرغبـة في الكلام عن مثل هذا السخف. مـا يهمنـي هـو التأكيـد على أن هذا الكتاب عمل من أعمال الحـب وحـده. ولقـد كدت أن أتراجع عنه في وقت من الأوقات.

ففي يـوم كنـت أتصـل ببهـاء طـاهر لأعـرف ظروفه قبل التسجيل، ولم نكن قـد انتهينـا إلا مـن ثلاثـة فصول وسألني بضيق ... هو فاضل كـام فصـل؟ قلـت: ١٢، قال: يااااه دا كتير أوي، ما كنت أنـا كتبـت سـيرتي لو عايز أكتبها، وغضبت منه جدا. هـل ضـغطت عليـه بصداقتي! هل أرهقته إلى هذا الحد. هل هذا جزائي!

وتحول غضبي إلى دهشة ... ما هـذا، ألـم يكـن يعرف ذلك منذ البداية! هل هذا هو بهاء طاهر!

ثم إلى حزن، كم هو مؤسـف أن تـرى حماسـك للشخص الذي تحبه ... مجرد جثة هامدة!!!

كان بهاء طاهر في أزمة، ولم أكـن أعـرف، فقـد أثارت استقالته من " اتحاد الكتـاب " ردود فعـل متباينـة، وشاء هـو أن يكتفـي بالصـمت، وحـين رأيتـه فهمـت أسـبابه ... أسـباب الاسـتقالة والأزمـة والصـمت. وعذرته، وحين قـررت أن أكمـل، لـم يكـن فـي أجـل اعتذاره الكـريم، إنمـا لأننـي – مثلـه – إذا بـدأت فـي مشوار، لا بد أن أقطعه حتى نهايته.

إذن قررت أن استكمل هذا الكتـاب عـن الروائـي الذي يحيا بعناد ونبـل، وعـن حياتـه ... أعظـم روايـة كتبها على الإطلاق.

وبعد:

هذا هو " ملف " بهاء طاهر، ولكنـه أقـرب إلـى أن يكون وصفًا مبدئيا أو صـورة حيـاة، مـن أن يكـون سردا لمراحل حياة، أو قل: هو تفسير لحيـاة وجولـة فـي عقل صـاحبها، للتعـرف علـى إجابـات أسـئلة عميقـة يثيرها العصر.

حيـاة أقـدمها – الآن – لا لغرابتهـا وضـخامة أحـداثها، إنمـا لأنهـا – ككـل حيـاة – جـديرة بـالفهم

والتأمل. بدلاً من أن نشغل أنفسنا بإصـدار الأحكـام. فـي رأيي، ليس هذا هو المهم.

بقي...

أني مدين لأصـدقاء هـذا الكتـاب، الـذين افـدت منهم إفادة حقيقية في غير موضع منـه. شـكرا لبرتراند رسل في محاوراته النافـذة التـي ترجمهـا إلـى العربيـة الراحل جلال العشـري، ولشـهادة سـليمان فيـاض عـن بهـاء طـاهر " مالـك الحـزين "، ولقـراءات وعبـارات بعينهـا، وأفـلام وأقـوال مـأثورة، وسـير وتـراجم، وروايات، وحوارات ممتعة عبدت الطريق (*).

والشكر، خاصة، لـ " دانيـل أونيـل "، الصـحفية الفرنسية التي كانت تبحث عن

" هنري كيسنجر الإنسان " فوضـعت يـدي علـى بهاء طاهر ... كيف!

(*) أخص بالذكر، الحوارات التي أجريت مع بهاء طاهر في... أهرام ١ / ٩ / ١٩٩٨، ١٤ / ٢ / ١٩٩٩ م. العربي سبتمبر ٩٩.

أفدت كذلك من دراسة الناقد محمود عبد الوهاب " قراءة في قصص بهاء طاهر القصيرة "، أدب ونقد، نوفمبر ١٩٨٥.

ومن كتاب الأستاذ مفيد فوزي " هيكل الآخر ".

" سؤال أطرحه على روح العالم "

البهاء حسين

م. مطروح خريف ٢٠٠٠

" بعيداً إلى الكرنك "

أورثته المعرفـة كثـرة الحـزن. عـوده النحيـل وعيناه الواسعتان تطـلان – فـي دهشـة – علـى العـالم وتخبئـان الكثيـر ... رائحـة الكرنـك، القـاهرة، كليـة الآداب ... قسم التاريخ، سويسـرا " منفـاه الاختيـاري "، باريس، روما، بريجيت وسيد وحربـي وصـفية وضـحى وفريد، شـهوة إصـلاح الكـون، هـزائم الحـب ونفيـه، البحر ... ماذا يحدث. أي حياة فريدة هذه وأي كتابة!.

لا يخطـط بهـاء طـاهر للكتابـة ولا للحـزن ... وهو طفل كان يحلم بموت النملـة الفارسـية مـن ضـربة واحدة، فيعثر على خاتم سليمان، وأن يقـف علـى كتفـه – الأيمن! – فرس النبي لينجح!

كان يسمع حكايات كثيرة تسـلي بهـا الأم أولادهـا الثمانية عن القرية وناسـها والـزمن، هـل يتـذكر تلـك الأيام ... الفقـر والمظـاهرات ضـد الملـك والإنجليـز، وأول لقاء بالكتب والموسيقى. هل يتذكر تلك الحياة.

قلت له: أستاذ بهـاء، أعتقـد أنـك سـوف تبقـى طويلاً في ذاكرتنا، فقال: كل كاتب فـي الـدنيا يتمنـى أن

يبقى طويلاً، لأن ما يكتبه يكـون نتيجـة معانـاة حقيقيـة يود لو يشرك الآخرين فيها، ثم تـدفق فـي الإجابـة عـن أسئلتي ... بسيطًا وحقيقيا وموجعـا ... وبـدأنا نتحـاور – بغير قيود – عن أشياء بعيدة وقريبـة، وأشـخاص ذهبـوا، وآخرين ما زالوا على قيد الحياة.

قلت:

* أولاً، لنعد بالذاكرة سـتين عامـا، أسـألك عـن الظـلال البعيـدة، عـن الكرنـك ... القريـة والنـاس وحكايات الأم عنها.

مال إلى الوراء برأس مسـه شـيب خفيـف وبـدأ يتحدث:

– الكرنك بالنسبة لي – فـي الطفولـة – ذكـرى. من ناحية ضـبابية جـدا، ومـن ناحيـة أخـرى شـديدة الوضوح، لأنني – كمـا قلـت لـك – كنـت أراهـا فـي بعض الأجازات الصيفية، ولـذلك عبـرت عـن الحكايـة تعبيرا صحيحا حين قلت ... إن قريتي هي أمي ...

التي كانت تعيش هناك ليس تفاصـيل الحيـاة فـي القرية فحسب، ولكن روح القريـة – إن جـاز لـي هـذا

التعبير – بمعنى أنها كانت تعتبر عمرهـا الطويـل خـارج القرية هامشًا على وجودها القصير، ولكنـه الحقيقـي جـدا في القرية في فتـرة الطفولـة ومطلـع الشـباب قبـل أن تتزوج.

إن ذلك الحـب الشـديد الـذي كانـت والـدتي – رحمها الله – تكنـه لمسـقط رأسـها ولملاعـب صـباها، انعكس على أنا أيضا في صورة حب شـديد لهـذا المكـان الذي كانت عنـدما تـتكلم عنـه يـرق صـوتها وتشـحذ ذاكرتها، لكي تحدثنا عـن التفاصـيل. وذكـرت – ربمـا في أحاديث صحفية – أنني عنـدما كنـت أذهـب إلـى القرية كنت أتعرف على بعض الناس مـن مجـرد روايـة أمي عنهم، وكانت تصيبهم الدهشـة الشـديدة جـدا ... أن طفلاً صغيرا يقول ... إزيك يا جدي فـلان، أو ازيـك يـا خالتي فلانة، وهو لم يره من قبـل، لمجـرد أننـي كنـت أسمع والدتي تتحدث عن هذا الجد أو عن هذه الخالة.

هذه القصص التـي كنـت أسـمعها منهـا كانـت تعيش في وجداني كمـا لـو كانـت أشـياء حقيقيـة، أنـا عشتها لم تعشها أمي.

القرية – في الحقيقة – هي أمي بأكثر من معنى ... بمعنى أنها صورة الأم التي انطبعت في وجداني، والتي كنت عندما أذهب إلى الكرنك أبحث عنها، أبحث عن تلك الصورة التي كونتها من هذه الروايات المتناثرة، وهي أمي بمعنى أنها مقترنة اقترانًا شديدا بوالدتي رحمها الله.

لا أدري لماذا أتذكر الآن مليم نجيب محفوظ – أطال الله عمره – حين وجد نفسه طفلاً حائرا في الطريق في يده مليم، ولكنه نسى تماما ما كلفته أمه بشرائه، وهو يحاول أن يتذكر فيفشل، ولكن كان من المؤكد – كما يقول – أن ما خرج لشرائه لا يساوي أكثر من مليم! ما علينا. قلت:

* أستاذ بهاء ... تنفست الحياة وعمر والدك حوالي ٥٥ سنة، وأحيل إلى المعاش وأنت في الخامسة من عمرك، وتوفى وأنت في السابعة عشرة، هل حكت لك أمك عن اللحظات التي استقبلت فيها الحياة، ماذا بقي من والدك، وكيف كانت علاقتك به؟

– سألتها عن تلـك الظـروف مباشـرة ... متـى ولدت، الصبح، بالليل، لكنها لم تكـن تـذكر، وإنمـا قيـل إنني كنت طفلاً شـقيا جـدا، وشـديد الحيويـة، وكنـت – وما زلت – نحيلاً. كانـت أمـي خائفـة مـن أن أمـوت، فاهتمت بأن تعطينـي المقويـات الشـعبية علشـان أتخـن شوية، ولكن باءت كل جهودها بالفشل.

بالنسبة لوالدي – رحمة الله عليـه – كـان شـيخًا أزهريـا، وكـان شـيخًا أزهريـا أنيقًـا جـدا، يضـحك باقتضاب ويكمل: يعنـي لابـد أن يكـون لـون القفطـان مناسبا للون الجبة ... الخ، كان يقضـي وقتًـا فـي ذلـك، وكان شخصا قويـا يشـبه " سـي السـيد " ... لـه هيبـة فظيعة في نطاق الأسرة، وربمـا خـارج الأسـرة، لأنـه كان مدرسا، فكل أبنـاء الحـي والشـارع مـن تلاميـذه. وكان شـديد الاعتـزاز بالـذات ... يعنـي كـان يتحمـل مسئوليات تفـوق طاقتـه، وهـو المـتعلم الوحيـد وسـط إخوته غير المتعلمين الذين يعيشون فـي القريـة ويعملـون بالزراعة. فكان يشعر أنه ملـزم – بحكـم الامتيـاز الـذي حصل عليه، وهو العمل الحكـومي الميـري والمرتـب –

بأن يساعد إخوته بقدر استطاعته، ولـم يكـف عـن ذلـك حتى عندما أصبحت ظروفه وظروفنـا الماليـة لا تسـمح بهذا الترف.

إلى جانب اعتـزازه الشـديد جـدا بذاتـه، كـان مولعا بالقراءة بشكل لم أره فـي حيـاتي ... كانـت لديـه مكتبة عامرة بأمهات الكتـب، كـان بمجـرد مـا يصـلي الفجر يتربع على الكرسي الأسيوطي ويسـحب أحـد هـذه الكتب ويظل غارقًا فـي القـراءة، ربمـا إلـى أن تحـين صلاة الظهر، أحيانًا – وأنا طفـل صـغير جـدا – كـان يرسلني بوريقـات صـغيرة إلـى بعـض أصـدقائه مـن أساتذة اللغة العربية، ومـن محبـي القـراءة مـن أمثالـه، يستفسر فيها عن بعـض الأشـياء التـي صـادفته أثنـاء القراءة، كلمة أو تعبير ... الخ ويقـول مـثلاً ... الصـديق فلان، لم تصادفني هذه الكلمة، ولم أجـدها فـي القـاموس، فهل مرت عليك من قبل. وأعود أحمل إليـه الـرد ومعـه سؤال أيضا مـن نفـس الشـخص الـذي أرسـلني إليـه، **ضاحكًا من قلبه يستأنف:** وقتها كنت أتضـايق مـن هـذه المشاوير طبعا، ولكـن هـذا يعطيـك فكـرة عـن الجـو

الثقافي للمدرسين والموظفين في ذلك العصر ... إلى أي درجة كان اهتمامهم بالمعرفة!

أبي مات وهو يقرأ، أنا فاكر ... صحوت في يوم من الأيام على جلبة في البيت، فعرفت أن والدي مريض، لم تستغرق المسألة ربع ساعة ومات، شفته في النزع الأخير. رحمه الله توفي مرتاحا، أريد أن أقول ... لم يتعذب في الوفاة، رغم أنه كان مريضا بالسكر.

ولا أذكر أنه تدخل بأي شكل في تعليمي. بمعنى ... أنا كنت الأصغر، وكان قد جرب في إخوتي الأكبر مني أساليب مختلفة في التربية من القسوة إلى اللين ... الخ، لكنه لم يكن يقول لي حتى ذاكر. كانت لديه ثقة في إحساسي بالمسئولية، وقالها لي، قال:انا مش خايف عليك.لاكنه حزن جدا حين دخلت كلية الآداب ٠٠كان أقسم مرة ألا يشتغل أحد من أولاده بالتدريس، لأن التدريس – في رأيه – مهنة ناكرة للجميل، وتستنزف العمر بلا مقابل، وأنا وعدته

والتزمت بوعدي، رغم أنه مات وأنا في سنة أولى جامعة.

*** قلت: هل هو الذي اختار اسمك. ولم يكن في حاجة للتذكر، فبادرني ...** نعم هو الذي اختار اسمي ... محمد بهاء الدين طاهر، **واستطرد:**

تسألني عن علاقتي بأبي.

كان أزهريا – كما قلت – وكنت أنا الأصغر، وكان التقليد في ذلك الوقت أن يوهب أحد الأبناء للأزهر، فأدخلني الكتاب في مدينة الجيزة. حفظت جزءا لا بأس به من القرآن الكريم، ومرت سنة، ولا أعلم لماذا عدل أبي عن أن أكمل تعليمي في الأزهر، وقدم لي أوراقي في مدرسة الجيزة الابتدائية، فدخلت السنة الثانية مباشرة بعد امتحان نجحت فيه.

في هذه السنة أذكر أحد المدرسين قال لنا: قولوا لأهاليكم ... الحرب العالمية الثانية انتهت، لن تفهموا هذا الكلام، ولكن لابد أن تعرفوه، لم يكن يدري أني – وأنا في هذه السن – كنت أتابع بشدة، يضحك: مجريات الحرب. كانت والدتي تغضب جدا لما كنت

أمسك الجرنال وأقرأه بصوت عال قـدام أصـدقاء والـدي ويضحكون ... الطفل الصغير ده عـارف غـزوة تشـيكو سلو فاكيا ... الخ، فكانت والدتي تغضب خوفًـا علـى مـن العين! كان مـن المسـتغرب أن طفـلاً دون الثامنـة مـن عمره على علم بالحرب.

أقول مقاطعا وضـاحكًا فـي الوقـت نفسـه ... أو على علاقة، فيضحك ويؤمن على كلامي، ...

أو على علاقة

المهم ورثت عن أبي – رحمـه الله – هـذا الـنهم الشديد للقراءة، كنت ألاقي الجرنـال تحـت البـاب، وقبـل أن يصحو أحد في البيـت أكـون انتهيـت منـه، وإذا لـم افرغ منه أستخبى لأكمله، ولما أسـمع أبـي يقـول: فـين الجرنال ... فـين الجرنـال ... يضـحك بشـدة: أنسـحب بسرعة وأحطه في مكانه قبل أن تنكشـف الجريمـة. كـان والدي حافظًا للقـرآن الكـريم طبعـا، ومتخصصـا فـي القـراءات ... ورش وحفـص وعاصـم ... الـخ، وكـان يدرسها في بعض المعاهد الأزهرية، حتـى بعـد خروجـه إلى التقاعد.

*** هل تغير، هل انطـوى علـى نفسـه بعـد التقاعـد، أو تغيرتم.**

طبعا، ما زالت أذكر النقلة الكبيرة مـا بـين حيـاة فيها نوع من الرخاء النسـبي ... لعـب وهـدايا ... الـخ، والنقلة إلى حياة التقشف الشديدة جـدا التـي أصـبح فيهـا مجرد الحصول على حذاء أو على بنطلـون للـذهاب إلـى المدرسة، محنة كبيرة تمر بها الأسرة.

الخروج إلى المعـاش كـان محنـة أثـرت عليـه وعلينـا كلنـا كأسـرة، وضـاعف مـن مسـئولياته أن الملاريا اجتاحت الصعيد فـي سـنة ١٩٤٢ م. وتضـاعفت الأزمة الماليـة التـي كنـا نعيشـها. يعنـي لا أذكـر – باستثناء تلك الفترة الذهبية السـابقة علـى خـروج والـدي إلى التقاعد – أنني اسـتمتعت إطلاقًـا بمـا يسـتمتع بـه الأطفـال أو الصـبية فـي المدرسـة ... لـم يكـن لـي مصروف، أو كان هناك أي نوع مـن التـرف، بـل كـان الحصـول علـى الرسـوم الرمزيـة – ثلاثـة جنيهـات ونصف، لأنني كنت أتعلم بالمجـان – محنـة تحتشـد لهـا

الأسرة كلها. أذكر تماما أنني لم أستمتع فـي صـباي بـأي شيء سوى بالقراءة.

كنت أحـاول – وهـو يتـذكر تلـك الأيـام – أن أرى ملامح هذا الطفل الحزين الذي يحكـي عنـه، فسـألته ألا يزال موجودا بداخله! قال بأسى:

جدا، جدا أنت لا تعلـم مـاذا فعلـت بـي تجربـة الملاريا، ووفاة الأقارب – وكثير منهم لـم أكـن رأيتـه – وجو الحزن الذي خيم علـى الأسـرة ... أمـي وإخـوتي وهم يلبسون الأسود، والمـرة الوحيـدة – فـي حيـاتي – التي رأيت فيهـا أبـي يبكـي وحيـدا ويحـاول أن يكـتم صوت بكائه ... كـان يسـد فمـه بيـده ... هـذه الفتـرة وعمري ٧ سنوات، لـم تمـح مـن ذاكرتـي أبـدا أبـدا، والمشقة المادية التي عشتها وأنا طفـل، وحرمـاني حتـى من المسرات البسيطة، مـا زالـت محفـورة فـي ذهنـي، وعندما أكلـم أولادي عـن ذلـك، لا أجـد صـدى علـى الإطلاق.

ضحك ساخرا وهو يمط كلمة الإطلاق، وأكمل دون مرارة ... لا أجد صدى لمثل هذه المعاناة، ويقولون: وإحنا مالنا، ظروفك كانت كدة!!

*** ووالدتك، كيف استقبلت حدث وفاة الوالد.**

يا الله، نوع الحب بين الناس في هذا الجيل كان شيئًا كبيرا جدا يا بهاء، أنا قلت لك: إنني رأيت أبي يبكي مرة واحدة في حياتي، غير صحيح، أنا رأيت أبي يبكي مرتين، الآن أتذكر، كان عمري وقتها ١٢ أو ١٣ سنة، رأيته يمسح دموعه في حجرته، لأن أمي مريضة.

أمي لما مات أبي كانت الحياة بالنسبة لها تكاد تكون انتهت، ولولا أنها كانت مسئولة عن أسرة ضخمة، ولولا أن هذه السيدة الأمية العظيمة كانت مدبرة ... أنا الحقيقة، لا أعرف حتى الآن، كيف عشنا!!

عمرك أطول من عمري، كان في بالي الآن أن أسألك، ٨ أولاد ومعاش ضئيل، كيف واجهت هذه السيدة الحياة، بهذه الهموم في أوقات عصيبة!

والله بمعجـزة يـا أخـي وحيـاة ربنـا، كـان باستمرار هناك مـا يؤكـل، كانـت باسـتمرار مسـتورة والحمد لله، ولكن ما زلت اسأل نفسي ... إزاي!

سأحكي لك حكاية غريبة، أرخـص حاجـة أيامهـا كان الجمبري ... **لاحـظ دهشـتي فقـال وضـحكته تكـاد تتلاشي:** كانت وقة الجمبري بـ ـ ٣ صـاغ، الوقـة أكثـر من كيلو، فكانت تجيـب وقتـين جمبـري وتعمـل جنـبهم شوية رز، كنا نتذمر بشـدة ونقـول: تـاني جمبـري ... تاني جمبري.

نستغرق نحن الاثنين في ضـحك طويـل، وأقـول معقبـا ... كأنـه فـول ... تـاني فـول ... الآن يمسـح عينيه، وأسـكت لأسـمع بقايـا ضـحكته العميقـة تـرن حولي فـي العاشـرة لـيلاً، وفكـرت أن هـذاالوقت مـع اللوحات والتحف والإضـاءة السـاجية ودوائـر الـدخان تخرج من فمه بطيئة متكسـرة، لـيس عاديـا، أتـذكر أن عندي كثيرا من الأسـئلة، والوقـت ضـيق لكنـه فجـأة يقول:

وأحيانًا شـربة عـدس، وأحيانًـا بصـارة، يعنـي كانت تدبر يسكت قليلاً متعجبا ... بـالعكس كانـت تـدبر ما هو أكثر مـن ذلـك يـا أخـي والله ... والـدي – الله يرحمه – كان يشرب الشيشـة، والأمـور متأزمـة جـدا، لكن أمي كانت تدبر علـى جنـب كـدة بعـض القـروش، ولما يخلص التمباك تقول لي: خد اشـتري دخـان لأبـوك، ولما يسألها جبتيه منين؟ تقول: ربنـا كبيـر! مـاذا أقـول لك، كان نوعا من الحب لا يعبر عنـه الكـلام ولا الألفـاظ ولا أي لغة، لا شيء من هذا أبدا!!

*** هذا الحـب، هـل كـان بينهمـا قبـل الـزواج أيضا.**

– لا، لم يسبق زواجهما حـب: ثـم سـكت فجـأة واستدرك: أظـن – والله أعلـم – أنـه كـان، لأن أختـي الكبيرة كانت تحكي لي أن أبي كـان يعـرف أمـي قبـل الزواج، وتعلق بها قلبه، لا أعرف بالضـبط ولكـن يبـدو أنه حدث فعلاً.

*** سـؤال سـخيف ... هـل بكـت عليـه حـين مات!!**

– ياااه، بكاء شديدا، ولكن كان لازم تفوق بسرعة، لتعول هذه الأسرة الكبيرة، كان لازم.

أعود وأسألك عن اللحظة الفارقة – تقاعد الوالد – كيف تغيرت حالته بعدها؟

كان قبلها مرحا جدا يحب الناس، ولم تكن الزيارات تنقطع عنا، ولكن بعدها ما لم يكن لديه شغل في الأزهر لا يخرج من البيت.

*** ماذا ورثت عنه؟**

– الاعتزاز الشديد بالنفس.

*** لدرجة أن تخاصم عصرك،**

– لدرجة أني لا أقبل أي مساس بكرامتي.

*** وماذا ورثت عن الوالدة.**

– كانت شديدة الحساسية، ودعني ... يبتسم وهو يقول: استخدم كلمة لم تكن معروفة على أيامها ... كلمة السرد دي، إلى آخر عمرها كنت أقعد تحت رجليها، وأقول لها: احك لي يا حاجة، فتضحك وتحكي.

*** ألم تقف الحياة عند أحزانك؟**

– بمعنى ...

*** بمعنى أن تهبط مـن السـماء معجـزة توقـف الحياة، لتستوعب كل حزن على حدة.**

– هـذه الفتـرة كانـت آخـر أيـام الملكيـة، لأن والدي توفى – أظن – في السـنة الأولـى للثـورة. كـان همي أن أبحث عن عمل أساعد بـه نفسـي، وأسـاعد بـه الأسرة، ولكن كان دون ذلك خـرط القتـاد، أنـا أشـتغلت وأنا في الجامعة بعد أن قامـت الثـورة فـي عـز أزمـة البطالة، وهذا شيء لا يعرفه كثير مـن النـاس ... كيـف كان العمـل والحيـاة فـي تلـك الفتـرة، صـمت لحظـة واستأنف بعد نفس طويل متألم: حـين أكلـم النـاس عـن هذه الفترة يهزون أكتفـاهم ويقولـون: ومـا لـه ... إنـه التطور الطبيعـي! التطـور الطبيعـي أن تـرى نصـف الناس حفاة في الشوارع يلبسون أسـمالا، الثـورة جعلـت للناس كرامة بالتـدريج وبالقـدر المحـدود مـن المسـاواة الاجتماعية الذي حققته. عنـدما أكلـم أحـدا مـن أعـداء الثورة يقول: وإيه يعني، هذا هـو التطـور الطبيعـي، أن يتحسـن النظـام الاقتصـادي ويرتفـع مسـتوى معيشـة

الناس. هذا غير صحيح، لأنه كان من الممكن أن يستمر هذا الفقر الطاحن. وكان ممكنًا أن يستمر ذلك الإهدار لكرامة الإنسان لولا الثورة ... لو لم يكن هناك المجهود الإرادي.

المهم أنا في تلك الفترة كنت أتمنى بالفعل أن تتحقق معجزة، وحاولت أن أصنع هذه المعجزة بالعمل، فاشتغلت مرة وحيدة لمدة شهرين بقروش زهيدة جدا.

*** في ظل هذه الظروف ألم تطلب المساعدة من أحد!!**

– لا والله يا أخي ... بالعكس تماما، ظل مستمرا دعمنا المحدود الذي نقدمه للأقارب في الأقصر.

*** كمان!!**

– أي والله وحياة ربنا، ظل مستمرا على حساب لقمة العيش التي نأكلها!

*** شطر كبير من طفولتك إذن، كان في أجواء هذا الفقر الشديد، ما أثر ذلك عليك وعلى كتابتك.**

– لا أستطيع أن أرصد ذلك الأثـر فـي كتـابتي، إنما أستطيع أن أقول لك عـن حاجـات فـي الشخصـية. بدون كذب أو افتعال، أنا أندهش جدا حـين يكـون معـي من الفلوس ما يزيـد علـى حـاجتي الشخصـية، أنـدهش جدا ولا أعرف كيف يمكن أن استفيد مـن هـذه الفلـوس. أثرت أيضا في أنني – طوال عمري – لـم يكـن عنـدي، ولا عندي في هذه اللحظـة، طمـوح لكماليـات المعيشـة. مثلاً أنا ليسـت لـدى سـيارة ولا أشـعر بالحاجـة إليهـا إطلاقًا، بل اشعر بغربة شديدة جدا حـين أقعـد مـع نـاس يتكلمون عن تغيير العفـش والشـراء ... الـخ. باختصـار فكرة الاقتناء غريبة عني غربـة تامـة، يكفينـي دائمـا – الحد الأدنى للمعيشـة، أنـا حتـى عنـدما اشـتغلت فـي سويسرا وكان راتبي كبيرا، كـان زملائـي يشـترون أولا سيارة، ثم يغيرونها بـأخرى أحـدث، ويتكلمـون طـوال الوقت عن هذه الحكاية، وعنـدما جئـت إلـى مصـر لـم تكن لي شقة، كنت أنزل في شقة مفروشـة، وهـذه الشـقة التي تراهـا اشـتريتها قبـل التقاعـد بسـنة أو سـنتين، بمحض المصادفة، قصدي أن فكـرة الاقتنـاء هـذه غيـر

موجودة عنـدي أصـلاً، هـل هـذا بسـبب تلـك الفتـرة الأولى، ربما، أم بسبب أنني عشت سـنوات التكـوين فـي ظـل الشـعارات الاشـتراكية وكـلام صـلاح جـاهين الجميل. لا أدري!

عندي تفسير شخصـي، أنهـا لا هـذه ولا تلـك، ولعلك تذكر تعليل النقـاد لحـرص المتنبـى علـى المـال بطفولته وما لاقاه فيها من عنت وضنك. قـد يبـدو هـذا الاستشهاد مقحما، إنما أقصـد بـه أن أقـول: إن زهـدك لو كان أثرا – كما تقول – من تلك الفتـرة، لكـان أدعـى أن ترغـب – بشـدة – فـي الاقتنـاء لا العكـس، وأن تحرص علـى المـال، ولا أظـن أن الشـعارات الجميلـة وحدها تخلـق نزعـة مـن العـدم، إن لـم يكـن الطبـع مواتيا، أعتقد أنه طبـع يـا أسـتاذ بهـاء وقـيم تحكـم السلوك، وأنت أدرى بنفسك.

راح بعيدا، بداخله، ثم تنهـد وقـال: ربمـا أنـا – في الحقيقة – أكثر جشعا وطمعا ممـن يحبـون الاقتنـاء، يمكن طموحي أكبر بكثيـر مـن أن يكـون عنـدي فـيللا وسيارة وشاليه على البحـر إلـى آخـر الأشـياء التـي لا

أكن لها أدنى أهمية بأي شكل من الأشـكال. يمكـن يكـون طموحي لما هو أكبر من ذلـك، ولا تعتبـر هـذه مزايـدة على أحد.

أظن أن طمـوحي لامـتلاك المعرفـة، لامـتلاك القدرة على الفهم ... القدرة علـى.. **يخـبط بيـده علـى فخده الأيمن قبـل أن يقـول مرتاحـا كأنـه عثـر علـى ضالته، أو نفض عن صـدره همـا، ثقـيلاً، أو كـأن مـا قاله هو – بالضبط – ما يريد.**

على المعرفة يا أخي، معلهش ... أنا آسف

*** هل الحقيقة متعبة؟**

– متعبة جدا جدا.

وجميلة

نعم.

*** ما العلاقة بينها وبين الحقيقة والحياة؟**

هذا السؤال عّن لي أن أسـأله، ولـم أكـد أفـرغ منه حتى شعرت بثقل دمي حين قـال، كأنـه لـم يسـمع شيئًا: نحن نـتلكم دون ترتيـب. وشـعرت بـالحرج، مـا معنى ذلك ... هـل سـؤالي سـخيف، أم أنتحـل سـؤالاً

عويصا - إن كان كذلك - أو أدعيه لأظهر ثقافتي، ماذا يظن، فعلاً شعرت بالخجل وبالغضب، لكنه قفز بذكاء على الموقف وعاود الكلام بعد صمت قصير ...

هذه الظروف الصعبة جدا التي مررت بها في الطفولة - كانت بالإضافة إلى نموذج والدي - من المؤثرات التي جعلت متعتي الأولى والوحيدة هي القراءة. لن تصدق أنه وأنا في ابتدائي، كنت أقرأ أشياء لم يعرفها غيري إلا بعد ذلك بمراحل، بعضها كان في مكتبة والدي ... أذكر مصرع كليو باترا ٣ أو ٤ مجلدات، وكنت أقرأ الكاتب المصري لطه حسين، لأن والدي كان يشتريها. لم أكن أقف أبدا عند مستوى السن التي كنت فيها ... ربما تكون النشأة الأولى هي التي لعبت الدور في ذلك، أو ربما هو الاستعداد الشخصي.

*** هل شبعت من المعرفة؟**

- إطلاقًا وأشعر - اقسم بالله - أنني ما زلت في سنة أولى.

*** علاقتك بالموت مبكرة تعود - كما قلت إلى عام ١٩٤٢ - حين فقدت نصف أسرتك، بعد ذلك**

توفي والدك، وبعده أخوك الأكبر، ثـم تـوالي الفقـد مـن اتجاهات وبأشكال عدة. ألهذا كثـر الحـزن فـي كتابتـك، قل لي، مـا فكرتـك عـن المـوت، هـل المـوت يلغـي الوجود، هل الموت راحة!

– صعب أن أرصـد بنفسـي هـذا الحـزن فـي كتاباتي، أما الموت، فأذكر – وأنـا طفـل صـغير – أنـي كنت مرعوبا من فكرة أن يموت أبي وهـو شـيخ مسـن، طبعا لم أكن أعبر عن هذا الرعـب، لأنـي كنـت أعـرف أن المسنين يموتون، فكنـت أظـل مؤرقًـا طـوال الليـل، أنام وأصحو، أنام وأصـحو، ولا أنـام مطمئنًـا إلا عنـدما أسمعه يصلي الفجر.

فكرة الموت المباشرة هـذه، أثـرت علـى حتـى من قبل حكاية الملاريا والوفيـات الجماعيـة فـي الأسـرة وفي القرية. إنما فكرة الموت الفلسفية بغـض النظـر عـن ظاهرة الموت الفردية، يهيأ لي أنها أهـم سـؤال مطـروح على الإنسان أو على الكاتب، وكمـا يقـول هيمنجـواي: " كل القصص تنتهي بالموت " هذه الحكايـة حقيقيـة جـدا. هناك في آخر السكة ذلك الحـائط السـد، ولا سـبيل إلـى

الهروب منه، وربما أكـون تطرقـت لهـذه الفكـرة فـي قصة

" محاورة الجبل ".

[فوق جبل – يدور حـوار بـين كهـل وشـاب، جرب كلاهما الحياة، وكـان المـوت علامـة فارقـة فـي تلوين نظرتيهما لها. الشاب ماتت أختـه الجميلـة محاسـن وهي في العاشرة، وعرف فـي الـدنيا شـيئًا لـم يعرفـه الكهل ... أبا يموت وفـي عينيـه رضـى وسـلام، مـن ناحية الكهل – وقد جرب الحياة طـويلاً هـذا الكهـل – لا يرى في الحياة سوى أنها كـف غليظـة تحـدفنا بصـفعة واحدة إلى القبر منذ أن نولـد ... فعلتهـا معـه، إذ مـات أبواه في حادث سيارة في الخامسـة عشـرة مـن عمـره، وهي – الحياة – فخ يحاذر هذا الكهل ألا يقـع فيـه. وهـو يخادع الموت بألا يملـك شـيئًا أو يملكـه شـيء. هكـذا وحيـدا خالـدا – فيمـا يقـول – يمضـي فـي مواجهـة المعركة قويا لقد صار سيد نفسه ويسـتطيع أن يفعـل فـي الدنيا ما يشاء. هذه فلسفته القديمة، مذ كـان شـابا يـرد – إذا أراد – صفعة الكف الغليظة.

الموت إذن – المادي والمعنـوي – يحـدد موقـف اثنين جمعتهما المصادفة وقطعة حشـيش ومحـاورة. هـل يستمر الكهل – ومن عجيب أمـر حيويتـه الكرامازوفيـة القديمة هذه – ليس فقط فـي يقينـه بـأن الحيـاة نهـزة لا يجب أن نضيعها في الشـعر أو الفلسـفة ... الـخ، ولكـن في معركته التي لا تهدأ معهـا! أيسـتطيع هـذه المـرة أن يرد لها الصفعة حين يقع الشـاب – فـي غوايـة جديـدة/ قديمة يتقنها تماما، كمـا فعـل مـع هـانم وعبـاس وا ... وا ...

إن الكهل لـيس سـوى المـوت/ الكهـل، يحـاول الشاب الآن أن يخادعه فيتركـه وحيـدا بشـعره الأشـيب فوق الجبل، لكن السؤال ... إلى أين؟! يقـول الكهـل فـي تلك المحاورة: " الحقيقة أن هذه الحيـاة فـخ. فـخ نتخـبط فيه منذ نولد، والغلطة أننـا نحـاول الخـروج مـن هـذا الفخ ... بالشـعر كمـا تحـاول أنـت وقليـل مثلـك ... بالتصوف كما يحـاول غيـرك ... تـرى عيونـا مسـبلة ومتهدلة وميتة قبل الموت ... فـي الشـهرة، أو المناصـب كما يحـاول آخـرون ... يتسـابقون ويضـعون خططـًـا

ويصنعون مكائد صغيرة لكي يصلوا ... وما يصلون إليه في نهاية عدوهم هو ذلك الحائط الأصم الذي ترتطم به رؤوسهم ... رأيت أيضا من يحاولون عن طريق الخمر والعشق، وفي عيونهم نهم لا يرتوي كأنهم يرشفون سر الحياة نفسه ... ورأيت كثيرا من الأغنياء يتكالبون على اكتناز المال واقتناء الأشياء وكأنهم – مثل أجدادنا القدامى، سيحملون معهم تلك الأوراق وذلك الحديد إلى مقابرهم، كل تلك أيها الشاعر محاولات لمخادعة الموت ... لنسيان أنه يقف هناك، قريبا جدا ... ممسكًا بخيوط الفخ ".

في النهاية ينحدر الشاب – دون تردد – إلى الأرض، يعود، لكنه يلتفت حين يقول الكهل – بيقين: أيها الشاعر سوف تبحث عني! وتعود إلى. يرد الشاب، ومن يدري ربما بحثت أنت عني!

" لا أظن "، هكذا يحسم الغريب المحاورة وساعتها تنسحب – في القصة – النجوم من السماء، ويبدأ الغمام الأبيض – لون الكفن والشيب – يصبغ الليل!

قلت: إنه الموت/ الكهل، أو الحائط الأصم، لا يتصارع هنا مع الحياة في معركة غير متكافئة، وغير عادلة أيضا، بل يحدد – مسبقًا – موقفنا نحن الأحياء منها. يتركها قليلاً من الوقت ترقص فينا ... نقترب من السر، نكاد نمسك به، ولكننا لا نمسك به أبدا. نعم تملؤنا النشوة وننتظر أن تفيض الكأس ولكن بشروط الكهل ... بعبثيتها الفادحة.

أرجع ... إلى بهاء ظاهر، وكان ما زال يتحدث قال الأستاذ: أيضا في مطالع الشباب كانت الوجودية شائعة جدا في الوسط الثقافي، وتترجم في بيروت كتب سارتر وكامي وقرأناها جميعا، يحتمل أن تكون هذه المحاور الفكرية حول موضوع الموت قد أثرت في، إلى جانب الأحداث الشخصية في حياتي.

يخيل لي – كما يقول أحد الشخصيات في قصة محاورة الجبل هذه –: إن كل محاولاتنا وسعينا هي محاولات لمخادعة الموت، أو كما يقول طرفه بن العبد:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لك الطول المرخى وثنياه باليد

أليس كذلك؟

*** عندي تصور طفولي للحكاية، وهـي أنـه لـو لم يكن هناك مـوت لضـاقت بنـا الأرض، ورغـم ذلـك أتساءل ... هل كان ضروريا أن يكون هناك موت!**

– لا بد أن تكـون مؤمنًـا، لابـد – لكـي يرتـاح قلبك في هذه المسألة – أن تجد البحـث فـي الإيمـان ... الإيمان الفطري البسيط الذي جعلـك تعبـر عـن الحكايـة بأنه لو لم يكن هناك موت لضاقت بنا الأرض.

* هل هو راحة؟ تنهد طـويلاً وقـال: راحـة ... لا، ولكنه إحدى حقائق الحياة التي يجب تقبلهـا، أمـا أنـه راحة، فلا أسمى الموت " راحة " ... إنـه مأسـاة كبيـرة، أو كما قال المتنبي:

إذا ما تأملت الزمان وصرفه تيقنت أن الموت ضرب من القتل

وعندي شخصية حشمت – في قصـة أنـا الملـك جئت – تكلمت في هذا الموضوع كثيرا.

[" لم يأتني الموت لما سعيت له " هـذا مـا يقولـه حشمت، بعد رحلة كان سعيه فيهـا أن يفهـم المـوت أو – على الأقل – أن ينظم عشوائيته " حـين يـأتي فـي غيـر أوانـه "، هـذا الأوان يسـتفزنا لمواجهـة مـع المـوت، خاصة حين يتصل بنا شخصـيا وحولنـا بقليـل ... هنـا

تتفجر الحيرة الأصعب ... الحيرة البائسة وتتقوض فينا مكامن الطمأنينة واليقين.

يبدو حشمت في المقطع الرابع من " أنا الملك جئت " (٢٨ مقطعا) ... في موضع مفصلي، فبطل القصة فريد – طبيب العيون – يصل إلى قناعة بأن " أبشع شيء ليس هو الحزن، ولكن اختفاء الحزن "، ويقول ذلك لحشمت، زميله في جامعة جرينويل وأعز أصدقائه، وقد مر أيضا بنكبة فادحة – يقول حشمت لفريد " عشت تجربة قريبة من تجربتك، وفي نفس الوقت تقريبا لما ماتت أمي ".

عاشت أم حشمت " أرملة بعد زواج قصير وغير سعيد ". وكان حلم حياتها أن تراه طبيبا لتذوق – مرة واحدة فقط – طعم الفرح. تمرض بالتيفود – فجأة عقب تخرجه مباشرة وتموت!! هنا يبدأ السؤال الكبير ... كيف يمكن تنظيم عشوائية الموت، كيف يكون عادلاً، وما جدوى الطب؟

ويدخل حشمت بالسفر ... بالتيه في أواسط أفريقيا حيث السحر والجذام والمرض والحشرات

والحمـى والتسـمم، حيـث المـوت هنـاك فـي النهايـة أيضا ... يدخل بـذلك – فـي محاولـة أخيـرة – تجربـة الإجابة عن هذا السؤال السـد، إذا جـاز التعبيـر. نفـس المشوار سيقطعه فريد إلى الصحراء.

ومع كثرة ما كتب عـن المـوت – إبـداعا ونقـدا – فإن أحدا لم يصل بعد إلى إجابة، أو يعثـر علـى يقـين بهـذا الشـأن. الآن " كـل محاولاتنـا هـي محـاولات لمخادعة الموت ". هذا هو موقفنا، أقصـى موقـف وأبعـد محاولة عند بهاء طـاهر لفهـم المـوت أو فلسـفته. هـل الموت عادل؟ وهذا هو السؤال التأسيسـي للمـوت كفكـرة فلسفية عنده. موت أم حشمت غيـر عـادل تمامـا ... أي غير مبرر، كذلك مـوت " مـارتين " التـي أحبهـا فريـد أثناء دراسته في إنجلترا، قال حشمت: لـم يـأتني المـوت لما سعيت له، إجابة عن سـؤال فريـد ... مـاذا تعلمـت. يستسلم حشمت – التصرف الوحيـد، والنهـائي، المتـاح – إزاء ما يحدث لقد عاد من أفريقيا بهذه القناعـة التـي لـم تمس قلب فريد، وها هو يقرر الخـروج إلـى الصـحراء. فلماذا تموت أم حشمت وهي لـم تفـرح أبـدا ... ثـم إن

حلمها بالسـعادة كـاد أن يتحقـق بتخـرج ابنهـا طبيبـا. ومارتين تختفي من يده في أوج سـعادتهما معـا!! فريـد، هذا الذي فرت السكينة منذ ٧ سـنوات مـن قلبـه. الآن – فـي خريـف ١٩٣٢ م بعـد النهايـة ... نهايـة مـارتين (إبريل ١٩٢٥ م)، ولا نعرف من القصـة، علـى وجـه اليقين، أي نهاية تلك، ولكن المؤكد أنهـا المـوت المحتـوم في فضاء بهاء طاهر دائما – ها هو فريـد يقـرر السـفر فلا يجد الشيخ " عبد الله " القاضي بالمعـاش بـدا مـن أن يبارك إصرار ولده على الخروج إلـى المجهـول. ويؤمـه في الصلاة ليلة السـفر مـع " راضـي " – لاحـظ دلالـة الأسماء – خادم الشيخ الخاص ورفيق فريـد فـي الرحلـة المزمعة، ثم يهمس الشيخ في أذن ولده " سـلم أمـرك تعـد السكينة إلى قلبك "

الآن يخرج مـن القـاهرة – عبـر الصـحراء – بالجمال إلى المجهـول ... هنـاك فـي معبـد فرعـوني بسيوة يقرأ فريد فـي المقطـع ٢٥ مـن القصـة – " أنـا الملك جئت، ولمـا المـرأة ذهبـت ولمـا تفـرق الـذين اجتمعوا حولي ... ولما وجدت نفسي وحيـدا اكتملـت فـي

تمامي، ولما كنت أنت إلهي وأنا صـفيك ... أنـت النـور وأنا صدى النور ... أتملى في ذاتي فـأراك وأتملـى فيـك فأراني، فإني بعيد عن الآحـاد جئـت لتكـون واحـدا أنـا وأنت. الآن ولم يبـق وقـت وبقـي الأبـد. الآن أناجيـك فتعرفني، أدون سري بعيـدا عـن الأعـين لعينـك أنـت فتعرفني، أتطلع إلى قرصـك اللامـع الـذي يرقـب مـن السماء كل شـيء وأنقـش علـى الصـخر سـري: إنـى حزين ".

هل عادت إليه السـكينة – بعـد أيـام مضـنية –! أعتقد أنه لم يعد الآن مشغولاً بها، أو قـادرا حتـى علـى أن يقرأ – من نفس النص المستقيم – " ولمـا وجـدت كـل فرحة تلد نهايتها وجـدت فـي فرحتـك أنـت المنتهـى "، ولكن نفسه تمتلئ إحساسا بهـا، فريـد يسـقط الآن – فـي المعبد نفسه – مرتعشًا علـى الأرض وآخـر كـلام علـى لسانه – في خاتمة القصـة أو خاتمـة المطـاف – سـؤال إلى شخص تشير عيناه إلى إناء لـبن مـن فخـار، يقـول بصوت خافت لفريـد: اشـرب، سـتكون بخيـر، وكـان صوت مارتن قد جاءه –قبيل لحظات ـ مـن مـاض بعيـد

حي يناديه: أعطنى يدك، نشرب معا مـن هـذا النبـع ... أو من هذه الكأس، كأس النهايـة الأبديـة التـي ستشـملنا جميعا.

أخر كلمة كانت على لسان فريـد لهـذا الشـخص الملثم الوجه ذي العينين السوداوين ... من أنت؟

في " أنا الملك جئت " لن تجد إجابـة عـن سـؤال الموت، ستجد مزيدا من الأسئلة عـن " الحـائط الأصـم " الذي في آخر المشوار: كان حشـمت يقـول لفريـد: هـل من الضروري أن أكون قد تعلمت شيئًا.

عدت ...

هذا كل ما حدث.

والآن يعود فريد أو يمـوت – سـيان – سـينتهي في النهاية – في آخر السكة – كل شيء.

لا بـأس ... عزاؤنـا فـي تلـك المحاولـة ... محاولة البحث عن السكينة والسـلام، أن تنتـزع الفرحـة والرضى من الشقاء والعزلة والاستسلام].

وعدت أسأل بهاء طاهر: هل فكـرت فـي موتـك أنت شخصيا، فاختلجت جفونه وقال:

- أتمنـى أن يكـون سـهلاً، لا يسـبقه مـرض طويل، أو فقدان للوعي. أتمنى أن أموت كمـا مـات أبـي وهو يقرأ.

قلـت: المـوت سـيأخذنا - بالضـرورة - إلـى الحياة الأخرى ... هل تؤمن بهـا، وبـأن الـروح خالـدة، وكان رده:

نعم مؤمن جدا

ثم نظر بعيدا وقـال: ليسـت لـدى مرجعيـة فـي ذلك غير ما نتعمله من القرآن الكريم.

*** " قل الروح من أمـر ربـي " هـل هـي أيضـا حائط سد؟**

- طبعا.

*** إذن نعود إلى الحياة الدنيا مـا شـكل علاقتـك الآن بأسرتك.**

- طيبة جـدا، أنـا آخـر الـذكور الأحيـاء مـن إخوتي، مع الأسف كلهم مـاتوا ... انتقلـوا إلـى رحمـة الله، علاقتـي بـأولادهم طيبـة جـدا، وكـذلك أخـواتي البنات، أعتقـد أننـا كأسـرة - بصـفة عامـة - أسـرة

متماسكة. كل منا يخدم الآخرين بقـدر اسـتطاعته. ليسـت هناك مشكلة.

*** تذكر ... في السـنة الثانيـة الابتدائيـة، قتلـت كثيـرا مـن النمـل الفارسـي ... يضـحك، وأكمـل السؤال ... هل عثرت على خاتم المرسلين.**

– لا لم أجـده، وجدتـه بعـد ذلـك، لمـا نفـس الشخص، أيـن هـو الآن أحمـد الجبـالي، دلنـي علـى روايات الجيب، كانت فعلاً خاتم سـليمان الحقيقـي الـذي فتح لي كنز القراءة، أنا مـدين لهـذا الكنـز أكثـر بكثيـر جدا، مما لو كنت وجدت خاتم سليمان.

*** كان أول لقاء بينك وبـين الكتـاب فـي مكتبـة الوالد، ثم اكتشفت – عن طريـق أحمـد الجبـالي، الـذي لا تعرف مكانـه – روايـات الجيـب، حـدثنا عـن هـذا التكوين الأول في حياتك.**

– هو تكوين لا انتظـام فيـه، إذا اسـتثنيت فتـرة الكتاب التي حفظت فيها جزءا لا بـأس بـه مـن القـرآن الكريم، هذا التكوين كـان عشـوائيا جـدا. طبعـا الكتـب الدينية مثل كتب التفسير التي كانـت فـي مكتبـة الوالـد.

كان من الصعب على فهمهـا فـي هـذه السـن المبكـرة. كنت أحاول القـراءة فـي الكامـل لابـن الأثيـر وكتـب الطبري وبعض كتب التاريخ. لكن قـرأت كليلـة ودمنـة، كان عندنا طبعة جميلة جدا جـدا منهـا، قرأتهـا عشـرات المرات، وما زال ابـن المقفـع مـن أهـم الكتـاب فـي تكويني الوجداني.

أيضا قرأت مصرع كليو بـاترا وروايـة ضـخمة – أجهل مؤلفهـا – اسـمها " بـاب القمـر " قـرأت فـتح العرب لمصر، وأشعارا كثيرة من مكتبـة الوالـد لطرفـه بن العبد، وامرئ القيس، والبحتـري. فـي فتـرة التكـوين الأولى هذه، في سـن ١٠ أو ١٢ سـنة، كانـت القـراءات – كما قلت لك – عشوائية، وكنت لـم أقـرأ حاجـة زي " مـدام بوفـاري " أتلخـبط جـدا ... إيـه ده، دي لا فيهـا جريمة ولا مفتش بوليس ولا قاتـل ... إيـه الحكايـة دي. طبعا تركت في نفسي أثرا ... أكيد.

*** فـي السـنة الرابعـة الابتدائيـة، فـازت أول قصة تكتبها بـالمركز الأول علـى المدرسـة، بعـد ذلـك بنصف قرن، فازت كتب كثيرة لك بجـائزة أحـس كتـاب،**

وترجمت أيضـا. وأخيـرا فـي عـام ١٩٩٨ م، حصـلت على جائزة الدولة التقديريـة، إذن كيـف كانـت – كمـا تقول – أول قصة هي أول وآخر مجد ... ماذا تقصد.

أنا عندما كتبت هذا الكلام، كان لـي فـي جنيـف أكثر من ١٥ سنة، وكنت – في هـذه الفتـرة – أكتـب ولا أعرف على الإطلاق صدى كتابتي في مصـر. لـم تكـن عندي فكرة عما إذا كنت مقـروءا أو معروفًـا أم لا، إلـى أن حدث وزرت مصر. في الأتيليـه كانـت هنـاك نـدوة عن " بالأمس حلمت بك "، فوجئت بعدد كبيـر جـدا مـن الشباب واقفين، فانتابتني حالة مـن الدهشـة لا حـد لهـا، وتساءلت كيف عرفوني.

ففي الوقت الذي كتبـت فيـه حكايـة أول وآخـر مجد، لم يكن عندي أدنى تصور عـن أن كتبـي يمكـن أن يختارها أحد كأفضل كتـاب. لـم تفـتح الأمـور إلا بعـد ذلك، بعد الفترة التي كتبت فيهـا مقدمـة " خـالتى صـفية والدير " وقلت فيها هذا الكلام.

*** بعد رجوعك نهائيـا إلـى مصـر، هـل كثـرت الكتابة عندك؟**

– لا ... بالعكس قل معـدل الكتابـة، لأنـي – ولا تندهش مما سأقوله لك – اشعر أني عدت إلـى بلـد غيـر الذي تركته، إلى بلد مختلف تماما، احتـاج أن أقـرأه إلـى آخر العمر إن كان في العمر بقية. كـل شـيء تغيـر ... نوعية العلاقات، عادات التذوق، كل شيء.

أنا أكتب، أكتـب كثيـرا ولكـن لا أفـرج عمـا أكتبه، لأني لا أحس فيما كتبت حتـى الآن أنـي وصـلت إلى هذه المفاتيح التي أكلمك عنهـا ... إلـى مفـاتيح فهـم هذا العالم الجديد الـذي فوجئـت بـه بعـد عـودتي مـن الخارج.

*** حـدث أن تركـت بيـت الأهـل فـي الجيـزة واستأجرت غرفة فـي بنسـيون بوسـط البلـد ... هـل تذكر؟**

– طبعا ... كانت للمسـألة أسـباب، لأن إخـوتي الأكبر كان من تزوج منهم تـزوج، ومـن سـافر سـافر، ولم يبق سـوى أنـا والوالـدة، طبعـا هـي اختـارت أو آثرت، وهو شيء طبيعـي ومفهـوم جـدا، أن تبقـى مـع أختي الأكبـر منـي مباشـرة لترعاهـا، فوجـدت نفسـي

وحيدا في هذا البيت، فتركته إلى بنسيون في وسط البلد، ظللت فيه ٣ سنين قبل أن أتزوج.

وفيما أهم بسؤاله عن بنت الجيران استطرد بصوت منفعل: كان شيئًا حزينًا جدا أن تجد نفسك وحيدا في هذا البيت الذي كان يضج بالحياة، كان شيئًا لا يحتمل، فكان على أن أتركه رغم العبء المادي، لأني كنت أدفع إيجار البيت والبنسيون، وكان دخلي محدودا جدا ... دخل موظف في الإذاعة وأنت سيد العارفين.

برق في خيالي أنني اهتديت إلى مفتاح شخصية بهاء طاهر، فقلت معقبا: أنا أحس أنك تهرب مما تحب!

– والله وارد يا بهاء ... ده تحليل نفسي منك، وارد أن يخاف الإنسان جدا على ما يحب لدرجة أن يهرب منه، ولكن هذه الفكرة لم تخطر ببالي قبل ذلك لأعللها لك.

*** على فكرة، لم تحدثني عن بنت الجيران!**

– يضحك، يا نهـار زي بعضـه، أول حـب فـي حياتي كان حبي لبنت الجيران، أذكـر أننـي كتبـت شـيئًا عن ذلك في قصة " شتاء الخـوف ". كنـت فـي الثانويـة حين تزوجت، فقـررت أن أنتحـر. اشـتريت ٣ سـجاير ... كنت لأول مرة أدخن فـي حيـاتي. علـى أسـاس أن المنتحر لازم يدخن، ولما وصـلت إلـى كـوبري عبـاس ملأني الرعب، فرجعت إلى البيت طبعا، لم أنتحر.

*** تجربـــة الـــزواج والطـــلاق، مـــاذا تركـــت بداخلك؟**

– تجربة قاسية جدا جـدا، ولا أسـتطيع – بـدون التعرض لمسـائل شخصـية بحتـة – أن أخـوض فيهـا، ولكـن يكفـي أن تعلـم ... يسـكت قلـيلاً ... أن هـذه التجربة منحتنـي أعظـم سـعادة فـي حيـاتي ... أنـي أنجبت، ولكن إلى جانب هذه الفرحة الغـامرة، فـإن حـزن لحظة الانفصال كان أكبر، كان كبيرا جدا جدا.

مأساة أن عالمـا بأكملـه يتقـوض مـن حولـك، عالما مشيدا أنـت شـاركت فـي بنائـه، وتعـرف أولـه

وآخره. ثم يتقوض فجأة من حولك! إنهـا تجربـة فادحـة لا أتمناها لأحد.

* **أبتسم وأداعبه، ولا حتى لأعدائك.**

– والله، ولا لأعدائي.

* **بالمناسبة، هل لك أعداء؟**

– هناك أشخاص بحكم طبيعـتهم يحملـون أحقـادا صغيرة، ولكنني لست ممن يجتـذبون العـداوات. ببسـاطة لأن الأشياء الدنيوية بالنسبة لي شيء تافـه فـي الحقيقـة، وأسمح لنفسي – وأنا في هذه السـن – أن أقـول: إنهـا لا تعني لي شيئًا على الإطلاق. أقسم لـك، ولـم أسـع إلـى شيء قط. يعنـي أنـا الآن أملـك شـوية فلـوس، لأنـي اشتغلت فـي الأمـم المتحـدة، واشـتغلت هنـاك لأننـي طردت من عملي، عنـدي فلـوس تكفينـي لكـي أعـيش، لكني لم اسـع إليهـا، ولا إلـى الشـهرة أو الجـوائز ... شكرا لمن يعطيني جائزة، ألف شكر، لكني لـم أسـع إلـى شيء، وكما سئلت عـن الجـوائز التـي أحصـل عليهـا أقول: هذه جائزة للجيل بأكمله وتقدير له.

أسأله: هل هذا تواضع؟ فينفي بحماس:

يمكن من قبيل الغرور، واخذ بالـك، لا مـن قبيـل التواضع. أذكر وأنا في الثانيـة والعشـرين مـن عمـري، كانت صوري تنشـر فـي مجلـه الإذاعـة والتليفزيـون، وفي جرائد كثيرة، ولكن لم يكن هذا يعني شيئًا بالمرة.

*** الـذين ينتهجـون هـذا الـنهج فـي الحيـاة تواريهم الظلال، لا سيما في هـذا العصـر، ولكـن أنـت مشهور، ويسعى إليك التقـدير، هـل كـان سـلوكك هـذا من قبيل ... أطلب الموت توهب لك الحياة!**

- **يضحك، ويقـول:** جـائز، لكـن - وأول مـرة أقول هذا الكلام - هناك أصدقاء يقولون لـي: قـدم علـى الجائزة الفلانيـة، أقـول لهـم: متشـكر، لا أريـدها، ... اكتب في الجورنال الفلاني أقـول شـكرا. لا أدري، هكـذا خلقت، وقد يكون مصدر هذا - كما قلـت لـك - غـرور شديد! ما أعرفه - يقينًـا - أن كـل الأشـياء الدنيويـة لا تعني لي شيئًا ما يهمني كثيـرا أن أكتـب شـيئًا أرضـي عنه، وما يتلو عملية الكتابة شيء لا يخصني.

قلت متخابثًا: ألم يعـدك المتبنـي، وإعجابـك بـه لا حد له، بدنيويته الواسعة، ألا تذكر قوله مثلاً:

أريد من زمني ذا أن يبلغني   ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

– أنا إعجابي بالمتنبي له حد، إعجـابي بـه عليـه تحفظات كثيرة ... هنـاك جوانـب فـي شخصـيته وفـي شعره لا أوافق عليها، ولكـن مـا أوافـق عليـه مبهـر. **ضحك ثم قال مؤنبا طريقتي في المشاكسـة:** أنـا لا أريـد أن أقول يا أستاذ بهاء: إنني زاهد أو عـازف عـن الـدنيا. هذا غير صحيح علـى الإطـلاق، ولكـن الحقيقـي، ومـا أريد أن أقوله: إن إحساسي بـأعظم مجـد يحققـه الكاتـب أن يكون لكلمته تـأثير يـوازي مـا كـان يطمـح إليـه، يوازي ما كان يهدف إليـه، ولكنـي أرى أننـا فـي هـذا العصر، وفي تلك المرحلـة الزمنيـة وربمـا بـدءا مـن السبعينيات، أن الثقافة فقدت تأثيرهـا ودورهـا وأهميتهـا، فكأن كل أنواع التكريم والتشـريف " ألقـاب مملكـة فـي غير موضعها ... " أو شيء من هذا القبيل.

أذكر أننى عبرت فى مـرة مـن المرات،تعبيـر ا متشائما عن هـذه الحكايـة،قلت: إن كـل أنـواع التكـريم

التي تصـادف الكتابـة الآن أشـبه بباقـة الزهـور التـي ترسل في الجنازات ... جنازات الثقافـة، لأنـه لـم يعـد للثقافة – في حقيقـة الأمـر – أي تـأثير علـى المجتمـع لأسباب ليس هذا مجال ذكرها.

زفرت نفسا مكتوما وقلت: خاصـة أنهـا سـتأتي في الفصول التالية، علـى أيـة حـال، بعيـدا عـن هـذه الشجون أستاذ بهاء، والتفت إليه، كـان حزينًـا ومتعبـا، فقلت في نفسـي: هـل طلـق الـدنيا بالثلـث، واكتفـى بالحزن الجارح والكتابة! غريبة كيف لـم ألحـظ أن تلـك اللوحة النحاسية الصـغيرة علـى بـاب شـقته مكتـوب عليها " بهاء طـاهر ... كاتـب " هكـذا فقـط. بـدون " حزين "!

كبر بهاء طاهر

حين فتح لي الباب فـي الثامنـة والنصـف مسـاء قلت له: باب شقتك صغير يشبه بـاب الـدير فـي قريتنـا. ضحك، وأردت أن أسـأله عـن الخالـة صـفية وحربـي والمقدس بشاي، لولا أن بـادرني ... هـذا أهـم شـخص

في حياتي. تعال، نظرت فرأيت في يده المفرودة صورة لحفيده، لم أعلق سوى بابتسامة.

الآن – بعد منتصف ليل القاهرة بنصف ساعة – أتذكره، سينقذني هذا الطفل من الحرج الذي أحسه ... أكيد، لقد طلب مني جده منذ قليل، في آخر السؤال الفائت أن نكتفي اليوم بهذا القدر ... اتفقنا، لكن ما زال معي سؤال عن بهاء طاهر الأب، ورغبة فى أن يطول الحوار بيننا أكثر، رغم تأخر الوقت، ونحن في الشتاء. ماذا لو تخابثت عليه ثانية. سأسأله عن هذا الحفيد ...

قال وبريق يلمع في عينيه: أنا متعلق بشدة بهذا الولد الصغير الذي، ككل أبناء هذا الجيل أو هذه السن، لا يرجو لأحد وقارا ... يضحك بطفولة بالغة، فعلاً " أغلى من الولد، ولد الولد ". يتعامل معي بقسوة بالغة، ولكني أحبه حبا شديدا، ما فيش فايدة، سافرت له أكثر من مرة إلى الخارج، وأسافر له الآن في الداخل، وهو أصعب من السفر في الخارج، لأنه ساكن في مدينة نصر، وأنا في دولة جنوب القاهرة، وأنت تعلم صعوبة

المواصلات مـن هنـا إلـى هنـاك، ولكنـي أركـب لـه الصعب في كل الظـروف، سـواء كـان هـذا الصـعب طيارة في الخارج، أو تاكسي في القاهرة!

ضـحك وسـكت قلـيلاً قبـل أن يقـول بصـوت خافت: ليس لدي ما أقوله، غيـر أنـي أحبـه جـدا، أردت أن أستعيده، فسألته عنه كأب، قال: اسأل دينا ويسر.

وراح بعــديا، مــع أحزانــه وتأملاتــه ودخــان سجائره الكيلـو بـاترا سـايز. منـذ فتـرة كـان يـدخن المارلبورو الأحمر، لماذا كف عن ذلـك، ولمـاذا يسـحب نفس الدخان بهذه القسوة!

لو أعرف فيما يسرح الآن.

لو أعـرف كيـف أن " أبشـع شـيء لـيس هـو الحزن، ولكن اختفاء الحزن " (*)

* * *

(*) " أنا الملك جئت " .

" موسيقى وملك ومظاهرات "

*** حـــين اكتشـــفت طـــه حســـين وشـــعر المتنبـــي والموسيقى، ماذا حدث؟**

– في الحقيقة حدث خلـق جديـد. إذا كنـت تريـد الدقة، حدث ميلاد جديـد، بمعنـي أن الحيـاة قبـل ذلـك كانت محدودة بحدود القـراء ات المحـدودة التـي كلمتـك عنهـــا، القـــراءات العشـــوائية ... روايـــات الجيـــب، الحاجات التي لا تندرج في سـياق تكـوين ثقـافي كامـل، واخد بالك، إنما هي مكونات أولـى، يعنـي تمهيـد أرض، إذا جاز التعبير، لكن مكتبـة المدرسـة السـعيدية الثانويـة كان لها فضل كبير جدا على.

أنا قلت لك قبل ذلك: إنـي اكتشـفت طـه حسـين فـي بعـض أعـداد " الكاتـب المصـري "، لكـن كتبـه اكتشفتها في هـذه المكتبـة. كـان أمـين المكتبـة شـقيق الشاعر إبراهيم ناجي، وكان يشبهه كثيـرا، وهـو شـخص ودود وسمح إلى أبعد الحـدود، بمنتهـى البسـاطة يقـول لك: بدل ما أنت قاعد تلعب في الفسـحة كـده مـا تيجـي تقرأ لك شوية في المكتبة.

فـي الأول بـدأت بقـراءة الحاجـات السـهلة ... المختـار مـن " ريـدز زدايجسـت ". وحاجـات ممكـن تقضي بها وقت جميـل بعيـد عـن وجـع الـرأس بتـاع الدروس الجافة، لكن لا أعرف هـل قـرأت " أيـام " طـه حسين في مكتبـة السـعيدية الثانونيـة، أم ضـمن الكتـب التي كانت توزع علينـا للقـراءة الحـرة ... أفتكـر إنـه أتوزع علينا كتاب لمحمود تيمور، و" يوميـات نائـب فـي الأرياف ". هل " الأيـام كانـت ضـمن هـذه الكتـب. لا أذكر في الحقيقة. ولكـن قـراءة " الأيـام " كانـت شـيئًا فاصلاً في حياتي. كنا نخجل من فقرنا، لكـن لمـا تشـوف كاتب عظيم يتكلم بالجرأة دي عن نشـأته الأولـى وفقـره المدقع، وإنه الوجبة الأساسية بتاعتـه كانـت فـي العسـل الأسود، وبعدين تشوف الطريقة السلسلة التـي يعبـر بهـا عن تجارب بالغة الصعوبة، تكتشف أن فـي حيـاة الواحـد تفاهات كثيرة لابد أن يـتخلص منهـا. أنـا أظـن ذلـك، بالنسبة لي على الأقل، لأن الحيـاة جـد جـدا ولا تحتمـل العقد النفسية أو الشـكوى مـن الفقـر والمشـاكل ... لازم

تتعاش جد. هذا هو الدرس البسـيط والأول الـذي تعلمتـه من قراءة " الأيام ".

قرأت الأيام – مؤكد – فـي السـنة الأولـى مـن الدراسة الثانوية، بعـد ذلـك أصـبح طـه حسـين رفيـق حياتي.

*** والموسيقى.**

– اكتشفت الموسيقى بفضـل صـديق لنـا اسـمه حامد البلاسي، شقيق الشاعرالبورسعيدى

مكرم البلاسي. كان حامد زميلـي فـي السـعيدية الثانوية، وكان عامل حاجة اسـمها " جماعـة الجرامفـون " ... يجيب جهاز جرامفون عتيـق كـده ويقعـد يسـمعنا. أنا رحت من قبيل الفضول ... سـمعت شـهر زاد لكـور ساكوف، وحاجة اسـمها " ١٨١٢ " لتشـايكو فسـكي. دي مقطوعة حماسية قـوي، سـمعت الموسـيقى الكلاسـيكية البسيطة. وده كان ذكاء من حامد إنـه مـا دخلنـاش علـى السـيموفنيات والكونشـيرتات، إنمـا علـى مقطوعـات الموسيقى الكلاسيكية التي يمكـن أن يجـذب اللحـن فيهـا الأذن.

طبعا فيه نـاس كـانوا يحضـرون الجلسـات دي ويمشوا ما يرجعوش تاني. أنـا الحقيقـة اسـتهوتني جـدا، لأني – طول عمري – أحب الموسـيقى ... كنـت أسـمع أم كلثوم ... كنـا نقعـد – البيـت كلـه – نسـمعها فـي السهرة بتاعة الخميس الأول من كل شـهر. كنـت أسـمع عبد الوهاب والإذاعة إللي هي الحاجـة الوحيـدة المتاحـة، كنا نسمع في الصبح شـافية أحمـد " الـورد ... الـورد " والحاجات إللي كان يعتقد أنها تـدى الإنسـان نوعـا مـن التفاؤل مع بداية اليـوم. كانـت هنـاك – أظـن – أغنيـة أخرى في الإذاعـة اسـمها يـا بنفسـج، وأغـاني محمـد قنـديل، وكـارم محمـود، وبـرامج غنائيـة زي نعسـة وأرزاق وكده. المهم أضـيف إلـى ذخيرتـي هـذه مـن الموسيقى والأغنيـات المصـرية ذخيـرة مـن الموسـيقى العالمية.

كانـت المسـألة خـلاص دخلـت جوايـا قـوي، فابـديت أدورعلـى الأمـاكن إللـى ممكـن أسـمع فيهـا موسيقى. طبعا كان من قبيل التـرف المسـتحيل أو حتـى الخيالي إنه يكون عندي جرامفـون. دي مسـألة لـم تكـن

موضع تفكير على الإطلاق. إبتـديت أدور علشـان أسـمع هذه الموسيقى مجانًا، كانت بعض المراكـز الثقافيـة تقـدم هذه الموسيقى فـي اسـطوانات ... بعـد ذلـك اكتشـفت كنزي الرئيسي وهو " مكتبـة الفـن " التـي كانـت تقـع قرب ميـدان التحريـر ... كانـت رائعـة، فيهـا تماثيـل لمختار وكتب في الفن التشكيلي، كنـا نقعـد نقلـب فيهـا فنتعرف على جوجان وفان جوخ، ثـم نسـمع موسـيقى – ليس مـن قبيـل المبالغـة – كنـا نسـمعها آنـاء الليـل وأطراف النهار.

في الإجازات الصيفية كنـا نـروح المكتبـة مـن الساعة ٩ الصبح لغاية الساعة ٩ بالليـل، مـا عـدا فتـرة الراحة. في الحقيقة كانت مرحلة من أخصـب وأثـرى مـا يكون لاسيما في الإجازات. ما أريـد أن أقولـه: إن ودنـي تربت على سماع الموسيقى الجيدة بفضـل " مكتبـة الفـن " التابعة لوزارة الأوقاف العموميـة، وكانـت فـي قصـر جميل جدا. ويسـتطرد بهـاء طـاهر بأسـي بعـد رشـفة شاي: هدوا هذا القصـر، لا أدري لمـاذا! فـي التسـينيات جات لهم هوجة، يهدوا القصور القديمـة ويبنـوا مطرحهـا

لوكاندات، زي ما هـدوا القصـر الجميـل قـوي ده إللـى مطرحه فندق " ماريوت "، كان قصـر إسـماعيل، وكنـت كل ما أعدى عليه أتخيل محمود سـامي البـارودي، لأنـه كان في الحرس الخديوي في هذه المنطقـة، وكـان يحـب جارية في القصر، وكتب فيها قصائد غزل جميلة.

وكانوا عايزين كمان يهـدوا قصـر محمـد علـي في المنيل! لكن ربنا سـتر، يعنـي هـدوا قصـور كثيـرة أوي مـا تفهمـش ليـه. المهـم ده مـش موضـوعنا، موضوعنا إني كنت أروح أسـمع موسـيقى فـي " مكتبـة الفن "، واستمرت الحكايـة دي طـول الفتـرة الجامعيـة. وهناك تعرفـت علـى أصـدقاء كثيـرين علـى رأسـهم صديق الشباب وحيـد النقـاش – رحمـه الله –، وحلمـي حنا، وصبحي شفيق وآخـرون، لـم نكـن فـي مدرسـة واحدة ولكن جمـع بيننـا هـذا الحـب للموسـيقى، هـذا الشغف بها.

أيضا اكتشفت الأوبرا، وكـان صـعبا جـدا إنـك تدخل الأوبـرا، أنـا بكلمـك عـن العصـر الملكـي ... ضاحكًا، كنت أدبق المليم على المليم وأقطـع تـذكرة بـ ـ

٢٥ قرشا، وتلك ثروة طائلة، كنت أحوش علشان أحضر أوبرا " لا ترافيتا " في مكان اسمه " زيرو وقوف "، زيرو وقوف ده تبقى واقف ودماغك تخبط في السقف ... يضحك الآن بشدة يرتج معها جسده النحيل، ويرفع يده عاليا فيما يستكمل، فوق خالص خالص في الأوبراكانت أرخص تذكرة وجنب منى جمهور الأوبرا الحقيقى..البقالين الطلاينه بريحة البسطرمة والجرسونات، هؤلاء كانوا السميعة الحقيقيين للأوبرا. جات لي مرحلة من مراحل عمري عشقت الأوبرا عشقًا شديدا بفضل مكتبة الفن. عشقت فردي واكتشفت موزار، وفاجنر، وبوتشيني، وليون كافالو.

أحببت الأوبرا، لأن الصوت البشرى نفسه يصبح آلة موسيقية، وشعرت بحب شديد جدا لهذه الموسيقى الصوتية، وكنت لما أروح في السنة مرة أو مرتين يبقى رضا لكن برغم ظروف الفقر الشديد التي كلمتك عنها، تربيت ثقافيا تربية ارستقراطية، بفضل مكتبة الفن، بفضل جماعة الجرامفون، بفضل مكتبة

السعيدية الثانوية، بفضل الكتب المجانية التي كانت توزعها علينا وزارة المعارف كقراءة حرة. الواحد وصل إلى ارستقراطية الفكر بوسائل زهيدة جدا تكاد لا تكلف الإنسان مليما.

*** نعود لوالدك، خريج دار العلوم، هل كان له نشاط سياسي، ألم يحدثك عن شيء، أو عرفت شيئًا من هذا القبيل.**

– هو ما كلمنيش، بس عرفت من أخي الأكبر إنه كان في التنظيم السري لثورة ١٩١٩، واذكر قصة طريفة جدا عن الحكاية دي ... بعد ما توفي والدي، ابتدينا نوضب المكتبة، فلقيت في وسطها مسدس ... ابتسم وهو يشعل سيجارة أخرى ويقول: لقيته مستخبي بين الكتب. قال لي أخويا الكبير: تعرف حكاية المسدس ده، أبوك كان في التنظيم السري بتاع الوفد. لكنني – حتى الآن – لم أفهم لماذا كان أبي يكره الوفد! هل لأنه معترض على المفاوضات، هل شاف أن الوفد انحرف عن طريقه، لا أعرف. هذه تكهنات. المهم سبب لنا المسدس مشكلة فظيعة إزاي نتخلص منه! لأن

الثورة قامت ولو عثروا عليه معنا، كان يبقى اسمنا عاملين تنظيم إرهابي، يضحك، مش فاكر أخويا اتخاص منه إزاي.

*** نعود إليك، ماذا عن مظاهرات السعيدية الثانوية ضد الملك والإنجليز؟**

– يا أخي دي كانت حاجة زي الحلم كده.

السعيدية الثانوية مدرسة كان لها وضع خاص جدا، لأنها جنب جامعة القاهرة مباشرة، والجامعة كانت تغلي بالتيارات السياسية، وكذلك مدرستنا. أنا قلت، في مرة من المرات ولم أكن كاذبا: إن الفصل الواحد في السعيدية الثانوية كان برلمانًا كاملا. كنت تلاقي فيه الوفديين والسعديين والأحرار الدستوريين، أبناء أصحاب الحزب، وتلاقي الإخوان المسلمين والشيوعيين، وكنا نعرفهم من طريقتهم في الكلام، وكانت المناقشات والخناقات بين الطلبة لا تنقطع بسبب الخلافات السياسية طبعا ... وأنا وصفت الحكاية دي في مقدمة " خالتي صفية والدير ".

كان الطلبة في معظمهم، والبلد في معظمها فيها حسن الغليان، والإحساس بأن الأوضاع لا يمكن أن تستمر على ما هي عليه. الملك طول الوقت في قمار ومغامرات غرامية، بينما البلد محتلة بالإنجليز، والأزمات الاقتصادية متلاحقة، كنا نعلق آمالنا الكبيرة على حزب الوفد، صمت طويلاً كأنه يتذكر قبل أن يواصل ... كان الوفديون هم الذين يتبنون المظاهرات في الأغلب الأعم، وكانت تهتف – دائما – بسقوط حكم الإرهاب أيام حكومة عبد الهادي، والنقراشي، ولم يكن يتاح لها أن تستمر طويلاً، أول ما تقوم مظاهرات، تقفل المدرسة لأجل غير مسمى، ثم يعاد فرز الطلبة (أ، ب، ج، د) الطلبة غير المشاغبين فئة (أ) ... إلى آخر زعماء لجان الأحزاب (د) ... وكانوا يدخلون آخر ناس.

بعد ما جاءت حكومة الوفد، بقيت المظاهرات – في أغلب الأحوال – للمطالبة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦، وكان يتبناها الإخوان والشيوعيون والمستقلون. أذكر

أننا شاركنا في مظاهرة وتكلم معنا محمـد صـلاح الـدين باشا.

وزير الخارجية:

نعم، كان في ذلـك الوقـت وزيـر الخارجيـة ... شوف أد كده الـروح الليبراليـة كانـت موجـودة. وزيـر خارجية يكلم طلبة ثانوي!!

شرح لنا أسباب عدم إلغاء المعاهـدة، طبعـا بعـد إلغائها، كانت المظاهرات للإعراب عـن التأييـد للحكومـة ولتأييد الفدائيين.

بعد صمت قصير يستكمل:

هــذه الحقبــة كانــت شــديدة الثــراء بفضــل المناقشات والخطب التي كانـت تقـال فـي المظـاهرات. كانت المظاهرة تبدأ بـ ـ " يسـقط الطلبـة الجبنـاء "، أي الذين لم يشاركوا في المظاهرة؛ ولأن أحـدا منـا لا يريـد أن يكون جبانًا، فكنا نخـرج فيهـا، مـرة كـان يخطـب الوفـدي، ومـرة الإخـواني، ومـرة الشـيوعي ...الـخ. وطبعا أنا كنت استلف من الوفـدي جرنـال " المصـري " أقرأه في الفسـحة، ومـن السـعدي جرنـال " الأسـاس "،

ومن الشيوعي جرنال " الملايـين ". كانـت فتـرة تثقيـف خصبة ... فترة تكون وعي. أشعر بمنتهـى الحنـين إليهـا حين أتذكر ذلك.

كانت كلمة الحنين هذه محملـة بحمـولات شـتى حين قالها بهاء طاهر، منها الشوق المالـح للعـودة إلـى الماضي، لكن الدلالة الأبعد للكلمـة، وقـد بـدأت نبـرات صوته تتصاعد حين قالها، ذلـك الأسـف علـى الحاضـر ... على مجتمـع بـلا رأس ... ثـم هـو الخـوف مـن المستقبل فيما أظن.

ويتدفق الروائي:

إلى هذه الدرجة كـان الإحسـاس بالانتمـاء! إلـى هذا الحد كان الإحساس بأن مشـاكل البلـد هـي مشـاكلنا الشخصية ... كان الحب متأصلاً فينا!

*** في ظـل هـذه المـذاهب، سياسـية وفكريـة، وكنت تتشكل، ألـم يغـرك مـذهب أو حـزب بالانضـمام إليه؟**

– لا لم أنضم لأى تنظيم ولا لأي حزب أبدا.

حتى وأنت كبير!

– ولا حتى لما كبرت، أنا متأمل، ولكن ما أشعر أنه واجب لا أتردد عنه، يعني أنا تطوعت – بدون أدنى تردد – في ١٩٥١، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ولو اتيح لي الذهاب للحرب لذهبت. وكنت اشترك في المظاهرات، لأن هذا واجب وطني ... كان عندنا مدرس تاريخ اسمه " السعدني " كان أكثر قسوة على الطلبة الجبناء من زعماء المظاهرات، كان يقول لنا: مش بلدكم دي، ما بتطلعوش ليه، ما بتتكلموش ليه ضد الإنجليز وضد السراي. أنا لا أذكر ميول الأستاذ " سعدني "، ولكنه كان شعلة من الوطنية، وكانت دروسه في الفصل دروسا في الوطنية أكثر منها في التاريخ.

المهم، في هذه الحدود كنت أشارك، أمشي في مظاهرة، أشارك في ندوات الأحزاب، وكنت أحضر ندوات الحزب الاشتراكي ... حزب أحمد حسين، أكثر من غيرها، وكانت جريدته هي أكثر جريدة أقرأها، أو أشتريها، ولكن لم أنضم لأي حزب.

*** نعود إلى طه حسين ... هل رأيته شخصيا؟**

– طبعـا ... مـرارا وتكـرارا، كنـت أحضـر محاضراته عن الشعر في العصر العباسـي الثـاني، طـه حسين كـان شخصـا مهيبـا، وكـان يلقـي المحاضـرة وينصرف لا تنس أننا كنا في السنة الثانيـة مـن الثـورة، والجامعة مليئـة بالمظـاهرات وبالغضـب، ووضـع طـه حسين حساس جـدا، لأنـه كـان وزيـر المعـارف فـي الحكومة السابقة على الثورة. فكـان يـأتي مـع سـكرتيره فريد شحاتة، يدخل المحاضرة ومنهـا إلـى العربيـة. لـم يكن متاحا لي أو لغيري أن يناقشه في شيء.

هل تمنيت ذلك؟

– طبعا، وكان مـن حسـن حظـي أننـي حـين عملت بالبرنامج الثاني، سجلت كلمـة ألقاهـا فـي افتتـاح أحد المعارض كرسالة صوتية لا غيـر، ثـم اتصـلت بـه تليفونيا لتسـجيل المسـرحيات اليونانيـة التـي أخرجتهـا للبرنامج الثاني، ولكن كـان السـكرتير هـو الـذي يـرد علي. لم ألتق ب " طه حسين مباشـرة، ولا أجريـت معـه حوارا ... لكني أحببته من بعيد.

* ماذا يبقى من طه حسين ومن عصره.

– أعتقـد أن هـذا موضـوع لا يصـلح للحـوار، لأنني كتبته في كتاب " أبناء رفاعـة "، كتبـت عـن أثـر هؤلاء الرجال العظـام فـي حياتنـا، وكيـف أن الكارثـة الحقيقية التي حلت بالثقافـة وبـالوطن هـي أن المشـروع متتابع الحلقات منذ رفاعة وحتـى طـه حسـين، ويمكنـك أن تقول حتى نجيـب محفـوظ، ويوسـف إدريـس، هـذا المشروع انقطع، وكان الدعامة الأولـى لكـل التطـورات الإيجابية التي حدثت في المجتمع، بدءا مـن نشـر التعلـيم العصـري، مـرورا بالثوريـة علـى النفـوذ الغربـي والاستعمار التركـي، انتقـالاً للـدعوة إلـى الديمقراطيـة والدستور، ثم بعد ذلك الـدعوة لإنشـاء الجامعـة الأهليـة وإنشاؤها بالفعل، وتحرير المرأة، بعـد تحقـق الاسـتقلال النسـبي والدسـتور الأول – دسـتور ١٩٢٣، أفضـل الدساتير التي عرفتهـا مصـر علـى أي الأحـوال – ثـم انتقلنا للدعوة إلى العدالة الاجتماعيـة ... أن يكـون لكـل مواطن نصيب في الوطن، إلى أن قامـت الثـورة وقالـت: إنها تحتضن كل هذه المشاريع، وأنها هـي التـي سـتنفذ،

وليس للمثقفين ولا لغيرهم دور في ذلك، فنجحت في أشياء وأخفقت في أشياء أخرى، ولكن أبرز إخفاق، في تصوري، أن الثورة لم تترك للمثقفين فرصة تطوير مشروع كان هو الوسيلة،لا أقول الأولى، وإنما المشروع الوحيد للنهوض بالمجتمع.

*** أعود للسؤال عما بقي من هذا العصر.**

– هذاهو ما بقي منه.

باختصار.

بلوروا ما وصفته في مرات كثيرة بالحلم المصري، الذي هو – باختصار شديد جدا – حق التعليم للجميع والديمقراطية، وأن تكون الأمة فوق الحكومة كما عبرت عن ذلك ثورة ١٩١٩م، وفكرة العدالة الاجتماعية وحقوق المرأة ومساواتها بالرجل.

هذا هو الحلم المصري التي تتابعت الحلقات في سبيل تجسيده، وما زال – فيما أعتقد والله أعلم إن كان ذلك سيحدث أم لا، عاد بهاء طاهر وكرر ... ما زال، برغم خفوت نبرة الدعوة إليه – كامنًا في وجدان المصريين جميعا.

*** وما رأيك، على ذكر الحلم المصري، في رؤية طه حسين للغرب؟**

– طه حسين رأى أن الغرب يمثل الحلقة الأخيرة من حلقات الحضارة الإنسانية، ولكنه لم يكن راضيا عن هذه الحلقة، وكان يحلم حلما رأى أن السبيل إلى تحقيقه ميسور، ولكن ثبت أنه غير ميسور، هو أن تقوم مصر بدور الجسر بين حضارة الغرب والشرق، مستفيدة بأرقى إنجازات الغرب وبتراثها العريق، لكي تتكرر مرة أخرى، تجربة الحضارة الإنسانية التي رأى أن هناك عصرين زاهرين يمثلانها ... مرحلة الإسكندرية التي كانت يونانية مصرية شرقية، ومرحلة بغداد العباسية في العصر العباسي الثاني، عندما كانت أيضا نقطة الالتقاء للحضارات الفارسية واليونانية والعربية.

كان يحلم بقيام ثقافة إنسانية تجمع وتجسد أفضل ما في الغرب والشرق معا. ورأى أن مصر هي المؤهلة لتكون بؤرة هذه الحضارة، أما القول بأن طه حسين دعا إلى أن نتشبه بالغرب، ودعا إلى أن تكون

مصر قطعة من أوروبـا، كمـا يقـول مـن لا يعرفـون شيئًا، فهؤلاء لم يقـرؤوا لا طـه حسـين ولا مشـروعه، ولا يعرفون عنه شيئًا.

*** وكيف ترى أنت هذا الحلم ... هل مصـر مهيـأة فعـلاً له؟**

– جدا ... أنا رأيـي أن مصـر كـان يمكـن أن تحقق هـذا الحلـم بفضـل تراثهـا الحضـاري العريـق والمتعدد المصادر، وبفضـل موقعهـا الجغرافـي، ولكـن الحديث – الآن – عن هـذا ضـرب مـن التـاريخ، فقـد مرت من تحت الجسور مياه كثيرة.

نعود إليك في الثانوية السعيدية:

التفت إلى مندهشًـا وقـال: هـو إحنـا لسـة مـا خلصناش السعيدية ... لسة ما خلصناش الجامعة؟

لا لسه.

يا نهار زي بعضه! كذلك قال ثم ضحك، وعدت أسأل:

كلمني عن بهـاء طـاهر ابـن السادسـة عشـرة، حدثنا عن وجوده وأحلامه.

– لا يوجد أكثر مما قلته مـن قبـل، وهـو أنني كنت طالبا – شأن غيري من الطلبـة – شـديد الانشـغال بهموم الوطن عامة، فـي حيـاتي الخاصـة كنـت تلميـذًا فقيرا، ليس لدي من الإمكانيات غير ما يتـاح لمثلـي مـن الاستمتاع بفرص الثقافة المجانية التي كانـت متاحـة فـي ذلك العصر.

*** ماذا بقي من هذه المرحلة؟**

ما بقي عند جيلـي كلـه، ذلـك الإحسـاس بـأن الانتماء للوطن ولقضاياه شـيء أشـبه بجلـد الإنسـان ... لا تجد منه فكاكًا.

الآن ...

كثيرا مـا ألتقـى بأجيـال جديـدة واسـتمع إلـى حديثهم، فتصيبني دهشـة بالغـة مـن أن فكـرة الـوطن عندهم، وهموم الآخـرين موضـوع ثـانوي جـدا، فكـرة هامشية وليس لهم في ذلك من ذنب.

أنا وجيلي صناعة عصر، وهـذا الجيـل صـناعة عصر مختلف.

أيام الجامعة

*** في عام ١٩٥٢م وقعت أحداث فارقة في حياتك وفي حياة الوطن ... دخلت الجامعة. وتوفي والدك وقامت ثورة يوليو. لماذا اخترت التاريخ، وما وقت وتأثير هذه الأحداث في سنة أولى جامعة.**

– أنا مش كلمتك قبل كده عن الجمعية التاريخية في السعيدية الثانوية.

– لا

– أيامها أنا كنت رئيس الجمعية، وما زلت أحتفظ حتى الآن بصورة لي وأنا ألقي محاضرة عن " مذبحة المماليك " كنت في تالتة أو رابعة ثانوي، لا أذكر، كانت المحاضرة ضد محمد علي من أولها لآخرها، وكنا في العصر الملكي، وظل الناظر، وكان يحضر المحاضرة، يحاول معي بكل الطرق لأغير رأيي في محمد على ومذبحة المماليك، فرفضت رفضا شديدا، لم يكن أمامه غير أن ينهي المحاضرة، لأنه شعر بحرج شديد، كان اسمه حامد نبيه بك علي ما أعتقد، أنهاها بنكتة وانصرف حتى لا يؤخذ عليه أنه

استمع إلى محاضرة تهاجم رأس الأسـرة المالكـة، ولكـن لم يحدث شيء، كانت هناك تلـك الليبراليـة التـي تسـمح بالبحث العلمي دون أن يصيبك أدى.

* **هل كانت حرية حقيقية؟**

– كانت نسبية.

أردت أن أذكـره بالسـؤال فقالـت: كانـت هنـاك دوافـع إذن لاختيـار التـاريخ، لكـن الروائـي واصـل كلامه، بعد صمت، عن زمن السعيدية:

... وبعدين في خامسة ثـانوي – الثانويـة العامـة الآن – دخلت مسـابقة التـاريخ، كانـت تجـري سـنويا مسابقة في كل مادة من مـواد الدراسـة، ويسـمح للعشـر الأوائل فيها بـدخول الجامعـة مجانًـا، فضـلاً عـن ٢٠ جنيها جائزة، أظن أنني كنت الرابع فـي هـذه المسـابقة، وفعلاً تمتعت بالمجانية فـي التعلـيم الجـامعي وحصـلت على قيمة الجائزة، كانت الـ ٢٠ جنيها ثـروة طائلـة فـي حينها، المهم امتحنا في أربعـة كتـب ... الجـزء الثـاني من تاريخ الجبرتي، وكتـاب باللغـة الإنجليزيـة اسـمه " فائدة التاريخ "، وكتـاب اسـمه " صـورة مـن التـاريخ

الإسلامي " للدكتور عبد الحميـد العبـادي، وكتـاب عـن تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسـط، لا أذكـر عنوانـه، للأستاذ محمد رفعت، الذي كان وزيرا للأوقاف.

كنت محبا للتاريخ غاية الحب، ومـا زلـت قارئًـا نهما له، ولما دخلت الجامعة، كان مسـجل الكليـة يسـألني عن القسم الذي أريده، انتظر أن اختـار قسـم الإنجليـزي، لأن مجموعي متقدم جـدا فـي الإنجليـزي، وكـان هـذا القسم هو فاكهة الكلية، فقلـت لـه: طبعًـا قسـم التـاريخ، فأصـاب الرجـل ذهـول، لأن التـاريخ قسـم الغلابـة، ونسيتك في القول، أن أبي حزن جـدا حـين دخلـت كليـة الآداب، لأنه لم يكن يريـد لأحـد مـن أبنائـه أن يكـون مدرسا.

كان يعتبرها مهنة جاحدة.

آه.

وقال أبي: كمان قسم التاريخ!!

*** لـم تقـل لـي، كيـف اسـتقبلت لحظـة قيـام الثورة.**

– كانت فرحتي عارمة طبعا، وهرعت مع من هرعوا إلى ميدان عابدين، كانت دبابات الجيش العتيقة اللي عاملة زي الكراكات ... قال ذلك وهو يرجع بظهره للوراء على كنبة الصالون العربي البنية، كان يضحك ضحكته العميقة الصافية وأكمل ... كانت هذه الدبابات تحيط بالقصر، أظن أن التفافنا حولها كان فيه رسالة فهم منها الملك أن بقاءه مستحيل، كان الملك وقتها في الإسكندرية، وكان في ذهننا في ذلك الحين، عرابي ووقفته في ميدان عابدين والخديوي يقول له: أنتم عبيد إحساناتنا.

فجأة توقف بهاء طاهر وقال لي: معلهش عايز استطرد، استطراد صغير قوي، ولم يكن بالطبع في حاجة إلى إذن مني، بل كنت أحب استطراداته تلك، كنت أعيش معها لحظات حية في عينيه ووجهه المتغضن، وهو يحكي بحب عن أيامه وعن الوطن، قال بحماس: شوف تفاصيل تاريخ مصر كانت بالنسبة لجيلي شيئًا لا ينتمي إلى الماضي أبدا، وأنا حين كنت أقف في عابدين، والميدان غاص بالبشر، حتى

الشوارع الجانبية، كنت كأني – وكل النـاس – نـرد علـى الخديوي توفيق.

الآن لا أحس أن هذه الحكاية موجودة أبدا.

طبعا فرحنا بـالثورة غايـة الفـرح، وكـان يـوم خروج الملك عيدا. ولا أنسى موقفًـا طريفًـا حـدث فـي ذلك اليوم، موقفًا يشبه النكتـة ... كنـت راكـب ترومـاي ١٥ إللي بيروح مـن الجيـزة إلـى العتبـة، وطلـع ولـد صغير بتاع عشر سنين، بجرنـال وهـو يقـول: انتحـار الملك السابق، انتحار الملك السابق، فكـل النـاس اشـترت الجرنـال بتعريفـة، كـان مكتـوب عليـه " المصـري "، وكان " المصري " جرنال شهير جدا طبعا.

بعد ما اشترينا الجرنـال لقينـا فـوق " المصـري كلمة صـغيرة قـوي اسـمها " العلـم " ... يعنـي العلـم المصري، وتحت ما نشـيت ... انتحـار الملـك السـابق، مكتوب ... ماديا وأدبيا ومعنويـا!! ضـحكنا معـا بعمـق بينما كان يمسح بهاء طاهر عينيـه قـائلا:كانـت الفرحـة بالثورة عارمة طبعا،إلا عند أصحاب المصالح

وكـــان لابـــد أن يســـتريح، فاقترحـــت أن نعـــد الشاي. في المطبخ كان يستدرجني للكـلام عنـي ... عـن مشاريعي – الكثيرة كمـا قـال – وعـن خطيبتـي وعـن المسـتقبل، وآخـر القـراءات ...، وقـال: إن قصـائدي مكثفة أكثر من اللازم، وأنه مختلـف مـع قصـيدة النثـر، قلت: فليكن، أنا أيضا مختلف، ولكـن مـع " النثـريين " لا مع المشروع.

وقلت: ليس مهما في أي شـكل نكتـب، المهـم – وأنت سيد العارفين – ماذا وكيف نكتب، ذلك رأيي.

على كـل دعنـا مـن هـذا الآن، وحملـت عنـه صينية الشاي، ولم يكد يرجع لمكانـه المفضـل ... علـى الكنبة واضعا ساقًا على ساق، حتى سألته.

في هذه الفتـرة، أقصـد فتـرة الجامعـة، بـدأت مرحلة جديدة في تكوينك مـع وحيـد النقـاش، مصـطفى أبو النصر، صبحي شفيق وغيـرهم، هـل تـذكر. حـدثنا عن هذا التكـوين. وبـدا لـي أننـي فاجأتـه: لأنـه راح يشرب الشاي، ساكتًا، لكنه قال:

التقيت – كما قلـت لـك – بوحيـد النقـاش فـي مكتبة الفن، ومرة خرجنا معا لا هو معـه فلـوس ولا أنـا طبعا. كنا مروحين، وحيد " بين السـرايات"، وأنـا كنـت أسكن في الجيزة. في الطريق دلني علـى حاجـة كويسـة اسمها مجلة " الآداب " وقال لـي: هاوريـك عـدد منهـا، وأنا كلمته عن قراءاتي، وبعد ذلـك قـدمني إلـى صـبحي شفيق وأخوه رجاء، والتقيـت – فـي ظـروف لا أذكرهـا – بمصطفى أبو النصر وواحد معـاه اسـمه بهـي الـدين شعيب، وعبد المنعم عـواد يوسـف، وكامـل أيـوب ... وعلى مبعدة عرفـت حسـن حنفـي، وكـان ... يصـمت قليلاً بتأثر ويكرر ...، كان مـن أسـاتذتنا القـريبين منـا جدا الـدكتور محمـد كامـل حسـين رحمـة الله عليـه، والدكتور محمد أنيس الذي لم تكـن علاقتـه بـي علاقـة أستاذ بتلميذ، بـل علاقـة صـداقة ... كـان يحكـي لـي همومه وكنت أحكي له، ربطتنـي علاقـة ود شـديد جـدا مع المرحوم جلال السيد الصـحفي ... كـان معـي فـي قسم التاريخ.

كانـت الجامعـة مليئـة بالمظـاهرات فـي تلـك الفترة، ولكنها كانـت تقمـع قمعـا شـديدا، أذكـر أن أول مظاهرة ... تلك التي قلنا فيها: " يسـقط حكـم البكباشـية " استقبلت من على باب الجامعة، كـان الجـو السـائد جـو خوف، ثم بدأ فـي السـنة الثانيـة أو الثالثـة لـي، نظـام الفصـلين الدراسـيين لمنـع الطلبـة مـن التظـاهر والاعتصام.

*** أسألك عن التكوين الثقافي في تلك الفترة.**

ذكرته بالتفصـيل فـي مقدمـة " خـالتي صـفية والدير "

*** ألم تنس شيئًا؟**

لا

*** طيب قل لي، رغم فـرحتكم بـالثورة، هتفـتم " يسقط حكم البكباشية " كما قلت، وفي فتـرة تاليـة كتبـتم ضدها، ماذا كنتم تريدون، ألم تشـاركوا فـي صـنع هـذه الثورة!**

– كنـا نريـد الحريـة، ولعلمـك، ولعلـه مـن مفارقات القدر، كـان اشـد أنصـار الثـورة فـي السـنة

الأولـى " الإخـوان المسـلمون " كـانوا يشـاركون فـي تحطيم اضراباتنا، بـل كـانوا يشـاركون فـي الضـرب أحيانًـا، وبعـدها مباشـرة كـانوا هـم يضـربون مـن الثورة... غريبة!

*** وكيف كانت الثورة مسـئولة عـن الازدواجيـة التي كتبت أنت وجيلك تحت وطأتها!**

– تـم هـذا بطريقـة تلقائيـة، لأن كـل خطـوة إيجابية كانت تعملها الثورة كنا نؤيـدها تأييـدا شـديدا ... زي صفقة الأسـلحة التشـيكية ... علـى فكـرة اتفاقيـة الجلاء لم نكن متحمسين لها، لأنها تـنص علـى أن يكـون للإنجليز بقاء أو قاعدة عندنا، إنما بصـفة عامـة زأططنـا لما طلع قانون الإصلاح الزراعي، لمـا طلعـت القـوانين الثوريـة الأولـى ... بتاعـة إلغـاء الألقـاب وتطهيـر المؤسسات من الموظفين المرتشـين. كـل هـذه الأشـياء فرحنا بها جدا.

وكنــا نشــعر بحــزن قاتــل لعمليــات قمــع الديمقراطية، ومحاكمات الثورة، وأزمـة مـارس، وإلغـاء حرية الصـحافة، وإلغـاء حـق التظـاهر. وإلغـاء حـق

تكــوين الأحــزاب، والمحاكمــات الباطشــة للخصــوم السياسيين، كان جمال سـالم يشـتم المتهمـين!! يـا أخـي كانـت حاجـات غريبـة، فـي مثـل هـذه المحاكمـات الدكتاتورية الهزلية، كنا نبقى في غاية النكد.

من هنا كانت هذه الازدواجية.

نعم

*** لكن ألـم يكـن للثـورة قـيم إيجابيـة تمثلهـا جيلك، أو حاول التعبير عنها بعيـدا عـن واقعيـة نجيـب محفوظ والشرقاوي.**

أظن أننا حاولنا – بشكل أو بـآخر – مـن خـلال كتابتنا، إلى جانب الاحتجاج على المظـالم الفرديـة، أظـن كنا نستكمل مـا كـان يكتبـه يوسـف إدريـس، ونجيـب محفوظ فـي مجـال الـدعوة إلـى العدالـة الاجتماعيـة باعتبارها مجـالاً لازدهـار الحريـة الفرديـة ... افتكـر ذلك، وارجع إلى كتابات تلـك الفتـرة، سـواء مـا كتبـه صنع الله إبراهيم، أو ما كتبه يحيي الطاهر عبد الله.

*** كيف ترى عبد الناصر.**

– أخ خ ... أصعب سؤال سألته لـي حتـى هـذه اللحظة ... سأصارحك، أنا لـم أكـن أحبـه أيـام الثـورة الأولى، كان يمثل لي رمز القضـاء علـى الأشـياء التـي أحبها في ذلك النظـام الليبرالـي ... كحريـة الصـحافة، حرية التعبير، الأمان النسبي الذي كنا نشـعر بـه فـي أن نعارض الحكم. لـم أكـن أحبـه. الفتـرة الوحيـدة التـي أحببته فيها لدرجة أنني خاصـمت فيـه أعـز أصـدقائي، هي الفترة منذ تأميم القناة حتـى نهايـة حـرب السـويس. لم أكن أقبل فيه كلمة من أحد، لكنـي لا قبلهـا، ولا بعـدها كنت من دراويش عبد الناصر، ولكني أحببته.

فيما بعد أيضا، حتى بعـد النكسـة، عنـدما رأيتـه في التليفزيون منهارا يعلن تنحيه.

*** هل كان حقيقيا؟**

– جدا، أنا لا أحكي لك نقلاً عـن ...، أنـا أحكـي تجارب عشتها، كنت أسكن أيامهـا فـي التوفيقيـة، نزلـت جرى فلقيت كل الناس نازلين جـري، كنـا حاسـين بـأن

علم الوطن واقع، وعايزين نرفعـه، والرمـز هـو جمـال عبد الناصر.

*** هل نضعه في مصاف الزعماء التاريخيين.**

– طبعا، هو القائد التـاريخي الوحيـد فعـلاً، مـا فيش غيره، أنا اعترف أنني أحببـت عبـد الناصـر بعـد موته أكثر مما أحببته وهو حـي، وهنـاك أشـياء كثيـرة فهمتها عنه بعد ما مات لم أكن أدركها فـي حياتـه. أنـا لا ألتمس أعذارا للدكتاتورية ولا لقمـع الحريـات، ولكـن – على الأقل – الواحد فهم بعـض الأشـياء ... فـي خانـة السيئات هناك أشياء كثيرة، ولكـن فـي خانـة الحسـنات هناك أشياء أكثر.

*** أهكذا نحسب التاريخ!**

– التاريخ – في الحقيقـة – لا يحسـب إلا هكـذا. لا يوجد حكـام ملائكـة علـى الإطـلاق، هنـاك حكـام شياطين، لكن لا يوجد حكم ملائكة، وهنـاك حكـام لـديهم من النوايا الحسـنة أكثـر ممـا لـديهم مـن أدوات تنفيـذ نواياهم ... منهم عبد الناصر.

*** هـل كـان بوسـع الثـورة أن تخلـق إنسـانًا مصريا جديدا؟**

لا تنس أنني دارس للتـاريخ، وفـي التـاريخ لا مكان لكمة " لو " على الإطـلاق، بمعنـى أن مـا حـدث تاريخيا كـان حتمـا أن يحـدث بهـذه الصـورة، كانـت الثورة تواجه أعـداء كثيـرين جـدا فـي الـداخل وفـي الخارج، وهي مضطرة إلى حمايـة نفسـها، وفـي سـبيل هذه الحمايـة ارتكبـت قـدرا كبيـرا مـن التجـاوزات، أصابت الأبرياء والمـذنبين معـا. هـذه مسـألة لا أدافـع عنها ولكني أسجلها ... أسجل أن هذا حدث.

*** هل يغفر لهم شبابهم وقلة الخبرة؟**

– ممكن تلاقي مليون عذر.

*** أنا لا أفـتش عـن أعـذار، ولكنـي أريـد أن أفهم.**

– تاريخيا، هـذه الثـورة قامـت فـي بلـد فيـه الإقطاع قوي جدا وتاريخي منـذ ٧ آلاف سـنه، وسـطوة رأس المال على الحكـم قويـة جـدا، كـان المليـونيرات يقيلـون وزارات ويـأتون بـوزارات والقـوة الشـعبية –

كوسيلة للضغط ـ لـم يكـن يعمـل لهـا حسـاب يعنـي صمت طويلاً متفكرا واضعا إصـبعه علـى فمـه قبـل أن يكمل ... لولا وجـود حـزب الوفـد، ولـولا أن النـاس كانت تلـوذ بـه، ليحقـق لهـم مطـالبهم ... لكـان مـن المسـتحيل علـى حـزب الوفـد أن يجـري التغييـرات الجراحية التي أجرتها الثـورة ... قـانون تحديـد الملكيـة وخلافه، كان من المستحيل.

*** عبد الناصر كإنسان ... هل كان سويا؟**

– لم أقترب منـه حتـى أحكـم عليـه مـن هـذه الزاوية.

* كيف تراه بحكم وعيك لـه وقراءتـك عنـه ... بحكم المعاصرة؟

– أرى أنه السوي الوحيد وسط الثوريين.

*** من يذكرك من الحكام العرب الآن به؟**

– لا أحد.

*** وما رأيك في السادات؟**

– رأيي فيه سلبي جدا.

*** خلاصته:**

– خلاصته أنه رجل كـان مـن غمـار الشـعب، فتنكر للفقـراء، وانحـاز لعثمـان أحمـد عثمـان، وسـيد مرعي، وأمريكا، أنـا أعتقـد أنـه عمـل عمـلاً عظيمـا بحرب أكتوبر.

*** حرب أكتوبر ... هـل هـي انتصـار سـلاح شـوهته السياسة؟**

انتصار شعب في واقع الأمـر، لأن النـاس، رغـم ٧ سنوات في الخنادق، لو قلت لهـم: ارمـوا نفسـكم فـي النار لفعلوا، وقد حـدث ... هنـاك قصـيدة جميلـة جـدا للشاعر كمال عبد الحلـيم – نشـرت فـي تلـك الأيـام – يتحدث فيها عن الجنـود الـذين كـانوا يحزمـون أنفسـهم بالديناميت ويرتمون فـي خـط بـارليف، لا أذكـر نـص القصـيدة، ولكـن لـولا حـرب أكتـوبر لكـان الشـعب المصري قد أكل نفسه، فعلاً كان العبور حتميا.

*** لكن السادات لم يستغل هذا العبور!!**

– أوافقـك ... لـم يعـرف كيـف يسـتغل روح شعب كان على أتـم اسـتعداد، لأن يفقـد ثلاثـة أرباعـه؛ لكي يسترد كرامتـه، لكنـه فاجأنـا – كالـدش البـارد –

بنغمة إنه مش عايز يضحى بأولاده، كانت نغمة جديدة خالص، بعد نغمة الاستعداد للفداء والتضحية ... إلى آخره.

*** هل كان مهرجا؟**

– عندما كنت أراه على الشاشة، كنت أراه كذلك ولم أكن وحدي، هناك كلمة مأثورة عن محمود السعدني ... أن عبد الناصر موتنا من الرعب، والسادات موتنا من الضحك!!

كمان كان أسلوب السادات في الحديث، وطريقته في الخطابة طريقة فجة ومبتذلة، سمعته بأذني وهو يشتم بعد أحداث سبتمبر ... كان يقول: فلان مرمي زي الكلب، وقال – قبل ذلك – كلاما لا يصدق عقل إنسان أن يصدر عن رئيس دولة على شاشة التليفزيون، كان يشتم " محمود القاضي " رحمة الله عليه، لأنه قدم استجوابا عن عثمان أحمد عثمان في البرلمان، قال السادات: واحد مقدم استجواب عن وزير مع أن جزمة الوزير أنضف من شعر رأسه. هذه لغة لم نسمعها أبدا ... يضحك ساخرا ... في حياتنا!!

*** من أعجبك ممن كتبوا عن حرب أكتوبر.**

– محمد حسنين هيكل.

*** وممن كتبوا عن السادات.**

– أحمد بهاء الدين.

*** نعود إلى ثورة يوليو، بعد كل هذا العمـر مـا تقييمـك الآن لها؟**

فتـرة صـمت يقـول بعـدها بإصـرار ... إنهـا تاريخيا كانت حتمية، من عـاش مثلـى مـا قبـل الثـورة يدرك أن قيامها كان حتميا، وأنهـا قـدمت للـوطن أشـياء إيجابية كثيرة، وقصرت عن تقـديم أشـياء أخـرى، كـان لابد أن تقدمها، ولكن الخطأ الأكبر الـذي ارتكبتـه ثـورة يوليو وثورات المنطقة العربيـة كلهـا، هـي أنهـا قامـت للرد على سلبيات موجودة في نظـم قائمـة، ولكنهـا فـي سبيل القضاء على تلـك السـلبيات، قضـت أيضـا علـى الإيجابيات التي كانت موجودة في الـنظم السـابقة عليهـا، من يريد أن يحدث ثـورة أو نهضـة أو تقـدما عليـه أن يكمل على ما هـو موجـود بالفعـل، لا أن يقـوم بنقضـه وهدمه، بمعنى أن الثورة قامـت وكانـت هنـاك مكاسـب للشعب المصـري، تحققـت نتيجـة كفـاح طويـل مثـل

الدستور والبرلمان والأحزاب، واستقلال القضاء واستقلال الجامعات وأشياء إيجابية عظيمة كانت موجودة من الفترة الليبرالية، كان المفروض أن نستكملها، ولكن الثورة – للأسف – هدمت هذا كله من الأساس، هكذا أرى الثورة.

*** باختصار أيضا، كيف كانت الحياة الثقافية في الخمسينيات؟**

– كانت حياة تنبئ بازدهار عظيم عرفناه بعد ذلك في الستينيات ... كانت هناك كتابات نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وعبد الرحمن الشرقاوي، وعبد الرحمن الخميسي، ونعمان عاشور، وألفريد فرج، وصلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي، وفرقة كاملة من الكتاب العظماء. كانت حياة خصبة جدا جدا.

*** كانت كتابة جيلك، ما اصطلح على تسميته بجيل الستينيات، كتابة مغايرة، أولاً، ما رأيك في هذه التسمية، ثم ألا تتفق معي، أننا لم نحدد بعد السمات المشتركة لهذا الجيل.**

– بالنســبة للتســمية خــلاص اكتســبت قــوة تاريخية، وبالمناسبة أنا ضد هذه التسـمية، لأنـه لا معنـى لها، هل هناك تيار أدبي أو اتجاه فـي العـالم كلـه يقـاس بعقود السنين! إذن ما معنى جيل السـتينيات؟ إنهـا تسـمية لا تدل على شيء، لأنها لا تحيل إلى سمات معينة.

أما تحديد السمات، فليس مطلوبـا – فـي الحقيقـة – أن نحدد سمات مشتركة، ولكن علينـا أن نـدرس هـذا الجيل في تنوعه وفي تفرد مبدعيـة، أمـا إن كنـت تريـد أن تخلص إلى المشـترك بـين هـؤلاء المبـدعين فهـذه مهمة النقاد.

*** وماذا عن المؤثرات التي أثرت في هذا الجيل؟**

أظن كل ما حدثتك عنـه مـن ظـروف اجتماعيـة وسياسية واقتصادية، كلهم كانوا مثلـي ... فقـراء، لـم أر واحدا منهم غنيا، أو تعود به أصـوله إلـى أسـر ثريـة، كلنا طلعنا مـن الطبقـة الوسـطي الفقيـرة، وكلنـا كنـا مهمــومين بــالوطن ... فينــا الماركســي، والليبرالــي والمستقل زي حالاتي، ولكننا مهمومون بالوطن.

*** أعتقد أن جزءا من أزمتكم كجيل يكمن من تمردكم، في ذلك الوقت، على المؤسسات، واحتياجكم الملح إليها من جهة أخرى. كيف حللت أنت شخصيا هذه الأزمة؟**

– نحن عشنا على هامش المؤسسات، ولم ننتسب إليها قط، وكان معروفًا أن الكاتب منا يقعد على قهوة ريش وليس في جيبه ٥ صاغ، وهو يعلم أنه لو ذهب إلى يوسف السباعي وطلب العون، سوف يعين في جورنال أو في المجلس الأعلى ... إلى آخره. ولكن لم يفعلها أحد أبدا، كان من العار أن يقال عنك إنك ذهبت للمجلس الأعلى للآداب أو طلبت منه عونًا، طبعا هناك أشياء كنا نغتفرها تماما، مثلاً يحيي طاهر عبد الله لم يكن يجد ما يأكله، فطبيعي أن يعمل في منظمة التضامن الآفرو آسيوي.

*** وكيف ترى عملك في الإذاعة وهي من مؤسسات الدولة؟**

– أنا دخلت الإذاعة من خلال امتحان ديوان الموظفين، وهي هيئة حيادية تماما، وامتحاناتها شديدة

الصرامة والصعوبة، وكنـا ٢٠٠٠، رسـينا فـي الآخـر علـى ٦، كانـت هنـاك امتحانـات تحريريـة وشـفهية، وامتحانات صوت، وامتحانات معلومات عامة.

أتذكر، أن هؤلاء الناجحين السـتة لـم يكـن لهـم واسطة، احنا نجحنـا بقـدراتنا الذاتيـة، ولكـن الراسـبين ممن كانت لديهم واسطة، عينوا بعد ذلـك وثبتـوا وظلـوا في العمـل وطردنـا نحـن منـه ... يضـحك بسـخرية ويستكمل ...، يا أخي كانت الثـورة تعلـن مبـادئ نبيلـة مثل تكافؤ الفرص وخلافه، ثم يـتم التحايـل عليهـا مـن داخلها لإفسادها.

* **أخيرا، كيف ترى هؤلاء ... يحيي الطاهر عبد الله؟**

– كاتب فذ، هو شاعر القصة القصيرة.

* **هل تشترك معه في هذه الصفة.**

– أنا لست شاعرا، هو شاعر.

* **وماذا عنه كإنسان؟**

– كـــان شـــديد العذوبـــة والجمـــال، لا أنســـى ابتسامته العذبة، كانت بتخلي وشـه يكـرمش وينـور فـي نفس الوقت، معرفش إزاي! كان حـين يرانـي يقـول لـي

... يتقمص بهاء طاهر الآن – بشكل غايـة فـي البـراءة والحميمية، شخصية يحيـي فيفـتح ذراعيـه ويقولـه لـه: أهلاً يا خويا، إزيك حبيبـي ... وكـان شخصـا محبوبـا برغم بوهيميته. كان شخصا رائعا يا أخـي، أذكـره حـين فاجأني بميدان التحرير، كنت عائـدا لتـوي مـن جنيـف، وبينما أقف بالسيارة في إحدى الإشـارات، إذا بـه يحشـر رأسه في الشباك فجأة ويقبلني، ثم قال لـي: كنـت عـايز أسلم عليك ... وبعدها سمعت أنه مات.

*** وسليمان فياض.**

– لولا هذا الرجل، بـدون مبالغـة، لمـا نشـرت حرفًا.

*** وكيف تقيم دوره كمبدع؟**

– عظيم هو وأبو المعاطي أبو النجـا – كـل فـي مجاله – كانا رائـدين واسـتطاعا أن يحـدثا النقلـة التـي مهدت السبيل لجيل الستينيات.

*** هل أخذا حقهما؟**

– لا، لأنـــه يغلـــب عليهمـــا التواضـــع الشـــديد وإنكار الذات البالغ في الحقيقة، فهما يجـدان فرصـا فـي تقديم سواهما، لا في الإعلان عـن نفسـيهما، وبمـا أننـا نعيش في مجتمع غابي – نسبة إلـى الغابـة – طبيعـي ألا يأخذا حقهما، أبدا!

*** وإبراهيم أصلان.**

– أعيد قراءة أعمالـه، وكـأنني أعيـد الاسـتماع إلى مقطوعة موسيقية أحبها.

*** وعبد الحكيم قاسم.**

– يصمت طويلاً، فأسـأله لمـاذا سـكت؟ يقـول: أفتش عن مفتاحه ... تقدر تقـول: إنـه مبتـدع الواقعيـة الجديدة فـي الكتابـة، أظـن أن روايتـه " أيـام الإنسـان السبعة تختلف عن كل ما كتب عن الريف قبلها.

*** وأمل دنقل.**

– الشاعر

*** وماذا عن جمال الغيطاني؟**

– الغيطاني صاحب موهبـة فريـدة، ولـه أعمـال ستظل من كلاسيكيات الأدب العربـي " الزينـي بركـات"، وأعمال أخرى كثيرة ... أنا معجب به جدا.

*** ومحمد مستجاب.**

– أنا معجب بمحمد مسـتجاب، وأسـلوبه السـاخر الفريد في الكتابة العربية، وبقدرته علـى أن يخلـق عالمـا فانتازيا فريدا، عالما يخصه وحده.

*** وجميل عطية إبراهيم.**

– صـاحب صـوت خـاص ... شـوف كـل الأسماء التي ذكرتها، كل منهم لا يشبه سـواه، كـل مـنهم نفسه فحسب، وكل منهم ليس فردا، بل أمة.

*** هل هناك أحد نسيت أن أسألك عنه؟**

– لم تسـألني عـن صـنع الله إبـراهيم، ومحمـد البساطي.

تخيل لم أكمل " صخب البحيرة "، لم أستطع.

– أنـت غلطـان خـالص ... محمـد البسـاطي، كاتب صاحب رؤية عميقـة ونافـذة، ولغتـه فريـدة فـي

السرد القصصي والروائي، البساطي من أهـم كتـاب هـذا الجيل.

*** وصنع الله.**

– واحـد مـن الـرواد الكبـار، بكـل جـدارة، وروايته " تلـك الرائحـة " هـي التـي تتضـمن ملامـح التغيير عن الجيـل السـابق فـي الكتابـة. هـذه الروايـة علامة.

*** لو اخترنـا واحـدا فقـط مـن هـؤلاء لنضـعه علـى القمة... من يكون؟**

– لا ... صعب خالص.

*** وماذا عنك؟**

– لا تضطرني إلى الكذب.

بمعنى ...

إما سأتواضع، أو أقول: إنني فريـد زمـاني، فـلا تضطرني إلى الكذب. أنا غير راضٍ عـن نفسـي، أشـعر باستمرار أن الإنجازات تقصر عن الأحلام كثيرا.

*** هل تأثرت بكتابة أحد من هؤلاء؟**

– لا، بالمرة.

*** من أقربهم إلى قلبك؟**

– إبراهيم أصـلان، ومحمـد البسـاطي ككتـاب، أما الصداقة فكلهم أصدقاء.

*** اقتربنا من نهاية الفصل.**

– استثنى لم تسألني عـن خيـري شـلبي ولا إدوار ولا غالب.

تفضل.

– إدوار الخراط صوت متفرد ينسـب إلـى نفسـه فقط لا إلى جيل. إما خيري شلبي فهـو مبتـدع مـا بعـد الواقعية ... مبتدع تيار الكتابـة عـن الهامشـيين، وحقـق في ذلك إنجازا عظيما ... تبهرنـي كتابتـه، إنـه كاتـب كبير جدا.

يبقى غالب هلسا

– مع الأسف الشديد فـي الفتـرة الأخيـرة مـن عمره لم نلتق إلا مرة واحدة ... فـي بغـداد قبـل وفاتـه بـ ١٥ سنة. إنني أتذكر شقة غالـب التـي كـان يلتقـي

فيها كل أبناء الجيل. أتذكر المقاهي وكتابتنا وقسوتنا عليها. أتذكر ذلك الزمن الجميل وأتحسر.

*** نعود إلى أيام الجامعة، وأنت في الليسانس، عملت مترجما بمصلحة الاستعلامات، فأخفيت هويتك ككاتب. لماذا، وكيف اعتبرت أن هذا من علامات الوفاء لحلمك أنت وجيلك بتقديم أدب جديد.**

– هذه المصلحة كانت إحدى أجهزة الثورة، وأنا كنت مترجما، فلم تكن لي علاقة بشيء سوى بالترجمة. كانت المصلحة تحتل عمارة كاملة بشارع سليمان باشا اسمها عمارة " ريشا " وفيها اقسام كان ممنوعا علينا ندخلها. هذه الأقسام أشبه بأجهزة سرية. والجو في المصلحة كان مخيفًا. بالنسبة لي كنت حريصا على ألا يعرف أحد شيئًا عني غير أنني مترجم. وبقيت هناك أقل من سنتين.

أما علامات الوفاء لحلمنا أنه كان من المغري أن أشتغل في هذه المصلحة بقسم التحرير مثلاً، فتبص تلاقي نفسك مترقي بسرعة، وتأخذ علاوات ومكافآت ... الخ، ولكني أثرت أن أبقى بعيدا، وأنا في المصلحة

حدث العدوان الثلاثي على مصر، كلنـا تطوعنـا ورحنـا في طابور عسكري إلى نـادي الجزيـرة لنتـدرب علـى ضرب النار. بعد أول يـوم طلـب منـا مـدير المصـلحة عشرة أشخاص، فرفضنا بشدة أن نتـرك التـدريب، لكنـه قـال: الشـغل زي الحـرب وأوعـدكم أن أدربكـم فـي المصلحة، فرجعنا، كنا نعمـل، بـدون أدنـى مبالغـة، ٢٤ ساعة في اليوم نترجم ما يأتي من وكـالات الأنبـاء عـن معركة السويس، فاكر أننـي وصـديقي جـلال الرشـيدي، فاكر كنا في الفترة المسائية، وجاءت برقيـة مـن ملحقنـا الصحفي في واشنطن، كانت خاصـة بـالحرب، لا اذكـر تفاصيلها، لكن كان مكتوبا فيها كلمـة صـعبة قـوي قلبنـا عليها كـل القـواميس، كـان اسـمها " Tobe "، فقلـت لجلال: بطل شغل فورا، قال لي: ليه، قلـت لـه: علشـان بدأنا نخرف من التعب. الكلمة المعصـلجة معانـا هـي " To – be " ... يضحك، إلى هذه الدرجـة زغلـل الكـلام في عنينـا، وبعـد انتهـاء الحـرب، أرادوا أن يعوضـوا الناس عن التعب، فأرسلوهم إلى أوروبـا تحـت مسـمى " بعثات لشرح القضية للرأي العـام العـالمي ". طبعـا لـم

يكن الهدف هو الشرح ولا يحزنون ... إيه رأيك جميع الناس إللي راحوا أوربا، كانت مكاتبهم في المصلحة مغلقة، والناس إللي تعبت حقيقي لم يذهب منهم غير واحد فقط من العشرة!

الذين سافروا كانوا داخلين المصلحة كجهاز، أما نحن – المترجمين – فلم يكن لنا دخل بتيار الدعاية السياسية أو خلافه.

* لم تقل لي حتى الآن، كيف كان إخفاء هويتك ككاتب من علامات الوفاء لحلم بكتابة أدب جديد.

– أنني لم أرد أن أكون أحد تروس جهاز الدعاية للثورة، لأنني لم أكن مقتنعا، لو أنني اندمجت في هذه المصلحة ودخلت في عملها السياسي والدعائي كنت بقيت مجرد ترس لا كاتب!

* إذن ما سبب اشتغالك أصلاً في هذه المصلحة؟

– كان هناك امتحان للمترجمين، وأنا أعرف الإنجليزية، فأعلنت عن مسابقة بمرتب " ٥٠ جنيها "،

نجحت فيها، لكن الخمسـين جنيهـا انقرضـت إلـى " ١٠ جنيهات " بعد مساومات مريرة! يضحك ...

*** وماذا أضافت لك؟**

– رسخت عندي سمة الهروب مـن الـدخول فـي التهريج السياسي.

*** الم تستلهم شيئًا منها في أعمالك؟**

– لا.

*** هل كنت موظفًا ملتزما في كـل المواقـع التـي عملت بها؟**

– فيمـا عـدا مسـألة المحافظـة علـى مواعيـد الحضور، دائما كنت أذهب متأخرا ... يضحك.

*** وما موقفك من الوظيفة كأديب؟**

– لو أمكن الاستغناء عن الوظيفـة سـيكون شـيئًا عظيما للأديب.

*** هل هي عبودية كما يقول العقاد.**

– نعم

* * *

" هنا القاهرة "

*** في عـام ١٩٥٧ عملـت بالإذاعـة، فـاخترت البرنامج الثاني، ما حكايتـك مـع هـذه المحطـة، ومـا الدور الذي لعبته في حياتك؟**

– هذه أهم مرحلـة فـي تكـويني فـي الحقيقـة، يعني أنا كنت في مصـلحة الاسـتعلامات قاعـد منـزوي على جنب كده، وحريص علـى ألا يعـرف أحـد حكايـة الأدب دي، كما قلت لك، فما بالك أنـا رايـح مكـان كلـه أدب وكتابة.

أنا دخلت امتحـان المـذيعين، كنـا عـدة مئـات، وصفصفنا على ٦ أنفار. اجتزنا امتحانـات كانـت شـديدة القسوة، شفوي وتحرير وصوت. وبعـدما نجحنـا اسـتقبلنا رئيس الإذاعة.

*** هل تذكره؟**

– محمـد أمـين حمـاد – الله يرحمـه – فـاكر كويس إنه في الامتحان الشفوي الرهيـب ده، طلـب منـي أوصف له معبد الأقصر، فوصـفته بالترتيـب. قـال لـي ... في حاجة تانية غير كده، قالت له ... إيـه هيـه؟ قـال

لي ... اثر غير فرعـوني، قلـت لـه: أيـوه فيـه بوابـة عملها بطليموس الثالـث، قـال لـي ... لا، فـين وفـين عرفت إنه يقصد جـامع سـيدي يوسـف أبـو الحجـاج، سألني عن كرامة سـيدي يوسـف ... قلـت: لا أعـرف، قال لي: كرامته خاصة بعقم النساء، لكـن مهـدي عـلام – وكان في لجنة الامتحان – قال لـه لا يـا أمـين بيـه، دي كرامة سـيدي عبـد الـرحيم القنـاوي، كـان الامتحـان مجزرة، مهـدي عـلام خلانـي اقـرأ لـه مـن كتـاب الإنجليزي، ومن كتاب عربـي علشـان يشـوف النطـق، وفـي الآخـر سـألني عـن المكـان إللـي تعلمـت فيـه الإنجليزي، لم يصدقني حين قلـت لـه: تعلمتـه بنفسـي، أقصد أن تعرف إلى أي درجـة كانـت هـذه الامتحانـات شديدة الصعوبة.

بعد ذلك، هؤلاء الـذين سـقطوا فـي الامتحانـات أصبحوا رؤساء لنا ... يضـحك ... إزاي ... كـان إللـي ينجح يتعين بحـوالي ١٥ جنيـه، وإللـي سـقطوا اتعينـوا بعدنا بشهرين بـ ١٥ جنيه إلا ربـع تحـت بنـد " خـارج

الكادر " لم يعينـوا علـى درجـات، وأصـبحوا رؤسـاء، احنا ترفدنا ... ضاحكًا بسخرية، والحمد لله.

المهم كان البرنامج الثاني لـه حـوالي شـهرين أو تلاتة، فلما سألني أمين حماد عايز تشتغل فـين؟ قلـت لـه في البرنامج الثاني. اندهش الرجل جـدا، قلـت لـه: أنـا أحب هذا المكان، فوافـق، لكنـي لـم أسـتقبل بترحـاب هناك. كانت به مجموعة من خيـرة المثقفـين ... سـميرة الكيلاني، وصلاح عز الـدين – الله يرحمـه –، ومحمـود مرسي، وفؤاد كامل وغيرهم. كانت مجموعـة مـن كبـار المثقفين فعلاً، وكنت لسة ولد طـالع عنـده ٢٢ سـنة ... ما عسىأن أكون بين الجباه العالية!

وتصـادف أن عقـد الاجتمـاع الشـهري لتقريـر برامج الشهر التالي ... سعد لبيـب كـان أسـتاذًا إعلاميـا كبيرا، قلت له بعد ذلك: أنت أفسدت حيـاتي فـي الحقيقـة، لأنه كان ... سـكت قلـيلاً وقـال لـي بإعجـاب: كـان الديمقراطية نفسها في العمـل، وكنـت جديـدا لا أعـرف شيئًا في الدنيا، كان كلما عرضـت فكـرة برنـامج يقـول لي: وأنت رأيك إيه؟ فأنـدهش ... كيـف يتـرك هـؤلاء

الفطاحل ويسألني عن رأيي أنا، ويبـدو أننـي قلـت شـيئًا لا بأس به. فاستوعبت وأصبحت واحدا مـن هـذه الأسـرة الجميلة بعد أسبوع. كانت أسرة جميلة جدا.

منذ وقت قريب قلت للأسـتاذ سـعد لبيـب: أنـت أفسدت حياتي، لأني اعتقدت أن العمـل فـي الـدنيا كلهـا هكذا ... ديمقراطية، أتاري الدنيا غيـر كـدة خـالص ... فضحك،

في البرنامج الثاني قضـيت أجمـل أيـام حيـاتي فعلاً، برنامج منزو لا أحد يسـمعه، لكنـه يقـدم روائـع، والعاملون به كانوا يعملون بكـل إخـلاص العـالم، كنـت أتمنى أن يرى أحد محمود مرسـي مـثلاً، وهـو يخـرج مسرحية " الآنسة جوليل " لستريندبرج، أتـذكر أنـه ظـل ٦ سـاعات، سـجل فيهـا ٦ دقـائق فقـط. وكـان معـه فطاحـل... سـناء جميـل وسـميحة أيـوب، وصـلاح منصور، كانوا يتقبلون ببساطة كل تعليماته.

كان فيه حب.

– فعلاً كان فيـه حـب. علشـان كـده قعـدت ٨ شهور تحت التمرين، أحضر المسـرحيات التـي يخرجهـا

صلاح عز الدين، ومحمود مرسي، وبعـد انتهـاء العمـل أقول رأيي، أذكر عنـدما أخرجـت أول مسـرحة – بعـد فتـرة التمـرين – كنـت أرتجـف. ذاكـرت المسـرحية وكانت قصيرة جدا، لمدة أسـبوع حتـى حفظتهـا. المهـم استمريت في البرنامج الثـاني عـدة سـنوات، فـاعتبروني فالح جـدا ونقلـوني لصـوت العـرب رغـم احتجـاجي الشديد.

*** علمت مذيعا أم مقدم برامج؟**

– كنت مخرجـا ومقـدم بـرامج. فـي البرنـامج الثاني كنت مذيعا ومخرجا ومقدم بـرامج ومـدير نـدوات. كان العمل بهذا الشـكل. لا يتخصـص أحـد فـي شـيء. فجأة سكت وقال لي، للمرة الثانيـة: لا أدري هـل أجيـب عن سؤالك أم لا، قلت: نعم، فواصل كلامـه شـبه مقتنـع، وبتداع في الذكريات يمكن اسـتنتاج سـياقه قـال: ذهبـت إلى صـوت العـرب، وكانـت – أيضـا – أيامـا بالغـة الروعة. كانت أيام القومية العربية، وبينمـا كنـت – فـي البرنامج الثاني – أنتج برنامجا واحدا فـي شـهرين، كنـت أنفذ في صـوت العـرب برنـامجين وثلاثـة فـي اليـوم

الواحد ... برنامجا لصوت الجزائر الحرة، وبرنامجا لإذاعة فلسطين، وثالثًا للخليج. كانت هذه المحطات تبث من صوت العرب. في فترة الزهو العربي سنوات (٥٩، ٦٠، ٦١)، الوحدة مع سوريا.

كنت أعمل بحب أيضا إلى أن أبدأ ... سكت وقال مستدركًا كأنما يخشى أن يضيع تاريخ هذه الفترة من رأسه، على فكرة، الدور العظيم الذي لعبه الإعلام في حركة التحرير العربي التي كانت موجودة في ذلك الوقت لابد أن يكتب، لابد. المهم استمريت إلى أن بدأ الخلاف بين عبد الكريم قاسم، وجمال عبد الناصر بسبب المنافسة على الزعامة، وبدأت بعدما كنت أعمل برامجا ضد الاستعمار... ضد الفرنسيين في الجزائر، وضد الإنجليز في الخليج، والصهاينة في فلسطين، أصبح مطلوبا مني أن أعمل برامج ضد عبد الكريم قاسم، ساعتها مررت بمحنة لا يمكن أن تتصورها يا بهاء، فاستشرت صديقي العزيز جدا محمود مرسي، قلت له: أحس أني أنتحر، ولابد أن أستقيل بدلاً من الخيانة.

سـألته ... خيانـة مـن، قـال: خيانـة نفسـي. واهتز جسده النحيل مشـيرا بإصـبعه كأنـه تـذكر شـيا مهما لابد من قولـه فـورا: آه نسـيتك ... فـي صـوت العرب عملت البرنـامج الـذي أعتـز بـه جـدا " قصـة عربية "، وكان لأول مـرة فـي الإعـلام العربـي، تقـدم أعمال درامية مأخوذة من روايات أدبيـة. قـدمت ثلاثيـة نجيب محفوظ، أذكر أنني طلبت مـن أحمـد سـعيد مـدير صوت العرب أن نعطي ١٠٠ جنيه أجـرا خاصـا لنجيـب محفوظ، قال لي: معقول نـدفع هـذا المبلـغ فـي قصـة لواحد، وحـين يـأس منـي قـال: طيـب هاتـه أشـوفه، فاتصلت بالأستاذ نجيـب، طبعـا أحمـد سـعيد لـم يكـن يجهله، وجاء الأستاذ نجيب وصرف أجره.

عملـت فـي السـنة التاليـة " قصـر الشـوق " مسلسلاً، ونجح نجاحا فظيعا حتى إن النـاس كانـت تـردد في الشوارع كلام الولي ... هـو الله، هـو الله، إزيـك يـا سيد أحمد يا عبد الجواد، كيف حالك، بـارك الله لـك فـي بيوتك في قصر الشوق، وبين القصرين، والسكرية.

شفيق نور الدين هـو الـذي مثـل هـذا الـدور، وكانت تلـك هـي المقدمـة التـي رددتهـا النـاس فـي الشـوارع. وعملـت لعبـد السـلام العجيلـي، وسـهيل إدريس، وتوفيق يوسف عـواد، ومحمـد ديـب، ومولـود فرعون. كل هؤلاء قدمتهم في برنـامج " قصـة عربيـة " من صوت العرب.

المهم عندما بدأت هـذه الأزمـة للأسـتاذ محمـود مرسي: أنـا قـررت أن أسـتقيل ووافقنـي، كـان قـرار الاستقالة أيامها أشبه بالانتحار. الذي أنقـدني هـو الأسـتاذ عبد الحميد الحديدي – رحمـة الله عليـه –، كـان نائـب رئـيس الإذاعـة، فاسـتدعاني وناقشـني فـي الاسـتقالة ساعات طويلة، فوجئـت بعـد ذلـك بالأسـتاذ الحديـدي يكتب على الاستقالة ... ينقل للبرنـامج الثـاني. فرجعـت، ولكني لم أجد هناك صلاح عز الدين ... كـان قـد رجـع إلى B. B. C، وكـان محمـود مرسـي قـد نقـل إلـى التليفزيون، وانضم بدلاً منهم إلـى البرنـامج الثـاني نـور الدين مصطفى ... كان إنسانًا عظيما رحمة الله عليه.

*** حدثني – بتلخيص – عـن الـدور الـذي لعبـه البرنامج الثاني في حياتك.**

– أولاً: أنني كسبت عددا عظيمـا مـن الصـداقات مع مثقفين حقيقيـين، ظلـت علاقتـي بهـم وثيقـة حتـى النهايـة. كـان مـنهم المخـرج الراحـل عبـد الـرحيم الزرقـاني، والمخـرج فتـوح نشـاطي، ونبيـل الألفـي، وحمدي غيـث، وعبـد الله غيـث، وعبـد الـرحمن أبـو زهرة وفاروق شوشـة، والـدكتور نعـيم عطيـة، وإدوار الخراط، وسليمان فيـاض، وأبـو المعـاطي أبـو النجـا، وغيرهم ... كانت صداقات عظيمة.

الحاجة الثانية، فكرة التفاني فـي العمـل ... كنـا ننام ونأكل ونشرب فـي الإذاعـة، وفـتح لـي البرنـامج الثقافي آفاقًا من المعرفة لـم يكـن ممكنًـا أن تتـوفر لـي بدونه.

وفكرة أن تبتدع أشـياء غيـر مسـبوقة، وتقتـرح أفكار برامج، وهكذا، أيضا كسـبت معرفـة سـعد لبيـب، وهذا وحده كنز حقيقـي، ولكـن البرنـامج الثـاني جنـى على إبداعيا، لأنني لم أنشر فيـه شـيئًا، مخافـة أن يقـال

عني أنني أستغل عملي، ثم لا تـنس ذلـك الـوهم، وهـم التحقق، لا التحقق الحقيقـي، الـذي يتكـون لـديك حـين تعمل في الإذاعة.

*** وكيف أسـهم البرنـامج الثـاني فـي الحركـة الثقافية، والمسرح بالذات:**

– البرنامج الثاني قدم أشياء غيـر مسـبوقة، هـو نفسه تجربة غير مسبوقة، كان فيه برنـامج " مـع النقـاد " استضاف فطاحـل النقـاد فـي ذلـك الحـين ... محمـد مندور، وأنور المعداوي، وعلـى الراعـي، وعبـد القـادر القط، ورشاد رشدي، ليناقشوا روايـة أو قصـة. بالنسـبة للمسرح، كان دور البرنامج الثـاني محوريـا فـي نهضـة المســرح فــي الســتينيات، أولاً – عــدد المســرحيات المنشورة قبله لـم يكـن يتجـاوز أصـابع اليـد، ولكـن البرنامج الثاني كان يقدم مسـرحية جديـدة مترجمـة كـل أسبوع. وهذه المسرحيات نشـرت. كـان البرنـامج يقـدم مسرحيات باللغة العربية الفصحى. لـم يكـن هنـاك مـن يجيد اللغة الفصحى من الممثلـين، المدرسـة ... مدرسـة تعليم الأداء بالفصحى، كانـت هـي البرنـامج الثـاني ...

أذكر أن سناء جميل، ولا أدري هل تغضب مني أم لا، لم تكن تستطيع أداء بضع دقائق بالفصحى، ولكن بإصرارها وعنادها الفني الجميل، صارت من أحسن من يؤدي في هذا اللون.

هذا دور إيجابي تماما للبرنامج الثاني في النهضة المسرحية، وكل الكتاب المسرحيين، تأثروا بالمناخ المسرحي الذي خلقه البرنامج. وأظن أن له دورا كبيرا، إلى جانب دوره في النقد والمسرح، في القصة القصيرة، لأن مجالات نشرها كانت محدودة جدا. إن لم تكن منعدمة، لم يكن هناك سوى الملحق الأدبي للمساء، ومجلة المجلة. لم تكن هذه المنابر تستوعب طوفان القصة القصيرة التي كانت تكتب في ذلك الوقت، فكنا نقدم في كل أسبوع قصة أو أكثر. أما الدور الذي أعتبر أن لي أيضا – دورا فيه هو تقديم الكتابة الجديدة ... كان عندنا برنامجان ... " بريد المستمعين " الذي كنت أقدمه، وبرنامج " كتابات جديدة".

*** كنت حالاً سأسالك عمن قـدمتهم فـي برامجـك من الكتاب.**

– كلهم، باستثناء اسم أو اسمين، أنـا سـجلت مـع كل الأجيال، مع شـكري عيـاد، عـز الـدين إسـماعيل، ألفريد فرج، نعمان عاشور، سليمان فيـاض ... مـع كـل الكتاب الموجودين في ذلك الحين.

*** أقصد الكتاب الجدد.**

– كل الأسـماء التـي ظهـرت بعـد ذلـك فـي السبعينيات، وفي الثمانينيـات ... أذكـر المنسـي قنـديل، محمد فريد أبو سعدة، محمد صالح، وغيرهم كثيرون.

*** ماذا أضاف لك الإخراج الإذاعي.**

– الإخراج الإذاعي كتجربة تعلـم الإتقـان الشـديد ... أي عدم السماح بأي تـراخ، أو عـدم الاستسـهال ... لا أعرف هل نجحت أو لا، ولكن – علـى الأقـل – هـذا هو المسعى الذي أحاوله ... أن أكون قاسـيا علـى نفسـي مثلما كنت قاسيا على الممثلين أثناء الإخراج.

* ترقيت في العمل الوظيفي إلى نائب مدير البرنامج الثاني، وهنا نقلت مغضوبا عليك إلى البرنامج الأوروبي. حدثنا عن هذه الظروف.

– **أخذ نفسا طويلاً قبل أن يقول:** ظروف مأساوية كوميدية في نفس الوقت! كانت أيامها الحملة الفظيعة على كل الكتاب التقدميين واليساريين. كل الناس خرجت من البلد في ذلك الوقت، ولكن خيل لنا أن البرنامج الثاني بمنأى عن هذا، لأننا من الأصل، كما حريصين على عدم الانحياز لأي تيار من التيارات. لكن كان هناك تيار أدبي يسعى إلى أن يفرض نفسه على الساحة عن طريق استئصال غيره، لا عن طريق المنافسة الحرة الشريفة.

الأستاذ يوسف السباعي كان يعتقد أن البرنامج الثاني ضده، لا أدري لماذا! على فكرة كانت علاقتي به على المستوى الإنساني طيبة جدا ... سافرت معه إلى دلهي، وكان باستمرار يدعوني عندما تأتي وفود أجنبية لدار الأدباء ... كانت علاقتي به لطيفة، وهو نفسه كان إنسانًا " لطيفًا لكن عندما جاء وزيرا للثقافة

والإعلام أعلن أن سياسته، هي تطهير الإذاعة من التقدميين واليساريين والمثقفين! ولما لم يجد أحدا، قال ... بهاء طاهر شكله ينفع يساري! وكان أصلاً غضبان على البرنامج الثاني، فقرر أن أمشي من أول يوم جاء فيه، قالت لي السيدة تماضر توفيق – رئيس التليفزيون أيامها – قالت لي فيما بعد: أول كلمة قالها الوزير بعد تعيينه ... البرنامج إللي بيعمله بهاء طاهر ده في التليفزيون يتوقف فورا، ولا أريده أن يعمل!

في نفس الشهر سألتني صفية المهندس رئيس الإذاعة المصرية: إيه إللي بينك وبين الوزير؟ قلت: كل خير، قالت لي: عندي أوامر منه بأنك لازم تمشي من الإذاعة، فخلي بالك. وظلت تقاوم فترة من الوقت، لكن خروجي من الإذاعة كان له إخراج درامي مأساوي ... كنت أرأس اجتماعا للبرنامج الثاني، نظرا لغياب فؤاد كامل رئيس البرنامج كنا نناقش مشكلاتنا ... ضعف الميزانية، ضعف الموجة. وأثناء الاجتماع دخل علينا الزميل الشريف خاطر، قال: معي أمر

إداري بنقل الأستاذ بهاء من البرنامج الثـاني. قلـت: إيـه ده، ولماذا لم تقل لي الأستاذة صفية!

كان مكتوبا فـي ورقـة النقـل ... ينقـل مراقبـا للدراما بالبرنامج الأوربـي، مـع أنـه لا توجـد مراقبـة درامـا بالبرنـامج الأوربـي حتـى يومنـا هـذا!! لكـن المقصود أن آخذ مرتبي فقط وأمشي. والمرتـب لـم يكـن يمثل سوى ربع الدخل.

بالإضافة إلىأنى منعت من الكتابـة فـي الصـحف والمجلات بعدما وصلتها " كلمـة السـر " مـن الـوزير. فانعـدمت – تمامـا – مصـادر دخلـي. مـررت بفتـرة صعب جدا أن أصفها لك ... يكرر بعـد صـمت قصـير جدا، أصبحت فجأة في العـراء، كـان ممنوعـا حتـى أن يذكر اسمي. كانت أصـعب فتـرة فـي حيـاتي، خاصـة أنني صدمت في ناس كنت أظن أنهـم أصـدقاء. وكانـت هناك – في نفس الوقـت – مواقـف نبيلـة ... أذكـر أن الدكتور شكري عياد – رحمـه الله – زارنـي فـي أيـام الأزمة الفظيعة هذه، ولم تكن بيننا علاقـة علـى المسـتوى الإنساني أو زارنـي قبـل ذلـك، دهشـت مـن زيارتـه

المفاجئة ووصلني معناها، رغم إننا لـم نـتكلم عـن هـذه الظروف المؤلمـة، ثـم صـمت الروائـي وانتظـرت ... ...

الآن هو في لحظة شجن قاسـية ... شـجن مـن ماض بعيد حي، وفي هذه اللحظة عادت دواعيه!

وكانت مصادفة جميلـة أن يـرن التليفـون عنـد هذا الحد.

كان المتحدث محمد مستجاب.

... ... وقـال لـه بهـاء طـاهر: معـي صـديق (يقصدني)، لا أظـن أنـك تعرفـه! المهـم طلـب منـه الأستاذ مستجاب أن يكلمني.

تبادلنا السلام ... ثم أبدى اندهاشـه مـن السياسـة التي فرضها بهاء طـاهر علـى نفسـه، وقـال: لمـاذا لا يرد؟

كانت الاستقالة من اتحاد الكتاب قـد أثـارت علـى بهاء طاهر ردود أفعال حادة، بينمـا لـزم هـو الصـمت، من جانبي لم أتابع ما حدث، لكني رأيته متألمـا جـدا فـي ذلك اليوم.

بعد انتهاء المكالمة جلسـنا، معـا علـى السـجادة الحمراء المزركشة ... كان قبالتي تـنعكس بقايـا قـرص الشمس علـى وجهـه، وبجـواره – علـى منضـدة بنيـة صغيرة – تمثال " الكاتب المصـري " كمـا هـو ... فـي صمته الأبدي مقرفصا لا يمل.

قلت له: لم أحدثك عـن رحلتـي إلـى سـيوة ... إنني أبذل غاية جهدي كي لا يحزن أكثـر. قـال: " تعـال " نتغدى " أولاً.

الآن لا أذكر أسـماء الطعـام الـذي تناولنـاه ... بهاء طاهر وابنته الرقيقة يسر – فـي الجامعـة الأمريكيـة – وأنا. ولكني أذكر – جيـدا – أن الرجـل كـان يمسـح قعر طبقة بقطع الخبز المتبقية، ولا يأكـل كثيـرا، ويهـتم بالمضغ، مستمتعا بالاسـتماع للـ ـ B. B. C. فـي هـذا الوقت من كل يوم ... تمام الرابعة.

قال، ونحن نأكل: ما أخبار سيوة؟

ذكرني فقلت: جميلة كما تعرف.

لكن فاجـأني حـين نفـي أي معرفـه لـه بهـا. اندهشت فعلاًن ولاحظ هو دهشتي فقال: تخيـل لـم أذهـب

إلى هناك، إنما تخيلتها حين كتبـت " أنـا الملـك جئـت " ... على فكرة، كثيرون غيـرك اندهشـوا، قلـت: معهـم حق، دقة الوصف وروح سيوة التي فـي القصـة لا يمكـن أن تأتي من التخيل وحده.

– هذا ما حدث.

*** ألم تكن تعرف عنها شيئًا؟**

– قرأت ما كتبه أحمد حسنين باشا.

* تخيل طوال الرحلة لم يغب عني فريد.

– أعلم أنك تحبه.

ولكني أحب الأكل أكثر.

ضحك أخيرا، وقمت أنا لأغسل يدي، ثم عدنا إلـى الأسئلة ... ...

*** أتاحت لك هذه الفترة فرصـة اسـتكمات فيهـا الإنجليزية والفرنسية، لماذا لم تعمل فـي نفـس المجـال حين غادرت مصر ... مـثلاً فـي الـ B. B. C. التـي تحبها، أو مونت كارلو أو صوت أمريكا.**

– كانـت أمـامي الفرصـة ورفضـتها، جـاءني خطاب من صوت أمريكـا، لا أدري كيـف عرفـوا ... آه

افتكرت، أنا أرسلت لهم خطابا عندما أعلنوا عن حاجتهم لمذيعين، هل كان في اللجنة سعد لبيب وعرف؟ لا أدري ... هذا هو صوت الضمير، قال لي بعدها: إزاي كنت عايز تشتغل في صوت أمريكا يا بهاء ... قلت له: أنا! إزاي. وتذكرت عندما جاءني الخطاب. لم أذهب طبعا، لكني الآن لا ألوم ولا أدين من عمل في هذه المحطات، ولكن أيامها كان العمل في الإذاعات الغربية عملاً مع الخصوم.

*** ترى ألا يقتصر تقديم البرامج الثقافية على قناة أو إذاعة بعينها، ما فلسفتك في ذلك.**

الحقيقة أن الفكرة في البرنامج الثاني كانت فكرة عظيمة ... أن تنشئ برنامجا يضرب المثل لبقية القنوات الإذاعية في كيفية تقديم البرامج الثقافية ... صمت متململاً ثم قال: كان المثل الأعلى هو البرنامج العام، البرنامج الثاني هو البرنامج الثقافي، وكان إذاعة الشعب موجهة للعامة. كانت الفكرة أنه في النهاية، تبقى الثقافة الرفيعة هي ثقافة البرامج الثلاثة، أي أنك بالتدريج ترتفع بثقافة الجماهير بحيث تتذوق بشكل

رفيع الموسيقى والدراما والفنـون ... إلـى آخـره. كـان المنشود أن تكون هـذه الثقافـة علـى مـدى عشـرين أو ثلاثين عاما هي الثقافة العادية التي تقدم للناس.

كانت هـذه هـي فلسـفة البرنـامج الثـاني عنـد إنشائه، وكان العمل يتم وفق هذا الهـدف ... أذكـر أننـي عندما ذهبت " لصـوت العـرب " اتريقـوا علـى، لأنـي قدمت برنامج " قصة عربية "، وبرنـامج " مـع التـراث " قالوا: إني نقلـت البرنـامج الثـاني لصـوت العـرب ... يعني عملت برامج ثقافية في إذاعة جماهيرية.

هـذه الفكـرة شـحبت بالتـدريج وتحولـت إلـى معازل ... جيتوهات للثقافـة، إللـي عـايز ثقافـة يـروح الحتة دي. لا لـيس هـذا هـو الغـرض، ولا هـذه هـي الفكرة الأساسية من عمل برامج ثقافيـة. لـذلك أنـا ضـد هذه البرامج الثقافية المتخصصة، إذا ظلـت الثقافـة حكـرا عليهـا دون أن تبثهـا أو تنشـرها فـي بقيـة القنـوات والبرامج الأخرى، لكـي تتحقـق فعـلاً مسـألة الارتفـاع بالمستوى الثقافي.

*** أنت إذن ضد عزل الثقافة.**

– طبعا على خط مستقيم.

*** وما رأيك في البرامج الثقافية اليوم.**

– لكـي لا أظلمهـا هـي أشـبه بكـل المسـتوى الثقافي اليوم ... ميتة!

" ... سـألت نفسـي: لـو شـاء أعتـى خصـوم العرب تصويرهم كأمة متخلفـة، لا يسـتطيع اثنـان فيهـا تبادل حوار متحضر لمدة نصف ساعة فقـط، فمـاذا تـرى ذلك الخصم كان يفعل أكثر مـن عـرض هـذه البـرامج على الناس ".

قلت ذلك تعقيبـا علـى إحـدى القنـوات العربيـة (الجزيرة)، ومـا تطرحـه مـن قضـايا تمـس مصـر والمصريين، هذه القنـاة وأمثالهـا تمثـل الآن " الإعـلام العربي "، فهل عندنا، فعلاً، إعـلام عربـي لـه رؤيـة لا قواميس هجاء.

– إطلاقًـا، وإن كـان مـا زال إعلامنـا – علـى تخلفه – أفضل من هذا النوع مـن الإعـلام، الـذي يلجـأ إلى الإثارة وإلـى الديماجوجيـة لنشـر أفكـاره أو نشـر

خططه ونواياه التي لا يعلمهـا إلا الله. أنـا لا أتهـم أحـدا جزافيا أنا – فقط – لدي علامات اسـتفهام، عـن الهـدف الذي تهدف إليه هذه القنوات ... هـل هـو التشـكيك فـي قدرة العرب علـى عمـل أي شـيء إيجـابي، هـل هـو التشكيك في ثوابت الأمـة الوطنيـة والقوميـة، هـل هـو التشـكيك فـي زعمائهـا التـاريخيين؟ إلام تهـدف هـذه القنوات الفضائية بالضبط! دعك مـن حكايـة الديمقراطيـة من فضلك، أنا مع الديمقراطية على خـط مسـتقيم، ومـع الحوار بين مختلف التيارات.

ألا نسميه نقدا للذات.

ومع نقد الذات على خـط مسـتقيم، ولكنـي لسـت مع البلبلة، يا بهاء لكـي يقـوم حـوار علـى نقـد الـذات ينبغي أن تحاور ممثلـين لتيـارات فكريـة مختلفـة، وأن تكون لكلمتهم أهميتها وصـداها، أمـا أن تـأتي بنكـرات، وبأشخاص ليس لهـم تـاريخ فـي الحيـاة الثقافيـة علـى الإطلاق وتتركهم يشـوهون ويلوثـون تاريخنـا القـومي والوطني، فاسمح لي أن أشك في نوايـاك ومراميـك. أنـا عندي شك قوي جدا في أهداف هـذه القنـوات الفضـائية،

أشك في أنها لا تعمل لمصلحتنا على الأقل. لا أقول: إنها تعمل لمصلحة أعدائنا، لأن هذا اتهام لا أملك الدليل عليه.

*** والإعلام المصري، ماذا ينقصه وكيف تراه؟**

– تنقصه أشياء كثيرة، عد بالذاكرة إلى ما حدثتك عنه بشأن أساليب اختيار المذيعين. كانت تستصفي أفضل العناصر التي تصلح لهذا العمل، الامتحانات الآن شكلية جدا، الواسطة تلعب دورا كبيرا في الاختيار، سواء في الإذاعة أو الصحافة والتليفزيون ... الوظيفة المناسبة لا تذهب إلى الشخص المناسب. هذا عنصر أساسي، لأن هؤلاء – في لغة الإعلام – اسمهم حراس البوابة. ينقصنا هؤلاء الحراس. ينقصنا أيضا الإستراتيجية ... ما الذي نهدف إليه، هل نحن في الموسيقى نهدف إلى إحياء الموسيقى العربية الأصلية مثلاً، هل نهدف إلى إحياء التراث الشعبي، أم نهدف إلى ماذا؟

ليس لدينا مخطـط لشـيء، لا فـي السياسـة ولا في الفن ولا فـي الإعـلام ... الأمـور ماشـية بالتكـال والجهود الشخصية لكل فرد مشرف علـى قنـاة أو إذاعـة ... إلى آخره. ينقصنا – وهذا ما لا أفهمـه – قـدر كبيـر مـن الديمقراطيـة فـى الاعـلام لأن ادعاءالديمقراطيـه وليس الديمقراطيه، الموجـودة فـي المحطـات الفضـائية هذه هو الذى جعلها عالية الصوت

نحن من حيث الإمكان لا من حيـث القـوة، كمـا يقول الفلاسفة، عندنا الإمكانيات التي تجعـل مـن إعلامنـا إعلاما قويا وفعالاً، لكن بالفعل، أو القوة هـو غيـر ذلـك، لأننا لا نسعى إلى أن نكون أقوياء، كما يقول المتبني:

ولم أر في عيوب الناس عيبا   كنقص القادرين على التمام!

نحن قادورن على هذا الكمال، ولكـن فينـا العيـب الذي ... ابتسم وهو يقول: لا يوجد إلا فينا.

* في ضـوء حكايتـك عـن اهتمـام الجمـاهير بأخبار أيلول الأسـود فـي السـبعينيات وانصـرافها عـن متابعة مأساة أبشع بعد ذلك، هي اجتيـاح " تـل الزعتـر " لسماع مباراة كـرة! فـي ضـوء هـذه المفارقـة، وهـي

مستمرة إلى اليوم، أتساءل عمن يمكن أن ينور هذه الجماهير، كيف تقرر – والأمر كذلك ٠- مصيرها، وتعرف مصالحها الحقيقية.

– هذا أهم سؤال في تقديري، ولا أملك الإجابة السحرية عليه، ولكني – من خلال تجربتي الشخصية – أعرف أن الجماهير هي ما تصنعه منها قيادتها، طبعا يمكن أن ترد على بأن الجماهير هي التي تصنع القيادات. هذا لا شك فيه، لكن في عصرنا الحديث، اهتمامات الجماهير تصنعها القيادات التي توجه أجهزة الإعلام والثقافة في أي مجتمع من المجتمعات. من الذي تسمح بظهوره، وما الذي تصر على غيابه من الرسائل الإعلامية، فإذا أنت أبرزت في كل الأوقات كفاح الوطن، سوف تهتم الجماهير بذلك. عندما كنا صغارا كنا نطلع مظاهرات علشان تونس والشام، لأن الإذاعة كانت تذيع:

سلام من صبا بردي أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق

كانت هذه اهتماماتنا، وكان ثمة توازن بين مختلف الاهتمامات. في عز النكسة أذكر أن هيكل قال: يبدو أن مصير الأمة متوقف على نتيجة مباريات

الأهلي والزمالك. هذه هـي الظـروف التـي منـع فيهـا الدوري. لم تمنع الكرة لأنها السبب فـي الهزيمـة، وإنمـا لأن الدوري كان يحرف اهتمامـات النـاس عـن قضـية مصيبة وهي احتلال اليهود لسيناء.

أنت تستطيع مـن خـلال الإعـلام، ومـن خـلال الحفاظ على التوازن فـي الإعـلام مـا بـين اهتمامـات المجتمع المختلفة، تستطيع أن توجـه النـاس حيـث تريـد ... أنا رأيت الناس فـي الشـارع تبكـي، وهـي تسـمع أخبار كارثة أيلول الأسـود ... بعـد ذلـك بسـنوات ولله الحمد، مش بـس رجعنـا الـدوري، إنمـا أعطينـاه كـل اهتمامنا لدرجة أن الأخبـار الوطنيـة تنتشـر فـي ذيـل الجرنال ... أن هناك مذابح في بيروت ... الخ.

عامة الناس لا هـم ملائكـة ولا أشـرار، المهـم إلى أي شيء توجه اهتمـامهم الحقيقـى، فأنـت قـررت – لأسباب يعلمها الله – من بعـد حـرب ١٩٧٣ م أن توجـه اهتمـام النـاس نحـو عـدم الاهتمـام يبتسـم بسـخرية! فأصبحت صحفنا تعطـي للرياضـة ٦، ٧ صـفحات فـي اليوم، وللثقافة صفحة ميتة جـدا، حـراس البوابـة ليسـوا

مؤهلين لا لحراسـة بوابـة، ولا لحراسـة حجـر حتـى. ونفس الشيء ينطبق على الإذاعـة والتليفزيـون. حـراس البوابة لا يعرفون شيئًا. والمـادة التـي تقـدمها لا تغـري طفلاً بـأن يـتحمس لهـا بينمـا كـل عناصـر الإغـراء والجاذبية للرياضة والمطـربين ونجـوم السـينما ... إلـى آخره، فكيف تريد من الناس أن تهـتم اهتمامـات وطنيـة، وهي موجهة إلى غير ذلك؟

* إيه حكايتك مع " بيت الجمالية "؟

يضحك ضحكة متقطعة صـغيرة ويقـول: حكايـة تافهة، ففي الوقت الذي اشترى فيـه التليفزيـون، " خـالتي صفية والـدير "، اشـترى منـي قصـة قصـيرة علشـان تتعمل سهرة، والشاب – مخرج القصة – أرسـل لـي فـي نيويورك، حيث كنت معارا هنـاك مـن جنيـف، مخطـط السهرة، فبعثت له ببعض الملاحظات، فـإذا بـي أفجـأ أن هذه السهر أخـذت مـن الشـاب الصـغير، وهـو شـاب مجتهد لا اذكر اسمه مع الأسف، وأعطيـت لكاتـب آخـر، لا أعرفه ولا عـرض علـي الأمـر ولا أي شـيء، إلـى إنـي فوجئـت بهـا معروضـة كمسلسـل لا علاقـة لـه

بالقصة، واستسهلوا فشالوا اسمي، فأخذتني الجلالة، وقررت أن أرفع قضية على التليفزيون، وذهبت – بالفعل – إلى أحد المحامين، وبعد أن أنذرهم المحامي، وجدت أن الحكاية تافهة جدا لا تستحق أن أضيع فيها وقتي.

*** هل نجح التليفزيون في تقديم " خالتي صفية والدير "، ولماذا لم يكن لك رأي في الشكل الذي قدم به العمل.**

– الحقيقة أن الذنب مشترك، ففي الوقت الذي كان التليفزيون يخرج فيه " خالتي صفية والدير "، كنت أمر بظروف عائلية بالغة السوء، فقدت أحب إنسان إلى قلبي ... ابن أخي الذي كان سفيرا في الفلبين، على إثر فشل كلوي. وهو – في الحقيقة – بطل " شرق النخيل" إذا كنت تريد أن تعرف. غايته أنني حزنت لوفاته، ولم أستطع أن أراجع المسلسل، فخرج العمل بمجهودهم الشخصي وهم مشكورون لأنهم اجتهدوا، وبالعمل جوانب إيجابية، وفيه جوانب

لو كنت في ظروف أحسن، لكان يمكـن تـداركها، ولكـن للأسف لم أكن في وضع يؤهلني لذلك.

*** لنتوقـف عنـد أدبـاء متواضـعي الموهبـة، يخلق منهم الإعلام نجوما، والأمثلة كثيرة!!**

– ليست لهذه المسألة أي أهمية، أنـا علـى مـدى عمري هذا، رأيت أناسـا يـنفخ فـيهم الإعـلام ويعطـيهم جوائز وأوسمة، وبمجرد زوال هذه الهالـة، يختفـون مـن الإعلام ومن خريطة الحيـاة الأدبيـة، لا تصـدق أن لهـم أهمية من أي نوع. فـي الخمسـينيات لـم يكـن يوسـف إدريس أشهر كاتب، كان هناك أدبـاء يكتبـون فـي كـل الصحف والمجلات، الآن هـؤلاء اختفـوا وبقـي يوسـف إدريس.

أنا أقول دائما: هنـاك محكمتـان ... الحكـم الأول حكم الجمهور، وهـو قابـل للخطـأ، لأن الجمهـور مـن الممكن أن يقبل كل شـيء لا قيمـة لـه، أو يعـزف عـن شيء مهم جـدا ... مسـرحية شـيلر، الكاتـب الألمـاني، التي سقطت على المسـرح، فقـال: أنـا مصـر علـى أن يستمر عرض هذه المسرحية، إلـى أن يكتشـف الجمهـور

أن المسرحية أفضل بكثير من رأيه فيهـا. وطبعـا عاشـت " اللصوص ". الجمهـور ممكـن يغلـط، ولكـن الحكمـة الثانية " محكمـة الـزمن " هـذه المحكمـة الإسـتئنافية لا يمكن أن تخطئ أبدا.

أريد أن أقـول لـك: لا يغرنـك الآن أي كاتـب، في أي مكان في العـالم محـاط بهالـة إعلاميـة. مـثلاً " ميلان كونديرا " أنـا أرى أنـه كاتـب متوسـط القيمـة، وكان هناك نفخ إعلامي يحيط به، لأنهـم كـانوا يجهزونـه لنوبـل، بوصـفه معاديـا للشـيوعية، وحينمـا سـقطت الشيوعية سقط كونديرا.

قل لي اسم شاعر واحد ممـن أخـذوا نوبـل فـي السنوات الأخيرة، عائش في وجـدان النـاس. لكـن بـابلو نيرودا حي، لوركا حي. أليس كذلك!

* * *

" كاتب وكتابة "

*** نشرت في عـام ١٩٥٧ م مسـرحية بعنـوان " بـلا رجـل "، وفـي عـام ١٩٦١ م مسـرحية " كـان "، وكنت مسئولاً عن تحريـر بـاب المسـرح فـي مجلـة " الكاتـب " فضـلاً عـن عضـويتك فـي المكتـب الفنـي للمسـرح القـومي ... لمـاذا لـم تسـتمر فـي الكتابـة المسرحية.**

– في الحقيقة ليسـت لـدي إجابـة عـن سـؤالك هذا، فأنا لا أختار الكتابـة، هـي التـي تختـارني، دائمـا أقول ذلك، بمعنـى أننـي لا أختـار القصـة القصـيرة أو الرواية أو المسرحية، قد يأتي يوم تنـدهني فيـه " نداهـة " المسرح. إن كان في العمر بقية.

* هــل أفــادك المســرح فــي كتابــة القصــة والرواية؟

– بالتأكيد، فأنا عاشق قديم للمسـرح، السـبب هـو طه حسين، وقـد أشـار إدوار الخـراط إلـى أن الحـوار عندي له مذاقه الخـاص، ربمـا يرجـع ذلـك إلـى هـذا العشق

*** في الستينيات شهدت مصر نهضة مسرحية حقيقية ... قل لي: هل يزدهر الأدب في ظل الحرية، أم العكس، وما شهادتك على هذه الفترة مسرحيا؟**

– الأدب يزدهر في ظل الحرية، وفي ظل غياب الحرية، يزدهر في غياب الحرية لماذا؟ لأن الأدب رسالة احتجاج في الأساس ضد المظالم في الحياة، ربما لا يزدهر النشر عندما تغيب الحرية، ولكن يزدهر الإبداع، وعندما توجد الحرية، فإن هذا الازدهار يتم التعبير عنه، لأن المظالم التي يشكو منها الإنسان لا نهاية لها، فعندما تتاح الحرية يزدهر الإبداع والنشر – أيضا – وإمكانية التعبير. المهم أن غياب الحرية لا يؤدي إلى القضاء على الأدب. أنظر إلى روائع الأدب الروسي الكلاسيكي التي كتبت في عز الرقابة القيصرية. كل روائع بوشكين، وجوجول، وتشيكوف، وديستويفسكي، كانت تخضع لرقابة حديدية، لكنهم كانوا يعرفون كيف يمررون آراءهم بالكتابة، عندما أعيد قراءة " دبروفسكي " لبوشكين، أجد أن الرواية كلها هجوم على الأرستقراطية

الإقطاعية في روسيا، وفيهـا فصـل يصـور الإقطـاعيين على أنهم نبلاء جـدا، ولا تخـرج مـنهم العيبـة علشـان الرقابة.

الكتاب يعرفـون – لـو غابـت الحريـة – كيـف يوصلون رسالتهم. بـالطبع عنـدما تقـرأ " دبروفسـكي " ستبقى في ذهنك تلك الفظائع التي ارتكبها الإقطاعيون.

*** وما شهادتك على هذه الفترة مسرحيا.**

– أعظم فترة نضـج مسـرحي شـهدتها مصـر؛ لأنه قبل هذه الفترة كان هنـاك مسـرح بـلا مسـرحيين: مســرح ســلامة حجــازي، ويوســف وهبــي، وروز اليوسف... إلى آخره.

أمــا فــي الســتينيات فكــان هنــاك المســرح والمسرحيون معا.

كثيرون، مـنهم ألفريـد فـرج، نعمـان عاشـور، سعد الدين وهبة، صلاح عبـد الصـبور، والكاتـب الفـذ محمود دياب.

*** المسرح التجريبـي الآن ... مـن يكلـم مـن، وما حاجتنا إليه.**

– بإيجاز ... المسـرح التجريبـي يخاطـب أهـل المسرح التجريبي، وليست لنا بـه أيـة حاجـة، المسـرح التجريبي يمكن أن يكـون موجـودا عنـدما تكـون هنـاك حركة مسرحية عادية راسـخة، وعلـى هامشـها مسـرح تجريبي، ولكن هذا لـيس هـو الوضـع القـائم، المسـرح التجريبي له الآن ١١ سنة تقريبا. في هـذه السـنوات لـم أر أن هنـاك نهضـة فـي المسـرح المصـري العـادي توازي أن نعمل جنبها مسرحا تجريبيا.

*** هذا يجعلني أسألك: كيف ترى المسرح اليوم؟**

– المسرح، كما قلت لـك " مسـرح ومسـرحيون "، أين هم المسرحيون اليوم، أيـن هـم كتـاب المسـرح. آخر اسم كبير رحل عن دنيانا، هـو " سـعد الله ونـوس ". ألفريد فـرج وغيـره مـن الكبـار لا يكتبـون، والكتـاب الشباب لم يصلوا بعـد لمرحلـة إصـدار حكـم إذن لـيس هناك كتاب ولا جمهور المسرح الوحيد الـذي أشـير إليـه وأشيد به هو مسرح " محمـد صـبحي " لأنـه يحـاول – على الأقل – أن يبقى المسرح حيا

*** تعلم أن الأسـلوب هـو الرجـل، حـدثنا عمـا فعلت لتستقر على كل هذا الصفاء.**

– لو استطعت أن أحدثك عن هـذه المعركـة، لمـا بقيت عندي أدنـى مشـكلة، أنـا أعـافر وأحـارب لكـي أصفى الأسلوب من كل إدعاء وافتعـال وبلاغـة شـكلية، أو أي زخرفة لكي أصل إلـى الجملـة التـي أعتقـد أنهـا صادقة، ومن ثم أصـل إلـى الأسـلوب الـذي إذا قـرأه الجاهل ظن أنه يحسن مثله كمـا يقـول ابـن المقفـع ... أي أن تكتب كلامـا عاديـا ولغـة عاديـة، ولكـن فيهـا الجمال الأدبي ... كيف. لا أستطيع أن أعرف ذلك.

*** ومن مثلى العليا في الكتابة؟**

– مثلي العليـا فـي الكتابـة ذكـرت الآن واحـدا منها ... ابن المقفع، وأذكر لك بـدون ترتيـب ... يحيـي حقـي، يوسـف إدريـس، نجيـب محفـوظ، هيمنجـواي، الجاحظ، المتبني، ألبير كامي.

*** من أثر فيك منهم؟**

– هذه مسألة أتركها للنقاد.

*** أنت كاتب مقل جدا ... لماذا؟**

– الكتابــة لا تقــاس – إطلاقــا – بــالكم ولا بالطول ولا بـالوزن، وإنمـا تقـاس بقيمتهـا الفعليـة. إذا اسـتطعت مـن خـلال روايتـين أو ثلاثـة أو أربعـة أو أربعين رواية، أن توصل رسـالتك أو صـوتك الخـاص، أكرر ... الخـاص، إذا اسـتطعت أن تفعـل ذلـك، فـإن مكانك محفـوظ فـي الحيـاة الأدبيـة وتـاريخ الأدب ... على مر التاريخ هذا هو الوضـع. هنـاك كتـاب غزيـرو الإنتاج احتفظ لهم التارخ بمكانـة عظيمـة، وكتـاب قليلـو الإنتاج احتفظ لهم التاريخ بـنفس المكانـة ... مثـل ابـن المقفع، المتنبـي، وغيـرهم. المهـم مـا الـذي تتضـمنه الكتابة، لو عاش لكاتـب روايتـان أو مجموعتـان، علـى مدار الزمن فهذا شيء كاف جدا.

*** ما الذي يجعلك تنفعل وتكتب؟**

– بأمانة لا أعرف ... أنـا تـأتيني حالـة روائيـة أو قصصية، أستطيع سـاعتها أن أوظـف كـل الجزئيـات التي تصادفني في الحياة، والتي تنشـأ فـي الـذاكرة، فـي العمل الروائي، وفي حـالات أخـرى ... عنـدما أجلـس

للكتابة عامدا متعمدا، أجد أن مـا أكتبـه لا روح فيـه ولا طعم، وغالبا يكـون مصـيره سـلة المهمـلات. الكتابـة تأتيني ... بعض النـاس يسـمى هـذا إلهامـا، وبعضـهم يسميه الجهد والعـرق ... إلـى آخـره ... أنـا شخصـيا أسميه الحالة القصصية أو الروائية. عنـدما تنتـابني هـذه الحالة أستطيع أن أكتـب. وعنـدما تهـرب منـي، مهمـا بذلت من جهد لا أفلح في اسـتردادها، أخطـر كارثـة أن تهرب منك هذه الحالة أثناء الكتابـة. أنـا عنـدي روايـة كتبت فيها جزءا كبيرا جدا قبـل نشـر " شـرق النخيـل " لكن الحالة هربت مني من منتصف الكتابة.

*** ما القضايا التي تمثل هما دائما لديك؟**

– العدل ... دائما.

*** وأنـت تكتـب، هـل تحـرص علـى طقـوس معينـة، أوقـات تفضـل فيهـا الكتابـة، أقـلام معينـة، ورق... الخ.**

– أكتــب عــادة بــالقلم الرصــاص. وأمســح بالاستيكة ... يضحك، أكتب علـى " بلـوك نـوت " مـن

حجم معين، وحين يختفـي أتنكـد غايـة النكـد، وأوقـاتي المفضلة بعد منتصف الليل.

*** ماذا تقرأ الآن؟**

– اهتم الآن بقراءة الإنتـاج القصصـي والروائـي الجديد. المصري والعربي.

*** هل لدينا مذاهب نقدية عربية؟**

– ليت أحـدا يتفـرغ لدراسـة هـذه المشـكلة ... يقرأ الجرجاني وقدامه وابن سلام الجمحـي، ليقـول لنـا: ما هي نظريتنا النقدية العربية؟

*** الكاتب وجمهوره ... لمـاذا انقطـع التواصـل بينهما؟**

– ارجع إلى ما قلته لـك عـن الإعـلام، ارجـع إلى الوضع الحالي ... مـا نعيشـه الآن ثقافيـا ... يعنـي أنا قلت لك: إننا – في المدرسـة – قرأنـا يوميـات نائـب في الأرياف، وأبو الهول يطيـر والأيـام، كانـت تـوزع علينا هذه الكتب للإطلاع، لا لنمـتحن فيهـا، هـل يحـدث هـذا الآن فـي نظـم التعلـيم لمـاذا لا يعيـدون طبـع "

المنتخب من أدب العرب "، أو كتـاب " التوجيـه الأدبـي " وغيرهما.

ثم أضاف قائلاً بيأس: انقطع التواصـل يـا بهـاء، لأن التعليم لا يشجع على حب الثقافـة، وانقطـع التواصـل لأن الإعلام ينفـر مـن الثقافـة، وانقطـع التواصـل لأن أجهزة الثقافة تـؤدي عملهـا بشـكل روتينـي، لا بشـكل مدروس بحيث تعرف احتياجـات القـارئ، أو احتياجـات خلق القارئ المحتمل. لا توجد هذه الخطـة. دعنـي أعبـر عن إعجابي بأنه لا يزال هنـاك قـراء، حتـى لـو كـانوا قلة، وأتعجب كيف يقرأ هؤلاء، وكل شـيء حـولهم معـاد للثقافة. كيف ما زال هناك بعض القـراء، هـذا هـو مـا يدهشني في حقيقة الأمر.

*** الجيل الجديـد مـن الأدبـاء، تفـاعل بـالتغيير الذي حدث في اتحاد الكتاب، لكنه يتسـاءل: متـى يصـبح الاتحاد فـاعلاً، ولمـاذا لا يتحـول إلـى نقابـة تضـمن للأدباء حقوقهم وتدافع عن حرياتهم؟**

– في الجوانب القانونيـة، لا أسـتطيع أن أفتيـك، متى يتحول إلى نقابة ... هو المفروض أنـه نقابـة بحكـم

المادة الأولى من قانونه، إنما يخيـل لـي أنـك لا تقصـد ذلك، أنت تقصد أن يكون الاتحـاد تجمعـا للأدبـاء يـدافع عن مصالحهم، والأهـم أن يـدافع عـن كرامـة المهنـة ودورها ووظيفتها، ولأن الاتحـاد – فـي تصـوري – لـم يبذل مجهودا كبيرا في تأدية هـذا الـدور، اسـتقلت منـه، إنما متى يستطيع أن يؤدي هذا الـدور، فعلـم ذلـك عنـد الكتاب أنفسهم، لابد أن يفعلوا شـيئًا لكـي يسـاندوا – أولاً – المبادئ التي يؤمنون بهـا، وأن يسـاندوا الاتحـاد فـي تجسيد هذه المبادئ. متى يفعلون ذلك، الله وحده يعلم.

*** أعرف أنـك مولـع بالسـينما والشـعر والفـن التشكيلي، أحك لنا عن تجربتك مع هذه الفنون.**

– السينما بالنسبة لجيلـي كانـت اكتشـافًا مثيـرا، أذكر أول مرة ذهبت فيهـا إلـى هنـاك ... كنـت طفـلاً صغيرا، وكانت – لأول مرة – تفتح سـينما فـي الجيـزة (فانتازيا) كانت تعرض فيلما عربيـا أو أجنبيـا، ومعـه مسلسل يتوقف عند جزء مثير، لكي نـذهب مـرة أخـرى، اسم المسلسل، " فلاش جوردون " على أيامنا.

كانت السينما هي الهواية الحقيقية في عمري إلى جوار القراءة، ولكن لم يكن معي فلوس، لكي أذهب إليها بانتظام، فكنت أتفرج على السينما من سطوح بيت أحد زملائي بمدرسة الجيزة الابتدائية، ثم أقيمت – في الجيزة أيضا – سينما شهر زاد، وكانت تعرض ثلاثة أفلام في بروجرام واحد. كنا ندبر الـ ٥ صاغ بمعجزة، واكتشفت بالتدريج بعد المرحلة الأولى... مرحلة الإثارة، اكتشفت الأفلام الحقيقية.

طبعا أحببت كل نجوم السينما المصريين خاصة " فاتن حمامة " التي كانت – وما زالت – عشقي الأول، رأيت كل أفلامها، ثم بدأت أتعرف على السينما العالمية، في سينما " ستراند " في باب اللوق، وسينما" إيديال " التي حل محلها مسرح الجمهورية الآن.

شفت أفلام هيتشكوك والممثلين العظام: إدوارد جي روبنسنو، وجون كروفودر، وسبنسر تريسي، وجينفر جونس، ووالتر بتجون، ولورانس أوليفييه طبعا، وفيفيان لي، وشفت – في هذه السينما – الأفلام

المأخوذة عن قصص عالمية مثل: " ما كان أخضر واديتا "، و " البؤساء "، و " مدام بوفاري ". بعد ذلك بدأت أكتشف سينما " ليدو " في شارع عماد الدين. كانت تعرض أفلاما إيطالية، فعرفت الأفلام العظيمة... أفلام الواقعية الجديدة " روما مدينة مفتوحة "، " سارق الدراجات "، " الأرز المر ". كانت هذه الأفلام بعيدة تماما عن إبهار السينما الأمريكية.

وعرفت السينما الفرنسية في سينما " فيمنا " في شارع عماد الدين، وسينما اسمها " لابوتينير " مكان مسرح ميامي الآن. كانت للسينما الفرنسية نكهة خاصة جدا ... سينما رقيقة تقدم أحداثًا إنسانية.

ما أستطيع أن أقوله، أن السينما لعبت دورا رئيسيا في تكويني ... فهمي للناس والحياة والتجارب، أنا مدين للسينما بالكثير، عندما كبرت كنت عضوا مؤسسا في جمعية الفيلم، وكنت دائم التردد على نادي السينما " أوبرا "، وبدأت أقرأ وأعرف " دنيا الفن " والأستوديو، وغيرها من المجلات.

*** الم تحلم بأن تكون ممثلاً؟**

– إطلاقًا، لم يراودني هذا الحلم.

*** لماذا لم يمثل شيء من أعمالك في السينما؟**

– لا أشغل نفسي بـذلك، أنـا أعتبـر أن الكتـاب سيظل – إلى الأبد – منسوبا إلـى صـاحبه. أمـا السـينما فيتفرق دم الكاتب فيها بين القبائل.

*** وماذا عن الشعر؟**

– حدوتة الشعر طويلة جدا معـي، فأنـا – لحسـن الحظ – باستثناء قصائد بالغة الـرداءة كتبتهـا فـي مطلـع الشباب، أحب الشعر حبا شديدا. كان الشـعر مـدخلي إلـى الموسيقى ،إلى العـالم، قـرأت فـي مكتبـة والـدي كـل دواوين الشعر الكلاسيكي ... أبـو تمـام والبحتـري، أبـو نواس، بشار بن برد، المتنبي الـذي وقعـت فـي غرامـه من بداية التعليم الثـانوي. وكـان للأسـتاذ عبـد الفتـاح مدرس العربي في السعيدية الثانوية، طريقـة فـي الإلقـاء جميلة حببتني أكثر فـي الشـعر. كانـت هـذه المصـادر متاحة لي، وهذا مـا جعلنـي أكتشـف موسـيقى اللغـة، وبالتدريج كونت " شعرائي " الـذين يقـف علـى رأسـهم

المتنبي طبعا، ما أحبه فيـه شـيء خفـي هـو الإحسـاس بنبرة حزن مكتومة في كل قصـائده. فـي شـعره حـزن مأساوي عميق، تحسه من تتـابع الأبيـات، هـو لا يقـول أنا حزين، ولكن شجنًا شاملاً، يبطن قصـائد هـذا الشـاعر القريب جدا من نفسي.

وأحب أيضا " أبو فراس الحمداني ".

قالت: غريبة. فضحك بهـاء طـاهر، وقـال وهـو يلـتقط نفس الكلمة:

فعلاً غريبة أن تجمع بين المتنبـي وأبـو فـراس، وأعشق طرفه بن العبد، وفي ذاكرتـي إلـى الآن، أبيـات كثيرة مـن معلقتـه، وأحـب امـرىء القـيس وصـوره الصحراوية المتتابعة التي تشبه قـرع الطبـول، وأحـب " أبو العلاء المعـري " بنزعتـه التأمليـة الفلسـفية، ومـن الشعراء الصعاليك أحببت " مالـك بـن الريـب "، وكنـت أحفظ قصيدته الشهيرة التي مطلعها:

ألا ليت شعري هل أبيتــن ليلــة بجنب الغضا أزجى القـــــــــــــلاص النواجيـــــــــــــــا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماشي الركـــــــــــــــاب لياليـــــــــــــــــا

*** ومن من الشعراء المحدثين.**

– أقرب الشعراء المحـدثين إلـى قلبـي صـلاح عبد الصبور، الذي اسـتطاع أن يقتـنص روح العصـر... الشاعر العظيم هـو الـذي يسـتطيع أن يعبـر عـن روح العصر، صلاح اقتنص روح التناقضـات المأسـاوية التـي تطحن الفرد في هذا العالم المعاصر، وفـي وطننـا علـى وجه التحديد، وفي مصر على وجه أخـص. أنـا لا أكـف عن الرجوع إلى دواوين صـلاح وعـن قراءتـه. هنـاك أيضا أمل دنقل، ونزار قباني الذي أحـب شـعره رغـم أن المثقفين ينظرون إليـه باسـتخفاف. أنـا رأيـي أن نـزار شاعر جميل وشعره غني بصور تستعصـي علـى أعتـى المحدثين. وأحب قصائد أدونيس الحلوة.

*** والشعراء الأجانب.**

– ما أحبه في الشعر، أن يكون الفكر والتأمل نابعين من القصيدة ذاتها، لا مفروضين عليها أن تكون الفكرة جزءا من نسيج اللغة نفسه، أظن أن هذا محقق في كل الشعراء الذين ذكرتهم.

*** يبقى الفن التشكيلي.**

صمت طويلاً وقبل أن يجيب اعتدل في جلسته، ثم قال: دعني أتذكر كيف أحببت الفن التشكيلي ... أيوه، لما كنت أروح مكتبة الفن، كان فيها أرفف مخصصة لمستنسخات لوحات كبار الفنانين، كنا نقلب في هذه الكتب العظيمة والموسوعات عن هؤلاء الفنانين. وأثناء مطالعتي هذه المستنسخات، توقفت عند التأثريين الكبار: فان جوخ، جوجان، رينوار، والفنانين الكلاسيكيين رافاييل، وفيلا سكوير.

ومن فناني عصر النهضة، توقفت عند دافنشي بشكل خاص. ثم بالتدريج بدأت أكتشف عوالم الفن التشكيلي الجديدة، كان هناك كتاب عن الفنان النرويجي " إدوارد مونش " فيه لوحة اسمها " الصرخة "، ظلت

تطاردني في منامي فتـرة طويلـة، أحببـت أيضـا جويـا وبيكاسو، مكتبة الفـن أيضـأ هـي التـي قـدمتني للفـن المصري المعاصر، لأن في قلـب الجنينـة كانـت هنـاك تماثيل مختار، ما زلت أذكر تمثالـه الجميـل " الفلاحـة "، كنت أقعد مسـنودا عليـه وأنـا اسـتمع للموسـيقى. مـع الأسف لم تكـن هنـاك مستنسـخات لمحمـود سـعيد ولا لغيره، ولكن كان هناك معرض دائـم لأعمـالهم، فعرفـت ناجي والأخوين وانلـي وغيـرهم. أنـا لا أعتبـر نفسـي خبيرا في الفـن التشـكيلي، أنـا مجـرد عاشـق للوحـة، ويشدني جدا التكوين والتعبير فيها.

*** مـا الـذي يجمـع بـين اللوحـة والقصـيدة والفيلم؟**

– مـن الخـارج يمكـن أن تقـول: " الصـورة "، ولكني أتجاوز عن هذه العلاقـة الخارجيـة، وأتكلـم عـن قوة التعبير الكامنة في أفضل النمـاذج فـي هـذه الفنـون ... تلك القوة التي تملـك " داخلـك " تمـلأ نفسـك بعـد الفراغ منها.

*** المازني، توفيق الحكيم، يحيـي حقـي، نجيـب محفوظ، يوسف إدريس، صـلاح عبـد الصـبور، أحمـد عبد المعطي حجازي، كيف ترى هؤلاء؟**

– من أحب كتـب المـازني إلـى قلبـي كتابـه " رحلة إلى الحجاز ".

رغم أنه أقلها شـهرة ؛ لكنـه ملـئ بخفـة الـدم. وخفة الدم هي أساس كتابة المـازني، وملـئ أيضـا بقـوة الملاحظة الدقيقـة، ملاحظـات عـين فاحصـة، وأحـب أيضا " إبراهيم الكاتب ".

*** حدثني عن موقعه في الذاكرة الأدبية.**

– هو عندي بعد يحيي حقـي، أنـا أحبـه، لكنـي لست مفتونًا بـه، وأرجـو ألا تعتبـر هـذا تقلـيلاً منـه. المازني لم يترك بصمة على.

*** وتوفيق الحكيم.**

نفس الشيء، برغم أنـه مـن أوائـل مـن قـرأت لهم، أتذكر أنني قرأت، في سن مبكـرة: " عـودة الـروح، وشهر زاد، ويوميات نائب في الأريـاف، وأهـل الكهـف "، وفي سنة أولى جامعة كتبت عـن أهـل الكهـف بحثًـا

طويلاً أعجب به أستاذي الـدكتور محمـد كامـل حسـين غاية الإعجاب. وقتها كنت مفتونًـا بتوفيـق الحكـيم، بعـد ذلك، ولا ينطبـق هـذا الكـلام علـى المـازني، خفـت إعجابي به ... شعرت أنه خفيف، مقارنـة بطـه حسـين، أو يحيي حقي، حتى بهيكل في الحقيقـة. أنـا أحـس أنـه كاتب خفيف. كل أمجاده مبنية علـى خفـة الظـل. نـادرا ما أرجع له.

*** ويحيي حقي.**

– أوه ... هذا أبي بكل معنى الكلمـة، أنـا كنـت أبوس رأسه كلما رأيته. أنا أحب هـذا الرجـل حبـا جمـا على المسـتوى الإنسـاني وككاتـب، أعتقـد أن أسـلوبه يتحدى أي كاتب، حتى عندما يكتب مقالـه ولـو صـغيرة، تجد فيها من الفن ما قد تجده فـي مجـاميع قصصـيه، أو قد تقرأ مجاميع قصصية ولا تجد فيها ما تجـده فـي مقـال واحد له. وأنا وصفته، وقد أعجبه هـذا الوصـف، قلـت: إن يحيي حقـي لا نسـتطيع أن نصـفه بأنـه روائـي أو قاص، يحيي حقي هو " الكاتب ".

على فكرة، والشيء بالشيء يذكر، أذكر الآن مناقشة دارت بيني وبين الدكتور زكي نجيب محمود، رحمه الله، كان رافضا لفكرة التلفيق بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية، كما يسميها في " قنديل أم قنديل ". طبعا زكي نجيب محمود كان يرى أنه، لكي نتقدم، لابد من الأخذ بأسس الحضارة الغربية لا تفاصيلها. لكن الزمن أثبت أن بحث يحيي حقي، أكثر التصاقًا بحياتنا وواقعنا من تفكير زكي نجيب محمود، ما زال يحيي حقي مؤثرا، بينما انحسرت أفكار زكي نجيب محمود مع احترامي له.

*** ونجيب محفوظ.**

– نجيب محفوظ أول من عملنا الرواية طبعا، أذكر أن صديقي مصطفى أبو النصر كان أول من قدم لي كتبه، وأنا طالب في سنة أولى جامعة ... أعطاني اظن " بداية ونهاية "، و " السراب "، وبعد ذلك التهمت كل ما كتب. إنما هذا الحب الشديد لنجيب محفوظ والإعجاب الشديد به، جعلني حريصا على ألا أكون نسخة مكررة منه، ونفس الشيء يصدق على يوسف

إدريس الذي أعشقه، لم أحـاول الكتابـة بطريقته رغـم عشقي له إنسانًا وكاتبـا وفنانـًا. حيـاة يوسـف إدريـس نفسها فن. أنا أعرفه من أيام الجامعـة. كنـا نقعـد على مقهى محمـد عبـد الله فـي ميـدان الجيـزة مـع أنـور المعداوي، الله يرحمه، كانت الظـروف غيـر الظـروف، أذكر سيارته الصغيرة ونحن نلـف بهـا شـوارع القـاهرة في منتصف الليل. يوسف شـخص غيـر عـادي. قطعـة من الفن ... عصبي جـدا، يتخـانق معـاك بـدون سـبب ويحضنك بدون سبب. وكـان عـذبا. ثـم أنـا مـدين لـه بشكل شخصي، لأنه قـدم لـي قصـة " المظـاهرة " فـي صفحة كاملة، وكانت أول قصة تنشـر لـي، قـال الكلمـة التي كنت أتحرج مـن ذكرهـا ... هـذا كاتـب لا يقلـد أحدا، ولا يسـتعير أصـابع غيـره. هـذا كاتـب بهـائي طاهري. كانت هذه الكلمة دفعة جبـارة لـي، ولا أتحـرج الآن من ترديدها.

*** وصلاح عبد الصبور.**

– ده شـقيق الـروح. بمعنـى أننـي لـو كنـت شاعرا، كنت كتبت نفس قصائده. ولو كـان هـو روائيـا،

كان كتب نفس ما كتبت. كنا على موجـة واحـدة. تخيـل أحيانًا كنا نقعد بالساعات لا نتكلم، نقعـد فـي سـميراميس أو الجمعية الأدبية دون أن نتكلم، لكـن اتصـالاً مـا كـان بيننا، اتصالاً روحيا يصـعب الآن تفسـيره، وأنـا أعتقـد أن قيمة صلاح الحقيقية لم تكتشف بعـد، لأن هنـاك خلـلاً في حياتنـا الأدبيـة. خلـلاً عظيمـا. لا نتـذكره إلا فـي ذكرى وفاته!! خسارة ... قالها بأسى وسـكت طـويلاً ثـم قال:

يحدث كثيرا في الحيـاة الأدبيـة أن تـأتي فتـرات عتمة تنسى فيها أقـدار النـاس. لكـن لأن نغمـة صـلاح عبد الصبور متصلة أوثـق اتصـال بحياتنـا وحضـارتنا ومستقبلنا، فسيأتي اليوم الذي تنجاب فيه هذه العتمة.

*** وأحمد عبد المعطي حجازي.**

– شـاعر عظـيم، ونغمـة أصـيلة فـي الشـعر العربي.

وكنت أهم بسؤاله عن جائزة الدولـة حـين قـال:

لم تسألني عن خليل حاوي ... أحـد أبطـال " الحـب فـي المنفى ". وأحد أبطالي الشـعريين. ويصـدق عليـه نفـس

الكلام ... كان مهموما بـروح الـوطن. وأخـد بالـك ... وأنا كتبت دراسـة عـن العلاقـة بـين جبـران، وخليـل حـاوي، قلـت فيهـا: إنـه بـرغم أن جبـران شـاعر رومانسي، وخليل حـاوي شـاعر خشـن، إلا أن رابطـة وثيقة تجمعهما، هي هـذا الهـم بـروح الـوطن، كلاهمـا يرى أن هناك صدعا في الدولة فـي الـروح. كمـا يقـول هاملت. كلاهما كان مهموما بصدع الروح.

ولم تسألني عن نازك الملائكة التـي أحبهـا جـدا، ولا عن السـياب أو البيـاتي ... صـديقي العزيـز. ولـم تسـألني عـن شـوقي ... وهنـا قـال بنشـوة طفوليـة مقتضبة: شوقي يا سـلام ... دا شـاعر هايـل. وسـيأتي الوقت الذي تعتدل فيه الموازين المختلة.

أوه ... وهنـاك حـافظ، حبيبـي حـافظ، أعشـق قصيدته:

لا تلم كفى إذا السيف نبا

وأكملنا في نفس واحـد أنـا والروائـي ... صـح مني العزم والدهر أبى.

وقال هو ضاحكًا: ده ممكن يكـون شـعار جميـع الأدباء المصريين. فسألته: بمـا فـيهم المتحققـون! قـال: التحقق هو أن يكون للكلمة تأثير فـي المجتمـع، أتحـداك أن تدلني على كاتب الآن، لكلمته عشر تـأثير كلمـة طـه حسين، أو سلامة موسى أو هيكـل، ولـيس هـذا العيـب في الكتاب، إنمـا العيـب فـي المجتمـع ... فـي أدوات التوصيل. الكتاب يقولون كلاما له نفس أهميـة كـلام طـه حسين وجيلـه، ولكـن مـن يسـمع الآن. لا أحـد، أدوات التوصيل مشغولة الآن بالعبث.

*** حصلت علـى جـائزة الدولـة التقديريـة فـي الآداب لعام ١٩٩٨ م، هل تـأخر عنـك التقـدير. ومـاذا تمثل الجائزة للكاتب في رأيك.**

– لا لـم يتـأخر. هـذه الجـائزة تمـنح كتتـويج لعطـاء الكاتـب، وأنـا أرى أن مجـرد الترشـيح جـدير بالامتنان، لأني كنت غائبا عن مصر فتـرة طويلـة جـدا، ولم تكن أعمالي معروفـة لعامـة القـراءة، فـإذا كانـت اللجنة، ولم أكـن فـي ذلـك الوقـت أعـرف أحـدا مـن أعضائها، قد رأت في هـذه الأعمـال قيمـة، فأنـا أشـعر

بامتنان شديد. أما الجائزة بالنسبة للكاتـب، فـلا شـك فـي أهميتها، لكن لا يجب على الكاتب أن يضـعها فـي بالـه، أو أن تكون غايـة فـي ذاتهـا ؛ لأن الجـائزة العظيمـة للكاتب هي تقدير القراء. وأنا قلت لـك: إن أكبـر جـائزة حصلت عليها هي تقدير القـارئ. لا أنسـى ذلـك القـارئ الذي رأيته في ميـدان التوفيقيـة، فـي منتصـف الليـل، وكانت " ضحي " تنشـر مسلسـلة فـي المصـور، رأيتـه تحت عمود نور، ظل يقلب في المجلة حتـى وصـل إلـى " ضحى ". هذه هي أعظم جـائزة حصـلت عليهـا مـدى الحياة.

*** الكاتـب بـين الأصـالة والمعاصـرة. الكاتـب وتراثه ... قضية أريق حولها مداد كثير. ما رأيك؟**

– أكره هذه الكلمة تمامـا. الأصـالة والمعاصـرة، أمقتها، ولم أشارك طـوال عمـري فـي أي جـدل أثيـر حولها، لأنهـا عبـث ... أصـالة إيـه ومعاصـرة إيـه. المجتمع يتقـدم دائمـا. هنـاك عوامـل جـذب للخلـف، وعوامـل جـذب للأمـام، وفـي تراثـك الممتـد حتـى الفراعنة، ما يساعدك علـى التخلـف أو التقـدم، وأنـت لا

تختار. الحياة نفسها هي التي تجري الفرز. ما يستحق البقاء من هذا التراث، لابد أن يعيش. وما لا يستحق يندثر. دون أن نتفلسف! الحياة دائما، تتقدم للأمام. وهذا لا يعني أنني ضد التراث، بالعكس كل التاريخ مهم. ولكن يكفي ما أضعناه من وقت وجهد دون طائل.

*** صحافتنا الآن، هل تتمتع بالحرية؟**

– لأنني عشت في المرحلة السابقة على ١٩٥٢ م، ومرحلة الثورة وما بعدها، والوقت الحالي، أستطيع أن أقرر أن صحافتنا، سواء في المعارضة أو في الصحف القومية، تتمتع بحرية غير مسبوقة.

*** " أنا أكتب عن الأشياء المحزنة، لا لتكتبوا عنها، ولكن لتغيروها "، مقولة لتشيكوف ذكرتها في أحد حوراتك. أستاذ بهاء، كيف تغير الكتابة المجتمع؟**

– أنت سلمت أولاً أنها تغير المجتمع. لا، ليس من المؤكد جدا أنها تفعل ذلك ؛ لأنه من الممكن أن تكون هناك كتابة، ولا تحدث استجابة من المجتمع، فلا يكون هناك تغيير. أي لا يكون للكتابة أي دور. الكتابة

لكي تغيـر المجتمـع، لابـد أن تكـون هنـاك اسـتجابة اجتماعية. أن يكون لمـا يكتـب قيمـة، ثانيـا أن يكـون المجتمع مهيأ للاستجابة.

ولابد، أقول ذلك مـن خـلال تجربتـي، لابـد أن تكون هنـاك مرحلـة وسـيطة بـين هـاتين المـرحلتين، مرحلة توجه الاهتمام للكتابة، هـذه المرحلـة كانـت فـي وقت من الأوقات النقاد، كانت الأحـزاب، كانـت الحركـة الثوريــة ... أي الأداة التــي توصــل كلمــة الكاتــب للجمهور، وبالتالي توضح أهميـة الكتابـة، تـذكر أن مـا خدم رفاعة الطهطاوي هـم تلاميـذه الـذين علمهـم فـي المــدارس، والــذين خــدموا النــديم، ومحمــد عبــده، والبارودي هـم الثـوار العرابيـون، والحركـة الوطنيـة، والصحف هي التي خدمت سعد زغلـول، وقاسـم أمـين، ومحمد عبده ... أي أن المنابر كانـت تنقـل رأي الكاتـب للجمهور.

لابد من أن يكون هـذا التفاعـل وسـيطًا حـافزا، هذا الوسيط ... الحزب أو القيادة أو الصـحافة، يبـدو أنـه على نفس درجة أهمية الكتابة ذاتها. أنـا أعتقـد أن العيـب

الأساسي في هذه المسألة، هو وجـود خلـل فـي الوسـائط بين الكاتب والجمهور، ولكي تحقق الكتابـة تأثيرهـا لابـد أن تستجيب الكتابة للحظة التاريخية التـي تتحـدث عنهـا، وأن يكون هناك قدر مـن القـوة فـي عـرض الرسـالة، حين يقول طه حسين " التعليم كالماء والهـواء " غيـر مـا يقولها كاتب فـي صـحيفة سـيارة ... أقصـد أن تكـون الكلمة مهمة وصادرة عن إنسان لـه أهميتـه ومصـداقيته لدى الناس، وأن يكـون هنـاك ذلـك الوسـيط الطبيعـي للتفاعل بـين الكاتـب والجمهـور، وأن يكـون الجمهـور مهيأ لتقبل هذه الرسالة.

*** حدثني عن موقفـك السياسـي، وكيـف تـرى العلاقة بين الكاتب والسياسة؟**

– في حياتي لم أنخـرط فـي أي عمـل سياسـي، ولا انتميت لحـزب أبـدا، لكـن العلاقـة بـين السياسـة والكتابة علاقة مباشرة ... أي نـوع مـن أنـواع الكتابـة، لأن السياسة في نهاية الأمر هي فـن تنظـيم الحيـاة فـي المجتمع، وللكتابة رأى في هـذا الشـأن ... شـأن تنظـيم الحياة، ولذلك لم يخطئ الرقبـاء، ولا الساسـة منـذ قـديم

العهد، عندما نظروا للكتابة نظرة الريبة والشك، وعندما أرغموا سقراط على الموت، وعندما صادروا الكتب ؛ لأنهم يدركون تماما أن الكتابة تؤثر على مسعاهم لتنظيم المجتمع على النحو الذي يريدون.

هم يريدون من الكاتب – دائما – إما أن ينحاز إليهم، أو – على الأقل – أن يكون محايدا، لا إلى يمين أو يسار، وهذا الكاتب لا قيمة ولا وجود له، مثله مثل كاتب السلطة، والناس بحسها الفطري، تعرف الكاتب الموظف من الكاتب الفارس الذي يقول رأيه بحرية، وليس بالضرورة أن يكون معاديا أو مخالفًا. هذا الكاتب حتى، إذا لم يتطرق للسياسة مباشرة. فإن لكتابته أهميتها وتأثيرها في المجتمع الذي يعيش فيه، وبالتالي يصبح في موقف الرفض من السلطة، إن لم يكن في موضع الحرب!

*** باختصار لماذا تكتب؟**

– أكتب لأنني تعلمت منذ الصغر أن الكتابة هي أشرف. يسكت طويلاً ويستأنف: هي أشرف مسعى لإصلاح أحوال المجتمع والبشر.

*** الناقد والكاتب بـداخلك، كيـف تكـون العلاقـة بينهما أثناء العمل؟**

– علاقة مرة، لأنني بعـد الكتابـة أعيـد صـياغة ما كتبت مرة واثنتين وعشرة، وهذا الناقـد رغـم ذلـك، لا يرضى حتى عـن الصـيغة العاشـرة التـي أدفـع بهـا للمطبعة، هذا الرقيب الداخلي يفسد على حياتي.

*** هل تجمع ملاحظات ما قبل الكتابة؟**

– أثناء الكتابـة أحيانًـا ؛ لأننـي لا أقـرر سـلفًا تجاه العمل، وأحيانًا أشعر بالرغبة فـي قـراءة موضـوع معين أثناء الكتابة، ولأنني لا أكتـب أعمـالاً تسـجيلية أو توثيقية إلا فيما ندر، فأنا لا أحتاج إلى جمع بيانات.

*** " عندما أفشـل فـي أن أكـون واضـحا، فـإن عالمي كله ينهار " ستندال ... مـا رأيـك فـي الغمـوض والكتابة الغامضة؟**

– ليس كل وضـوح مسـتحبا، ولا كـل غمـوض مستحبا، والعكس صـحيح. درجـة معينـة مـن درجـات الغموض، تدفعك إلى التأمل وإلى الرغبـة فـي استكشـاف العالم الذي حجب عنك الكاتـب بعضـا مـن تفاصـيله ...

مثلاً حين تقرأ روايات كافكا، ستشـعر بالرغبـة الشـديدة في أن تستكشف ما وراء هذا العالم. إذن فـي كـل كتابـة حقيقية درجة في الشفافية والوضـوح، وفيهـا درجـة مـن الغيم ... في كل كتابة حقيقية، والقـارئ – أتحـدث عـن نفـس علـى الأقـل – تسـتهويه هاتـان الـدرجتان مـن الوضوح والغمـوض أثنـاء القـراءة ولا يفصـل بينهمـا، لكن الأعمال التي تقصـد إلـى الغمـوض قصـدا، وإلـى التعمية تحديدا، هذه الأعمال أنا لا أحبهـا علـى الإطـلاق ولا أشعر بالرغبة في قراءتها أو فك طلاسمها!

*** الحياة بدون الفن، كيف تتصورها؟**

– تكون الحياة تعيسة جدا، فمـا الإنسـان – علـى رأي شكسبير – إذا كان كـل مـع يعملـه هـو أن يأكـل ويشرب. هو حيوان ولا أكثر.

*** أدب الاعترافـات، خاصـة الجنسـية، هـل يضيف للكتابة؟**

– هذا موضوع مثيـر لأشـد أنـواع الجـدل، أولاً الكتابة الأدبية عموما، موجهـة لجمهـور خـاص، وهـذا الجمهور ليس ساذجا أو يسـعى وراء الكتابـة الفضـائحية،

إنما هو جمهور يسعى إلى فهم الإنسان بكل مكوناته بما فيها ذلك المكون الجنسي ... اقرأ دواوين الشعراء العظام المتنبي، أبي تمام، أبي نواس، ستجد أشياء عن الجنس فظيعة، الكاتب يعلم أنه يخاطب جمهورا ناضجا، تبدأ المأساة عندما تفسد العلاقة بين القارئ والكاتب، بتدخل هؤلاء الرقباء والوعاظ الأخلاقيين الذين لا يعرفون أن رسالة الأدب هي كشف جوهر النفس الإنسانية، وأن الجنس هو جزء من جوهر هذه النفس، وأن الكاتب الذي يشعر أنه عثر على كشف ما، في هذا المجال عليه أن يقدمه للجمهور. لم يشعر الجاحظ بتحرج حين كتب عن الجنس، ولم يشعر الفقيه ابن حزم زعيم الظاهرية، حين كتب لا عن الحب والعشق فحسب، بل عن الجنس المثلى، في كتابه " طوق الحمامة "، لم يشعر بالحرج.

من المؤكد أن ابن حزم كان يعلم أنه يخاطب جمهورا ناضجا لا جمهورا يبحث عن الإثارة، أنا لا أرى أي غضاضة أن يكتب كاتب عن الجنس، إذا كان ذلك داخلاً في صلب موضوعه، وأن يقدم لنا ما اكتشفه

عن هذا الجانب الإنسـاني البـالغ الأهميـة، وإن تعـامي البعض عنه أو تظاهر بالعفة.

*** أليس هناك حدود؟**

– ألا يكون الهدف من الكتابـة هـو الإثـارة، وأن يكون التعبير عن الجـنس أمـرا ضـروريا فنيـا، ثـم ألا يكون هذا العمل موجها إلى جمهور قاصر.

*** متى ينتهي الكاتب؟**

– إذا لم يعد لديه جديد يقدمه.

* * *

" الدنيا ... قصص وروايات "

*** كلمني عن لحظات الإبداع، وماذا تمثل لك؟**

– لو عرفت الإجابة عـن هـذا السـؤال لانتهـت كل مشاكلي في الحياة. أنا لا أعـرف متـى تـأتيني هـذه اللحظات، ولا متى تغـادرني. مـا يحـدث أنني أحـس أحيانًا أن لدي الرغبة في الكتابـة، وأن تفاصـيل الوجـود تحت يدي ... ذكرياتي وما أراه أو أسـمعه، أحـس أنهـا تأتي، وأحيانًا لا تأتي هذه اللحظات مهمـا تعمـدتها، مهمـا جلست على المكتـب، وتعمـدت أن أكتـب، فمصـير مـا أكتبه وقتها هو سلة المهملات ؛ ولذلك لـم أكـن كاذبـا ولا مدعيا عندما قلت: إن القصص هي التـي تكتبنـي، لا أنـا الذي أكتبها.

*** وكيف تكون أثناء الكتابة؟**

– في حالة صعبة جدا، في حالة معاناة فظيعة.

*** قبـل أن نتحـدث عـن قصصـك ورواياتـك، دعني أسأل عن سـبب عزوفـك، أو بـالأحرى، تـأخرك في نشر أول مجموعة.**

– شبهة تحقيق الذات أثناء العمـل الإذاعـي كـان لها دور، أنا أيضا أتهيب النشر، حتـى قبـل هـذا العمـل، أول عمل لي " مسرحية بلا رجل " نشـرها لـي سـليمان فياض، وقبلها كنت أنشـر مـع صـديقي صـبحي شـفيق أثناء الجامعة في مجلـة اسـمها " المعـرض "، لـم أكـن أوقع موضوعاتي. صدقني أتهيـب النشـر تهيبـا يقـرب من القداسة.

ربما يكون ما نشرته مـن قصـص قصـيرة أقـل من نصف ما كتبته بالفعل وحجبته عن النشـر، لأننـي لـم أرض عنه. على فكرة، أنا لا أنشر أعمـالي بعـد كتابتهـا مباشرة، لكي يتاح لي أن أحكم عليهـا بعـد فتـرة زمنيـة معينة، فإذا وجـدت أن العمـل غيـر مـرض لا أنشـره، أذكر أن قصـة " اللكمـة " كتبتهـا قبـل النشـر بعشـر سنوات، المهم هذا التهيب، وقـد يكـون مرضـا أو عيبـا، جعلني أنشر في وقت متأخر جدا من عمري.

*** هل يمكن أن نمسك معا ببـدء تخلـق جرثومـة الإبداع لديك؟**

– لا أعرف بكل بسـاطة، ولا أسـتطيع أن أحـدد كيف تتكون الجرثومة التـي تسـألني عنهـا، أنـا أجلـس وأكتب حين أكون مهيأ لذلك، وإمـا أن تنسـاب الكتابـة أو تنقطع.

*** فلنقف الآن عند ظروف كتابـة أعمالـك، نبـدأ بـ " الخطوبة ".**

– كنت على مـدى فتـرة طويلـة، أعـاني مـن رحلة تمزق فظيعة، لا أنا مـع الثـورة ولا ضـدها، إذن، من أكون وما موقفي. كانـت الخطوبـة – ربمـا – هـي الخلاص من هذه الازدواجيـة التـي حـدثتك عنهـا قبـل ذلك، من هذا الشلل الفكري الذي أوقعتنا فيـه الثـورة بـين التأييد والمعارضة، بين الحـب والكـره، فـي ظـل هـذا الانقسام كتبت الخطوبة.

* في هذه المجموعة، رغم قنـاع الحيـاد لدرجـة البرودة أحيانًا، تتخفى رغبة عارمـة تـدافع عـن أشـواق الإنسان وأحلامه وحقه في أن يحيا حـرا مريـدا، وثمـة "

فوضى عظيمـة تحـت السـماء " ... نـاس مقهـورون، أشواقهم مكتومـة، وتسـقط الأحـلام – قبـل أن تولـد – ميتة، لا أحد منهم يقوى ثقتنا فـي شـيء، أو يسـمو بنـا فوق أحزان الحياة. فـي حانـة بالليـل تنتهـي الآلام دون رغبة حقيقية في أن يقتص المقهور من قـاهره. قـل لـي: لماذا نعيش؟

– قال متأملاً: هناك كلمـة جميلـة يقولهـا ولـيم فـوكنر فـي " الصـخب والعنـف "، وهـي مـن أجمـل الروايات التي قرأتهـا، رغـم تحفظـاتي الكثيـرة علـى الكاتـب، المهـم فـوكنر فـي مقدمـة الروايـة يعـرض للشخصيات المقهورة ... الزنوج وغيـرهم، يقـول: " هـم يحتملون ". أنا شخصيا أرى أنـه لـيس الاحتمـال وحـده، إنما الاحتمال الإيجابي هو القيمـة العظيمـة فـي الحيـاة، بمعنى، وقلت ذلك كثيـرا فـي معـرض الـرد علـى أن شخصيات " الحب في المنفـى " سـلبية، قلـت: بـالعكس إنها شخصيات في منتهى الإيجابيـة، لأنهـا لـم تستسـلم لحظة رغم إدانتهم لذاتهم ونقـدهم لحيـاتهم، ولكـن حـين كان الفعل مطلوبا لم يترددوا لحظة.

ليس ضروريا أن ينجحوا ... هل الذين يذهبون إلى الحانة تنتهي آلامهم كما قلت أنت، هل هذه الشخصيات سلبية، أليست محاولة للفهم، فهم مصدر هذه الكلمة إلا الاستسلام، أليس ذلك نوعا من المقاومة؟

" حدث ذلك قبيل الظهر. كنت جالسا إلى مكتبي أكتب مذكرة بحالتي الاجتماعية كما أمرني رئيس القلم عندما دخل رجل متوسط الطول، لم أره في حياتي قبل ذلك، انحنى على مكتبي وأخذ يشتمني بهدوء وبصوت رتيب. فتحت فمي لأنطق فلكمني في فكي بعنف، ثم هوي بقبضته على رأسي. شاهدت نقطة من الدم تسقط على السطور التي أكتبها وغامت عيناي من منظر هذه البقعة الحمراء وأطرافها تتشبع بالحبر الأسود ".

تلك هي الواقعة والتداعيات عبثية أيضا، خاصة حين يتحول الموظف " الملكوم " إلى متهم مدان ؛ لأنه لا يعرف صاحب هذه اللكمة العبثية، حتى بعد أن تفرس في ملامحه، ثم إنه بلا أعداء، وذلك مصدر اندهاش واستنكار الضابط الذي حقق في الواقعة،

واندهاش رئيسه في العمـل، وانـدهاش غيـر قليـل مـن الناس في المصلحة وخارجها.

ثانيا عندما يقتنع – بتـأثير مـن إلحـاح النـاس – بضرورة أن يعرف أعداءه، فيجد في البحـث عـنهم قبـل فوات الوقت! لدرجة أن يستدعي كـل المشـاجرات التـي خاضها في حياته، دون جـدوى بـالطبع، لأنهـا مشـاجرة واحدة تافهة، ومن ماض بعيد جدا ... من الطفولة.

ويظل المقهـور فـي حيرتـه، يطـارده سـؤال: " ماذا يدفع رجلاً لا أعرفه إلى أن يضـربني "! هـل يجيبـه أحد؟ يجب عن مـاذا! هـو لا يعـرف المعتـدي أصـلاً، فليس ثمة مبرر لما حدث! لا زمـلاؤه فـي المصـلحة ولا الضباط ولا رفاق الحانة فـي المسـاء، لا أحـد يعـرف، هو نفسه – قبل الجميع – لا يدري – كمـا قلـت – لمـاذا حدث ما حدث؟

هل عليه أن يتلقى – فقـط – باستسـلام ضـربات أو لكمــات بالغــة الألــم معنويــا وماديــا، حتــى دون اعتراض أو دون أن يفهم، مـاذا أقـول: إنهـا مأسـاة، أو بالأحرى ملهاة فادحـة... أن يلقـي مجهـول – لأسـباب

مجهولة – حجرا في حياتك فيقلبها رأسا علـى عقـب، ثـم يمضي!

هكـذا يسـتنطق بهـاء طـاهر ضـمير هـذه الشخصية التي بلا شخصية وبلا اسـم وبـلا حيـاة، بـلا أي شيء أبدا. وليس معنى ذلـك أو مـن أجلـه تفجؤهـا اللكمة! المعنـى أن الروائـي يحرضـنا علـى الإمسـاك بقشرة العبث، ويحركها أمام أعيننـا إيغـالاً فـي القسـوة علـى حياتنـا المعاصـرة التـي ينعـي عليهـا تفاهتهـا وفراغها الملح.

ثـم تكلـم بهـاء طـاهر عـن ظـروف كتابـة مجموعته الثانية " بالأمس حلمت بك " قال:

– في وقت كتابة هذه المجموعـة، كانـت الكتابـة بالنسبة لي بديلاً للانتحار، قلت ذلك أكثـر مـن مـرة، لأن تجربـة الغربـة وخروجـك مـن بلـدك رغمـا عنـك، ووظيفتـك الشـاقة ... كنـت أحـس أن حيـاتي تنتهـي، وربما تكون هذه الحالة هي التي اسـتفزتني. علـى مـدى سنتين كنت مكتئبا وأشـعر بإحبـاط لا حـد لـه. كانـت الحياة عبثية إلى أبعد الحدود، ولم ينقذني سوى الكتابة.

– في وقت كتابة هذه المجموعـة، كانـت الكتابـة بالنسبة لي بديلاً للانتحار، قلت ذلك أكثـر مـن مـرة، أن تجربـة الغربـة وخروجـك مـن بلـدك رغمـا عنـك، ووظيفتـك الشـاقة ... كنـت أحـس أن حيـاتي تنتهـي، وربما تكون هذه الحالة هي التي اسـتفزتني. علـى مـدى سنتين مكتئبا وأشعر بالإحباط لا حـد لـه. كانـت الحيـاة عبثية إلى أبعد الحدود، ولم ينقذني سوى الكتابة.

ولكنك نسـيت أن " شـرق النيـل " أسـبق مـن " بالأمس حلمت بك " لأننـي كتبـت شـروق النخيـل فـي السبعينيات.

*** بالمناسبة لماذا سميتها " لو نموت معا "؟**

– الذي سماها كذلك هو الأسـتاذ لـويس جـريس صاحب الفضل في نشـر هـذه الروايـة، عنـدما نشـرها مسلسلة في مجلة صباح الخيـر، ودار المسـتقبل العربـي طبعتها بهذا الاسم، لاعتقادها أن " لو نمـوت معـا " جـزء من العنوان: " شرق النخيل " كتبتها مـن صـورة حكتهـا لي أمي عـن الأب والابـن الـذين اخترقهمـا الرصـاص

فماتا معا. أظن أنني انتهيت منها فـي عـام ١٩٧٩ م، قبـل سفري إلى الخارج، ولكن كان مستحيلاً نشرها.

*** لماذا؟**

قلت لك: إنني كنت ممنوعا مـن النشـر، وبمـا أن الأمور في بلـدنا تسـتمر بشـكل تلقـائي، اسـتمر هـذا الحظر، حتى بعد رحيل السـادات، وبعـدها بعـامين قـال لي لويس جريس: دعنا ننشر ونر مـا يمكـن أن يحـدث، ولم يحدث شيء حـين نشـرت مسلسـلة عـام ١٩٨٣ م، بعدها نشرت بالأمس حلمت بك.

*** " بـالأمس حلمــت بــك، ســندس، النافــذة، فنجان القهـوة، نصـيحة مـن شـاب عاقـل " قصـص تختصر الحياة فيهـا مفـردات العبـث، الانتمـاء. مـثلاً لماذا انتحرت آن مـاري، ومـاذا كانـت تريـد، والبـائع العجوز القواد، وهو يموت – هـل تـذكر – كـان يشـهر بطاقة هويته، وكان صقر يضرب بجناحيـه فـي فضـائك وأنت تمد يديك، كنت تمدهم لمـن. هـل كنـت تحلـم أن يكون العالم غير ما هـو. هـذا العبـث فـي عالمـك مـا مداه؟**

– أولاً، لكل شخصية من هـؤلاء ظروفهـا، وكـل شخصية ليست تكرارا لشخصـية أخـرى أو شـبيهة بهـا، لو كان هناك شبه ما سأعتبر أنني فشلت، ثمـة عـالم لكـل منها مختلف، أما الراوي، لا أنا، فكـان يمـد يـده للـوطن طبعا، إنه شخص مغترب يمد يده للصـقر رمـز الـوطن، يمدها لحورس.

إلى هنا انتهى من كلامـه، أو هكـذا خيـل لـي، لكنه قال مستفهما ... سؤالك طويل أوي، قلـه لـي مـرة ثانية، **فذكرته بالعبث في عالمه، كنـت أسـأل عـن مـداه وعن حلم أن يكون العالم غير ما هو، قال**:

– هذا العبث هو التحـدي الـذي يواجـه الـدكتور فريد في أنا الملـك جئـت، وإبـراهيم، والـراوي فـي " الحب في المنفى "، هذا اللا معنـى يحـاولون أن يحولـوه إلى معنى، يحاولون أن يغيروا العالم.

*** أنا الملك جئت.**

– كانت ظروف كتابتها غريبة جـدا. هبـت علـى جنيف وقتها عاصفة لم يسـبق بهـا مثيـل منـذ عشـرات السنين، فحولتها إلـى كتلـة بيضـاء، كـان الـثلج علـى

البيـــوت وفـــي الشـــوارع، وانقطعـــت المواصـــلات والكهرباء. كانت جنيف ميتة، ولكن لم ينقطـع العمـل فـي الأمم المتحدة، فكنـت فـي مكتبـي وحـين نظـرت مـن الشباك على جنينة الأمم المتحدة الجميلـة، فجـأة – لسـبب لا أدريه – استحضر الثلج في ذهنـى صـورة الصـحراء. هذا البيـاض الشـامل، جـاء بصـفرة الصـحراء التـي أعرفها جيدا من ترددي على بيـت أختـي فـي الصـعيد، وكان ملاصقًا للصحراء، على فكرة هذا هـو البيـت الـذي وصفته في " خالتي صفية "، كان بـدء الصـحراء. المهـم أن الصحراء جزء من تكويني، ودائما أتأملهـا. مـا حـدث أنني وجدت عبارة " في خريـف ١٩٣٢ م قـرر الـدكتور فريد الخـروج للصـحراء ... " وجـدتها تكتـب نفسـها وانسابت الكلمات بعدها.

أذكر – بهذه المناسبة – شـيئًا مـذهلاً لـم يحـدث لي في عمري، كنت أكتب هـذه القصـة وأنـا أرتجـف، ورجعت إلى البيت وانتهيت من كتابتهـا فـي ثلاثـة أيـام وهذا شيء نادر أيضا ؛ لأنني أكتـب القصـة عـادة فـي شهور، إن لم يكن في سنين! " أنا الملـك جئـت " انتهـت

في هذه المدة، وكأن إملاء كان يملي كتابتها على. ما أسعدني جدا أن صديقًا لي في جنيف اسمه " درويش مصطفى " تطوع وكتبها على الآلة الكاتبة، قال لي: وأنا أكتب الفقرات الأخيرة فيها كنت أرتعش! لكن للأسف لم تنل هذه القصة إعجاب الناس، أحبها المثقفون فقط.

*** وما ظروف نشرها في كتاب؟**

– سليمان فياض أيضا هو السبب، جمع قصص المجموعة من مجلة " إبداع " التي كان سكرتيرا لتحريرها، ونشرها دون علمي في مختارات فصول. كدت حين عرفت أن أخاصمه، لولا أنني تذكرت فضله على، سليمان كان أول من نشر لي شيئًا.

*** " ... ولما تفرق الذين اجتمعوا حولي، ولما وجدت نفسي وحيدا اكتملات في تمامي، ولما كنت أنت إلهي وأنا صفيك، أنت النور وأنا صدى النور ... أتملى في ذاتي فأراك وأتملى فيك فأراني، فإني بعيدا عن الآحاد جئت لنكون واحدا أنا وأنت. الآن ولم يبق**

وقت وبقى الأبـد. الآن أناجيـك فتعرفنـي، أدون سـري بعيدا عن الأعـين لعينـك أنـت فتعرفنـي، أتطلـع إلـى قرصك اللامـع الـذي يرقـب مـن السـماء كـل شـيء وأنقش على الصخر سري: أني حزين ".

قل لي يا أستاذ بها: هل يجـب – حقًـا – أن نفقـد أنفسنا لنجدها، هل وجـد فريـد شـيئًا فـي رحلـة بحثـه المضنية، هل ثمة ما يدعو الإنسـان لتفـاؤل حقيقـي فـي هذا العالم.

– سؤال صعب في الحقيقـة، صـعب جـدا، أنـا قلت لك: إن فريد أحـب الشخصـيات إلـى قلبـي، لأنـه ووجه باللا معنى، وفي لحظـة مـن اللحظـات استسـلم، ولكنه حاول أن يجد المعنى. كانت رحلتـه فـي الصـحراء بحثًا عن هذا.

*** هـل مـن الضـروري أن نفقـد أنفسـنا كمـا يقولون كي نجدها؟**

– أتمنـى ألا يكـون الأمـر كـذلك، ولكـن فـي تجارب كبيرة يكون هذا هو الحال.

*** أليس ثمة شيء يدعو للتفاؤل؟**

- كيف ... كل ما فـي الحيـاة يـدعو للتفـاؤل، بمعنى أن الفهم هو المدخل للتفاؤل، لكـن العبـث الحقيقـي هو الاستسلام للعبث.

*** اسمح لي أن أعـود إلـى " شـرق النخيـل ". قلت: إن فكرة الفداء كانت محـور هـذه الروايـة، الابـن الذي حكت لك أمـك عـن افتدائـه لأبيـه، وماتـا معـا. والطلبــة الــذين ضــربوا فــي عــام ١٩٧٢م، وهــم يتظاهرون، رأيت فيهم نفس الصـورة " صـورة الفـداء". من نفتديه الآن؟**

الابن وجد أبا يفتديه، لكـن ألـيس بشـعا ألا تجـد وطنًا.

- لماذا، الوطن موجود في كـل لحظـة ويسـتحق الفداء.

حتى لو كان قامعا أو مستبدا؟

الوطن لا يكون مستبدا، إنمـا الحكـام هـم الـذين يستبدون.

وأنا أتحدث عنهم:

– هذا شيء آخر.

إذن قل لي كيف تفهم " الوطن "؟

– الوطن هو الناس، الـذين نعـيش معهـم علـى أرض نعمرها معا.

وصلت لـنفس النتيجـة ... بـلادي وإن جـارت على عزيزة.

– بكل تأكيـد، ولكـن دعنـي أسـألك أنـا هـذه المرة... هل بلادك تجور عليك؟

– كل يوم.

– لا يمكـن، نـاس بلـدك هـم الـذين يجـورون عليك، وهم إذا جاروا عليك إنما يجـورون علـى بلادهـم في المقـام الأول. أوعـى تفتكـر أن حـب الـوطن هـو الأغاني التي تـذاع فـي الإذاعـة والتليفزيـون، لا، إنـه شيء آخر مختلف.

*** " قالت ضحى ":**

– كتبت في نفس الوقت تقريبـا مـع " أنـا الملـك جئت " ... يصـمت قبـل أن يقـول بتـأثر: كنـت أمـر

بظروف صعبة للغاية، بعد وفاة والـدتي، بـالأمس حلمـت بك، وهذه الرواية، كانت بعـد وفاتهـا رحمهـا الله. كنـت حزينًاحزنا خاصا لا أستطيع التعبير عنـه، لـذلك أظـن أن روح الحزن منعكسة فـي هـذين العملـين، فضـلاً عـن سؤال كان يلـح علـى بشـدة ... لمـاذا فشـلت تجربـة الستينيات؟ مع أنها تجربة كانت مليئـة بـالوعود، فانتهـت إلى الألم. أنا لم أجعل من ضحى – كمـا قـال الـبعض – مرادفــة لمصــر أو رمــزا لهــا، ولا الكاتــب، رمــزا للمثقفين، إنهـا شخصـيات مـن لحـم ودم عاشـت هـذه الفترة، ماذا حدث لها، ولم انتهت هـذه النهايـة الحزينـة! لماذا البطل وصديقه حـاتم وكـل الثـوريين انتهـوا هـذه النهاية! كانت الرواية محاولة للإجابة عن هذا السؤال؟

*** في الراوية تبدو كأنك تبحـث عـن لؤلـؤة المسـتحيل، أو تريد أن تبعث شيئًا من مـاض بعيـد، مـاض شـكلته كلمة البعـث. وفـي منتصـف الروايـة جئـت بضـحى/ ايسيت متوحدة مع أوسير، جئـت بهمـا إلـى بلـد ميـت قتله الفساد والإحباط والشعارات.**

قل لي يا عمنا، هل وجدت – هنـا – حـلاً لـ " مرض العدل " ولمـرض الحـب، وللظـلم " ذلـك الـنجم البعيد الذي لم يسمه أحد "!

– ولماذا نسيت سيد وقـد واجـه نفـس الظـروف التي واجهتهـا ضـحى وواجههـا الـراوي، ورفـض أن يسقط. ثم هـل شخصـية سـيد – كمـا قـال العـبض – شخصية كاذبة، أنا رأيـت فـي السـتينيات بالفعـل، هـذا الساعي الذي علم نفسه بنفسه، كـان اسـمه عبـد الجـواد، رأيته بعيني، كان فعلاً فـي الاتحـاد الاشـتراكي، وكـان يحارب الفساد في عمله، طبعـا لا أعـرف مصـيره الآن، لكن لماذا بمجرد مـا يجـد النقـد شخصـية لهـا موقـف إيجابي يقول: دي شخصية مصنوعة! ألا يـدل هـذا علـى أن نقادنا شديدو اليأس، بل أشد يأسا من كل الكتاب.

أشد يأسا من كل الكتـاب، قالهـا وهـو يضـحك، أما أنا فكنت في منطقة أخـرى، كنـت سـارحا – لا أدري لماذا – في بهاء طـاهر ... جنبـي علـى الكنبـة، وقـد تكومت السنوات على وجهـه ... غضـونًا بطـول الخـد،

وكرمشة في الرقبة، وفي عينيه هـم، بـدا لـي أنـه هـم مقيم.

كنت أقول لنفسي عنه: هل حقًـا " خـدمت عينـاي قلبي "؟ ها هو معي وقد عايشته، ثم إننـي أريـد – بقسـوة – أن أفهمه، وللحقيقة أوجـه متعـددة ... وعـرة وبعيـدة غالبا، كيف أصـل إليـه ... إلـى حقيقتـه بمعـزل عـن إغواء المحبـة وكـلام النـاس. هـل أسـأله مباشـرة ... فليكن، قلـت لـه: هـل يضـايقك أن أناقشـك فـي أمـر حساس؟

– قل بلا حساسيات.

*** يقولون: إن لك ظاهرًا غير الباطن.**

– بمعنى ... هل أكذب مثلاً؟

*** أقصد ... هل أنت نبيل فعلاً.**

– أنا، إذا كنت أعتـز بشـيء فـي هـذه الـدنيا، أعتز بأنني لا أكذب، وما أحس به أعبر عنه.

*** هل أضايقك؟**

– لا، قل ما في نفسك.

*** ليست هناك ازدواجية في حياة بهاء طاهر بين سلوكه وفكره؟**

– في هـذه الجزئيـة بالـذات أنـا أبـرئ نفسـي تماما، أنا لا أدافع، ولكني بالفعل، كـان هـدف حيـاتي أن أفعل ما أقول، ولا أظن أنـي خنـت مـا عاهـدت عليـه نفسي، واخد بالك.

قال ذلك وهو يضـغط علـى مخـارج الحـروف، وكان صوته متأثرا ومهتـزا مـع اهتـزازه رأسـه إلـى أسفل وتلويح يده اليمني علامة على النفي قاطعه.

واخد بالك. كذلك يقول حـين يريـد التأكيـد علـى شيء.

سألته لأريحـه وأريـح نفسـي ... ببسـاطة أنـت فعلاً كويس، قال:

– أنا معذب.

قالها مسـتريحا وضـحك. السـؤال ... لنفسـي: هل استرحت، أو عرفت حقيقة بهاء طاهر!

في المقدمة – التي لـم أكتبهـا بعـد – سـأحاول لآخر مرة، أن أطبق اعتقادي المـزمن ... إن كـل إنسـان مرتهن بضروراته، وليس من حق أحـد أن يحـاكم أحـدا.

فقط عليه أن يبحث – صادقًا – عـن الحقيقـة، الحقيقـة... سأحاول.

أعود إلى السياق وأسـأله عـن ظـروف " خـالتي صفية والدير "، ظـروف كتابتهـا فيضـحك ويقـول بعـد تأمل قصير:

– كتبتها بين جنيف وسـيراليون والقـاهرة. أذكـر أن الفصل الأخير كتبتـه فـي فنـدق شـيراتون المطـار. كنــت أتأمــل، لــيس فقــط العلاقــة بــين المســلمين والمسيحيين، وإنما العلاقة بالآخر المختلـف بوجـه عـام، فضلاً عن صور الصعيد التي كانت تطـاردني. هـذه هـي الحالة الروائية. كنت في حالـة كتابـة وقتهـا، واللحظـات التي زرت فيها الصعيد كانت تتلبسني، وقـد سـئلت عـن ذلك، قلت: يبدو انـه – مـع الشـيخوخة – تتضـح أكثـر صور الطفولة في ذهن الإنسان.

*** أما زلت تتساءل: " لمـاذا أحبـت صـفية بعـد حبها الأول الجميل ذلك الرجـل الـذي يبلـغ أكثـر مـن ثلاثـة أضـعاف عمرهـا ". أسـتاذ بهـاء، هـل يخـون الإنسـان نفسـه، عنـدما يتخلـى – باختيـاره – عمـن**

يحب، هل يتسع قلب واحد للحـب والكـره معـا، للرغبـة والانتقام، أم تتسع الأسطورة.

– هذا حكـم أخلاقـي، وأنـا لا أصـدر أحكامـا أخلاقية على شخصياتي، أنت تسـألني إذا الإنسـان خـان نفسه هل يضيع. نعم، هل صـفية عنـدما خانـت قلبهـا، وقبلت الزواج من القنصل العجوز، بل تفانـت فـي حبـه بمعنى معين من معاني الحب. نعـم هـي دمـرت نفسـها بهذا القرار طبعا. إنما هـذا القـرار مـن وجهـة نظرهـا ومن حكمها على الأشياء كـان مبـررا مـن شـعورها. لا تنس أنها شخصية مندفعة العاطفة.

*** الحب في المنفى.**

– لهذه الروايـة قصـة طويلـة، فقـد اسـتغرقت كتابتها عشر سنوات أو أكثر، ولكن لم أكـن أكتـب بشـكل دائم. بدأت فيها بعد " صابرا وشـاتيلا "، كنـت مهـزوزا بعنف ومـنفعلاً مـن هـذه المـذابح ولكنـي قلـت: مـن الافتعال أن أكتب عن تجربة لـم أشـاهدها ولـم أشـارك فيها، فتوقفت وبقي بداخلي – رغـم ذلـك – شـيء يلـح على أن أكتب لأسدد الدين نحـو هـؤلاء الشـهداء، كتبـت

في هذه الأثناء " أنا الملك جئـت "، و " قالـت ضـحى "، و " خالتي صفية ". وبقيت " الحب في المنفى ".

إذن يمكنك أن تكتب عملين في وقت واحد.

– وثلاثة ... يضـحك ويواصـل: ظللـت أعـود إليها أنظر فيهـا وأتركهـا وهكـذا، كنـت قطعـت فـي منتصف عام ١٩٨٤م، حوالي سبعة فصـول منهـا، فقـال لي صديقي العزيز مكـرم محمـد أحمـد: هـات حاجـة ننشرها، وأخذ هذه الرواية رغم أنهـا لـم تكتمـل، قـال: سأنشر سواء أكملـت أو لا، قلـت لـه: إزاي! قـال لـي: سأكتب إلى هنا ينتهي الجزء الأول مـن الروايـة، وأنـت أكمل براحتك.

استفزتني الحكاية دي، فكنـت أكتـب فيهـا وهـي ما زالت تنشر. هكذا كتبت فصولها الباقية.

*** لماذا يتحتم على الحـب – دائمـا – أن يفشـل، أن يمـوت عنـدك، بـأي منطـق يلتقـي الحـب ... أي التواصل، بالمنفى الذي هو القطيعـة، ثـم يكـون المنفـى مصـيرا نهائيـا لهـذا التواصـل ... للنـاس وأحلامهـم ومشروعاتهم ومستقبلهم.**

باختصار ماذا يريد منا العالم؟

- هذا حكم نقدي مركب، ولو كانت الأمور بمثل هذا الوضوح في ذهني، ما كنت كتبت كلمة واحدة ... **يضحك وأضحك معه وأقول:**

إذن ماذا يريد منا العالم ...؟ هذا سؤال غير مركب وملح في " الحب في المنفى ".

- العالم يفرض علينا تحديات في كل ثانية، وإما أن ننهزم، وإما أن نواصل. عبر عن هذه الحكاية شخصية من شخصيات " محاورة الجبل " حين قال: الحياة صفعة ممتدة من لحظة الميلاد إلى القبر. طبعا هذا تعبير جارح وغير صحيح. الحياة ليست صفعة، الحياة تحد ممتد من لحظة الميلاد إلى لحظة الموت، إذا لم نستطع مواجهة هذا التحدي المتغير يوميا، سنضيع بالفعل. كنت تسألني كيف نجد أنفسها. بأن نقبل هذا التحدي.

ليس مفروضا في الإنسان أن يكون – في كل لحظة – قويا وقادرا على التصرف والفعل. إنما على الأقل، أن يكون مجمل حياته هو قبول هذا التحدي

ومواجهته. يمكن فـي لحظـة يضـعف، يمكـن يعجـز، ولكن إذا كان هذا هـو منهجـه طـوال الحيـاة. خـلاص يبقى ضاع، ولكن لحسن الحـظ أن هـذه ليسـت الحقيقـة. لحسن الحظ أن البشر عامة يقبلون هذا التحدي.

*** ذهبت إلى شلال.**

ذهبت إلـى شـلال فيهـا قصـص مكتوبـة فـي مراحل مختلفة من العمر. كتبت أطـلال البحـر، وذهبـت إلى شلال هنا. والباقي كتبته فـي جنيـف، أطـلال البحـر كتبتها في الإسكندرية التي أحبها جـدا. جـاءتني صـورة واحد – ليس أنا – غاب عـن الإسـكندرية طـويلاً، والآن قد عاد إليها، فماذا تكون انطباعاته.

*** " معك لا أحتاج إلى سـواك، لا إلـى بشـر ولا إلى أشياء ".**

عندما نحب، ماذا يحدث فينـا، هـل نـدخل قلـب الأشياء ... روح العالم، هل نذوب فـي الكـوب ونعـانق الأبد.

– أنا أظن أن الحـب تجربـة كاملـة، حتـى لـو حكمت من منطلق حياتي أنا الخاص. نعـم الحـب يجعـل

الإنسان – على حد تعبيرك – يعـانق روح العـالم. الحـب فعلاً هو الذي يصنع ذلـك، ولـذلك أشـعر بحـزن شـديد عندما يقول لي أحد الناس: إنه لم يحب.

*** أو أحب وفشل.**

– أحب وفشـل هـذا هـو الطبيعـي، ولكـن لـم يجرب الحـب الحقيقـي أصـلاً!! هـذه كارثـة. (هـذه كارثة، شعرت أنه يريد قولها، فكتبتها من عندي).

*** شخصيات أعمالك، مـا موقعهـا بـين الواقـع والخيال.**

– كلها خيالية، لا توجد عنـدى شخصـية مسـتمدة من الواقع، ولكنني كما ذكرت في مقدمـة " خـالتي صـفية " أن جنين الخيال هو الواقع. لا أحد يخلق شخصيات.

*** ما الفرق بين القصة القصـيرة والروايـة مـن واقع تجربتك، وفي أيهما تجد نفسك أكثر؟**

قلت لـك: لا أنـا ولا أي كاتـب نختـار الشـكل الذي نكتب فيه، سواء أكانـت قصـة قصـيرة أو روايـة. الشكل هو الذي يملي عليـك. أظنـك تعـرف أن " خـالتي صفية " كانت قصـة قصـيرة أساسـها المقـدس بشـاي.

وكان المفروض أن صفية شخصية ثانوية جدا، ثم إذا بها تظهر وتفرض نفسها على العمل، فأعدت النظر، الخلاصة أن الكاتب لا يختار، وإنما التجربة هي التي تحدد شكل العمل.

* **وما الفرق بينهما؟**

– القصة لحظة شديدة التكثيف، يتضح فيها توجهك نحو هدف معين، إنما في الرواية هناك عالم متشابك. هذا التشابك لا يوجد في القصة، وإن كنت أعتقد أن كتابة القصة أصعب بكثير من كتابة الرواية.

* **وفي أيهما تجد نفسك أكثر.**

– لا أحب هذه المفاضلة. أنا أحب القصة والرواية على حد سواء.

* **ألم تفكر في كتابة رواية تاريخية.**

– حاليا أفكر، لكن لم يحدث قبل ذلك، وإن كنت أعتقد أن كل رواياتي تاريخية، قالت ضحى، الحب في المنفى ... الخ، لأن التاريخ شيء حي ممتد في حياتنا الحالية، هكذا أفهم التاريخ.

*** الرواية، ماذا أضافت للقرن العشرين؟**

– لا أستطيع أن أعطي حكما عامـا، إنمـا دعنـي أعبر عن تجربتي كقارئ ... الرواية هـي التـي أفهمتنـي الحياة، أكثر مما فهمتهـا مـن خـلال كتـب التـاريخ أو السياسة أو الاجتماع.

عندما تقرأ عملاً روائيا فأنت تـدخل فـي صـميم عالم يتجاوز السياسـة والاجتمـاع إلـى جـوهر وعمـق الأشياء جميعا. أنا فهمت القـرن العشـرين مـن روايـات أندريه مالرو، وسارتر ونجيب محفوظ وغيرهم.

*** هذا العصر، هل هو فعلاً عصر الراوية؟**

– وعصر الشعر والمسرح. هـذه المفاضـلة بـين الأشكال الأدبية مفاضلة عبثية لا تقدم ولا تؤخر.

*** كتابتك وحياتك، ما مدى التشابه بينهما، يقولون: إن بكل عمل من أعمالك شيئًا من حياتك.**

– ليس صحيحا على الإطلاق، أو صحيح جدا.

بمعنى ...

– ليس صـحيحا بمعنـى أن أعمـالي لا تتضـمن أبدا تفاصيل من حياتي الخاصة، ليس هنـاك عمـل منهـا

به اعترافات ذاتية. وصـحيح جـدا أن كـل كتابـة هـي تعبير عن محصلة تجاربك الخاصـة ... كيـف اسـتوعبت العالم من حولك، والأشخاص الـذين نلتقـي بهـم، وكيـف تعبر عن ذلك؟

*** قالت: إن بيئـة أعمالـك معاديـة ومستعصـية على التغيير ... ماذا تقصد؟**

– أقصد أنه على مدى سـنوات عمـري شـاهدت – في بدء تجربة الكتابة ٠- تألق الكتابـة كوسـيلة لتغييـر الحياة. دعني أضرب لك أمثلـة ... مسـعى طـه حسـين لنشر التعليم، مقالات إحسان عبد القـدوس حـول الأسـلحة الفاسدة، كتابات أحمد بهاء الدين البـاكرة مثـل ... " أيـام لها تاريخ " وغيرهم. أقصد الكتابة التـي كانـت تسـتهدف إحداث تغيير في المجتمع، ونجحـت فـي أحيـان كثيـرة، أنا شاهدت تـألق الكلمـة وتأثيرهـا والاهتمـام بهـا، ثـم شاهدت بعد ذلك تضاؤل هذا التأثير، وتحـول الكلمـة إلـى زينة ومدح أو هجـاء للسـلطة إلـى أن أصـبحت الثقافـة على هامش المجتمع. تحدثت عن ذلـك عنـدما قلـت: إن الأزمة الحقيقية التي نعيشـها الآن، هـي تهمـيش الثقافـة

ودورها في المجتمع. قلت ذلك فـي " أبنـاء رفاعـة " ... فصـول " الاسـتغناء عـن الثقافـة "، و " الثـورة علـى المثقفين"، و " ضد التغريب وضد التتريـك ". أنـا أعتقـد أنني – في هذه الفصول الثلاثة – حاولـت أن أضـع يـدي على ذلك التحول في دور الكلمـة فـي المجتمـع. وحـين أقول لك: إن هذا مـن أهـم أسـباب أزمتنـا كمجتمـع، لا تعتقد أني أبالغ على الإطلاق، لأنـه تـرادف مـع إقصـاء المثقف والاستغناء عنه بالضبط، وكنتيجـة حتميـة، بـروز وصعود الفكر المتطرف والفكـر الخرافـي والفكـر الـذي حاولت الثقافة الحقيقية أن تغيره.

من هنا كانـت بيئـة أعمـالي مستعصـية علـى التغيير؛ لأن ما يحدث التغيير في البيئـة أن تكـون هنـاك طليعة تحدث ذلك التغيير. هذه الطليعـة ضـربت بالحـذاء ونفيت وسجنت. من أين يأتي التغيير إذن.

*** أبطال أعمالك متهمـون دائمـا بالسـلبية. مـا تعليقك؟**

ليس من وظيفة الكاتب أن يجمـل الواقـع، ولـيس من وظيفته أن يغير من طبائع الشخصـيات فـي المجتمـع

الذي يعيشـه، ولكـن هـل حقيقـة أن الشخصـيات التـي صورتها شخصيات سـلبية قاعـدة عـن الفعـل، أم هـي شخصيات تحاول أن تفعل فتقمع.

*** في أعمالك تعود إلـى تـاريخ مصـر القـديم، أيضا إلى تاريخها المعاصـر. عـم تبحـث بالضـبط!** ... **سألت، وأجاب الأستاذ بيقين:**

– أبحث عن الفهم، لأننـي لا أعتقـد أن التـاريخ شيء ميت كما قلـت لـك. إنـه ممتـد فينـا حتـى هـذه اللحظة، أذكر أن أمـي – رحمهـا الله – لـم تكـن تعـد الشهور فتقول: فبراير، مارس، إبريـل، لا، كانـت تقـول: بشنس، وكيـاك ... إلـى آخـره. تاريخنـا هـو التـاريخ الفرعـوني، القبطـي، الإسـلامي، نحـن محصـلة هـذه التجارب الكثيرة التي مرت على سكان هـذا الجـزء مـن الأرض. وأعتقـد أن شخصـية ايسـيت لـم تطلـع ميتـة عندما تقمصتها ضحى. ايسيت تجسـدت كإنسـانة تمشـي في الشوارع ؛ لذلك أعتقد أننا نمارس التاريخ كل يوم.

*** الحماس الشعري يطغـي علـى الحـافز الفنـي في أغلب أعمالك، ما ردك، وكيف تفسـر تنـاقض النقـاد**

بين وصفهم بناء أعمالك الفني بالكلاسيكية، وعصرية الرؤية في نفس الأعمال.

- بمعنى ...

بمعنى أن الشاعرية هي هاجسك في المقام الأول.

- المسألة ليست كذلك. إن لغتي دقيقة جدا، وليس فيها أدنى درجة من التهويم أو اللا تحديد. وكل لفظ فيها يعني شيئًا محددا، أما كلامك عن وجود الشاعرية أو غيرها فهذا شأن الناقد، إنما أنا لا أتعمد قط كتابة لغة بها جماليات على حساب المعنى الذي تنقله هذه اللغة.

*** وماذا عن البناء الكلاسيكي والرؤية العصرية في نفس الوقت؟**

- هم أحرار.

*** هل معنى هذا أنك لا تعبأ بالنقاد؟**

- احترمهم واستفيد - قدر استطاعتي - مما هو مجد في كلامهم.

*** لماذا تكثر الأحلام والكوابيس في أعمالك؟**

– كتب أحد النقاد عن ذلك، ولا أعرف لهذه المسألة تفسيرا، ما أعرفه أنني لا أتعمد شيئًا. أنا أشعر في لحظة ما – في الكتابة – إن الحلم أقدر على التعبير عن باطن الشخصية من مجرد السرد ... سرد التفاصيل اليومية.

*** قلت: إن " أسطورة حب " في مجموعة " ذهبت إلى شلال " تجربة في اللغة. ما حدود التجريب عندك، وهل هناك أعمال أخرى فرضت شكل كتابتها ومضمونها اللغة؟**

– تجربة في اللغة، ليس بمعنى أنني تعمدت ذلك، وأنت إذا قرأت القصة بإمعان لن تجد فيها كلمة واحدة غير محددة المعالم، أو تشير إلى شيء خارج نطاق الحدث الذي تقدمه القصة، ولكن تجربة في اللغة بمعنى أن إيقاع الكلمات وإيقاع الجمل كان يقودني في الكتابة، أكثر مما كانت تقودني فكرة معينة أو تصور بنائي، معين، ولكن يبدو – والله أعلم – أن عملية الكتابة كل متكامل يمكن أن تدخله من أي مدخل.

مدخل اللغة، مـدخل البنـاء، مـدخل الشخصـية ... الـخ وفي كل الأحوال ستصل إلـى نفـس النتيجـة. أذكـر أن أحـد الطـلاب سـألني حـين كنـت أدرس فـي معهـد السيناريو بأكاديمية الفنون ... هـل الشخصـية أسـبق أو الحدث في بنـاء المسـرحية ... حيرنـي هـذا السـؤال، وعدت إلى قراءات كثيرة فـي النقـد المسـرحي وتـاريخ المسرح،، وجدت أن النقاد يختلفـون بـين مقـدم للحـدث على الشخصية والعكس في الدراما. هـذا منـذ ٢٥ سـنة، ربما تكون المذاهب قد تغيرت الآن، لكنـي حـين فكـرت في الأمر، وجـدت أن القضـية كلهـا مزيفـة إلـى أبعـد الحدود، لأنه لا يوجد كاتب جاد يقف أمـام ذلـك الفصـل المفتعل، الشخصية هي التي تخلق الحـدث، والحـدث هـو الذي يطور الشخصية، ولا توجد فـي لحظـة الإبـداع أي أسبقية لعنصر على آخـر مـن عناصـر الكتابـة ؛ لـذلك أقول: إذا كان الكاتب يمارس الكتابـة كمـا أمارسـها أنـا ... باعتبارها عملية بحـث لا بوصـفها تسـجيلاً لقضـايا انتهى من حسمها، فسيان إن دخل إليها مـن مـدخل اللغـة أو من مدخل البناء أو ... أو.

كل المداخل تؤدي إلى نتيجة واحدة.

نعم، سيصل الكاتب إلى نفس النتيجـة. أنـا بـدأت هذه القصة بهذا الشكل. وقـد اسـتهوتني تلـك الإيقاعـات الموسيقية ولكن– في نهاية الأمر – كتبت ما أريد.

*** إن بوفاري تـدفعني إلـى الجنـون " فلـوبير. على ذكر بوفاري، مـا علاقتـك بأبطـال أعمالـك، هـل أوصلك أحد منهم إلى هذه الدرجة، ومن أحبهم إليك.**

– أحب الدكتور فريد فـي " أنـا الملـك جئـت "، لأنه مثلي يحاول أن يبحث عن إجابات لأسـئلة يبـدو أنـه لا إجابة عليها.

أما علاقتي بأشخاص أعمالي، فهـذه مسـألة فـي غاية الأهمية، هـي علاقـة التعـاطف ومحاولـة الفهـم، بمعنى أنني – وتلك من البـديهيات – لا أسـخر قـط مـن أحد، ولا أضع أحـدا موضـع الهجـاء. إنمـا أحـاول أن أفهم هذه الشخصـية، سـواء كنـت أقبـل سـلوكها أو لا أقبله، أحاول أن أتقمصها أثناء الكتابة.

*** هل حيرتك ضحى؟**

– **قـال وكحتـه المتقطعـة لا تنتهـي:** ضـحى شخصية مركبة جدا، وحقيقية إلـى أبعـد الحـدود، أذكـر أن الدكتور رفيق الصبان قال لي: أنـا حـزين لمـا آلـت إليه ضحى، قلت له: وأنا أيضا.

*** حـدثني عـن الشخصـيات الروائيـة التـي لا تنساها.**

– كثيـرة جـدا جـدا. لا أنسـى الخـال فانيـا (تشيكوف). لقـد حـاول ولـم يفلـح ولـم يكـف عـن المحاولة. إنه من أحـب الشخصـيات إلـى قلبـي. أحـب أيضا شخصية الموظف المرفـود فـي " خـان الخليلـي "، للأسف لا أذكر الآن اسمه، أظـن اسـمه أحمـد عـاطف الذي اعتزل الدنيا وأحب حبيبة أخيـه. علـى أي الأحـوال " خان الخليلي " من أحب الروايـات إلـى قلبـي، بـرغم أنها لم تحظ بشهرة كبقية أعمـال نجيـب محفـوظ، أتصور أنها الرواية الوحيدة التي ترك قلمـه فيهـا للتعبيـر بعيدا عن التحليـل السياسـي والاجتمـاعي، وإنمـا جعـل الشخصية هي الأساس. يعني ترك نفسه للكتابة.

وهناك طبعـا " إليوشـا " فـي " الإخـوة كرامـا زوف ". على فكرة ... فرغت لتـوي مـن قـراءة كتـاب ديستو يفسكي، عرفت أنه كان ينـوي كتابـة جـزء ثالـث لهذه الرواية بطلـة " إليوشـا "، وكـان سـيمر بتحـولات ومحن روحية كبيرة جدا في هـذا الجـزء. ألمـح ديسـتو يفسـكي بـذلك للمحيطـين بـه. هنـاك أيضـا هاملـت وشخصيات أخرى كثيرة لا أنساها.

*** يقول أحد النقاد: " لا تـتنفس الروايـة بحريـة إلا عندما تجد لها جذورا في المجتمع ".**

كيف تـرى مسـتقبل الروايـة فـي هـذا الـزمن الإلكتروني؟

– لست متشـائما، طالمـا هنـاك إنسـان سـيظل الكتاب خير جليس في الزمـان، مهمـا كثـرت الوسـائل الإلكترونية، سـيظل هنـاك عـدد مـن النـاس يحبـون القراءة.

* * *

" ... وكتابة أخرى "

*** " ١٠ مسرحيات مصرية " في هذا الكتاب حاولت أن تعرض قصة مجد المسرح وانكساره في الستينيات، وأردت أن تتقصى السبب، في تصورك، تلك الأيام بالأحرى، ما قصة مجدها وانكسارها. باختصار وبعيدا عن المسرح؟**

– المسرح هو الذي عبر عن الحكاية. كان هناك تيارات: تيار يقول: نتقدم بتجربة العدالة الاجتماعية ونقبل مخاطرها وتضحياتها، على أن تشمل العدالة الوطن بأكمله والمواطنين جميعا، وتيار يقول: دا كلام فارغ، وأن العدل الاجتماعي لن يتحقق، وأن الخلاص فردي، وهناك الأشخاص الممتازون والدهماء. وتعرف – بالطبع – أي التيارين انتصر. تجربة المسرح هي تجربة الوطن كله.

*** " أبناء رفاعة ... الثقافة والحرية ". أبناء رفاعة، المثقفون الحقيقيون، هل أوشكوا على الاندثار، هل ثمة أمل في أن يستكمل واحد منهم المسيرة.**

– لا أستطيع التنبؤ، ولكنـي أعلـم علـم اليقـين، أنه ما لم تستمر مسيرة هؤلاء العظـام فـإن الـوطن فـي خطر.

أثبت في هذا الكتاب أن المشـروع الوحيـد الـذي حقق شيئًا إيجابيا للوطن هـو مشـروع هـؤلاء المثقفـين الكبار. كانت هناك مشاريع أخـرى كالمشـروع السـلفي، والمشروع الليبرالي، والمشـروع التتريكـي والاسـتغرابي ... الخ، ولكن مشروع " أبناء رفاعة " هـو الوحيـد الـذي نجح ؛ لأنه مشروع الوحدة الوطنيـة والاسـتقلال الـوطني والعدالة الاجتماعية، حرية المـرأة، إنـه مشـروع رسـمه المثقفون واحتضنه المجتمع وعبـر عنـه السياسـيون فـى مراحل مختلفة لغاية جمـال عبـد الناصـر كـان هنـاك مشروع للمثقفين.

ضـرب المثقفـين بعـد ذلـك وإقصـاؤهم عـن السلطة، وعبد الناصر غير مبرأ مـن هـذه التهمـة رغـم حبي له، إقصـاء المثقفـين أدى إلـى أن هـذا المشـروع الجميل ... وطن حر لمواطنين أحرار، انكسر.

*** أستاذ بهاء ... كل إنسان يعتقد أنه لابد أن تكون الترجمة سهلة، وأن في وسعه أن يقوم بها إذا شاء، وأنه أهل، لأن ينقد هؤلاء الذين يمارسونها، كما يقول ثيودور سافوري، في ضوء تجربتك مع الترجمة، كيف ترى هذا الرأي؟**

– ليست لي خبرة ممتدة في الترجمة الأدبية، ولكن أعرف أنها عملية شديدة الصعوبة. وما لم يستطع المترجم أن يتقمص روح المبدع بحيث يأتي عمله قريبا من الإبداع الأصلي لغة وروحا، فإن العمل لا يستحق الذكر. كم أشعر بألم عندما أقرأ ترجمات سيئة، وهي الآن كثيرة، سيئة في فهم الأصل لا في الترجمة فحسب.

*** الترجمة خيانة، أم هي كتابة أخرى؟**

– الترجمة ليست خيانة، في رأيي أنها كتابة أخرى.

*** ما الذي يمكن أن تلعبه الترجمة في التفاهم بين الأمم والشعوب؟**

– طبعا تستطيع أن تلعب دورا كبيرا، ولكن هل تلعب هذا الدور. نحن فهمنا الغرب من خلال ترجمة الأدب الأوربي للغة العربية، ولكن هل فهمنا الغرب من خلال ترجمة أدبنا، لا أعتقد، لأن الأدب المترجم إلى اللغات الأوروبية لا يصل للمهتمين بالوطن العربي.

*** هل تعتقد في جدوى أن يكون للعالم لغة واحدة؟**

– إطلاقًا، إنها فكرة بلهاء، والتجربة أثبتت ذلك، لأن خصوصية كل شعب مكون أساسي من مكونات حضارته. أنت تفكر بلغتك.

*** في رأيك ما المواصفات التي ينبغي توافرها في المترجم؟**

إتقان اللغتين والحساسية؛ لذلك فإن الأدباء هم أفضل المترجمين.

*** ما الصعوبات التي يواجهها المترجم؟**

– لا حصر لها.

أهمها ...

– إتقان اللغة الأصلية، ثم محاولة التعبير عن المعاني البعيدة، التي قد لا تتوافر في ثقافة اللغة المنقول إليها.

*** هل الأصول الواحدة للغات تسهل عملية الترجمة؟**

– طبعا، مثلاً، حين تترجم من الفرنسية إلا الإيطالية والعكس، تكون الترجمة أسهل. هنا ليست اللغات فقط من أصل واحد، إنما لها ثقافة واحدة.

*** هل من الممكن إيجاد نظرية عامة للترجمة؟**

– بالفعل هناك مركز توحيد التعريب في المغرب، أظن في طنجة، وتحاول المجامع اللغوية أن تفعل ذلك، أتمنى أن تنجح في حل هذه الإشكالية، لأننا نعيش الآن في ظل تيارين متناقضين. لا في مجال اللغة فحسب، وإنما في كل حياتنا ... تيار ينادي

بالتوحيـد، وهـو الآن منكسـر، وتيـار التجزئـة ولـه الغلبة... التجزئة الثقافية والسياسـية والاقتصـادية. آمـل أن تكون غلبة مؤقتة.

*** حتى الترجمة يمكن أن نفشل في توحيدها.**

– هذا هو الحاصـل الآن ... تسـتطيع أن تشـير إلى ترجمة لبنانية وترجمة مغربيـة، وترجمـة مصـرية، وتجد بينها فروقًا هائلة. الوحـدة تحتـاج أن يكـون كـلام الجامعة العربية كلامـا عمليـا، أن يكـون هنـاك تكامـل اقتصـادي، تكامـل ثقـافي، تكامـل سياسـي. إذا أمكـن تحقيق ذلك ستكون هناك الوحدة التي تشير إليها.

*** أفـاد الأدب العربـي – قـديما وحـديثًا – مـن الآداب الأخرى. كيف ترى أثر الترجمة في هذا الأدب؟**

– غيرت مـن الأدب فـي وضـعه فـي مرحلـة الانحطاط، كأدب مناسبات لا حيـاة فيـه، وفتحـت أمامـه آفاق التجربة الإنسانية بدون شك.

*** هل أخذت الترجمة ما تستحقه من عناية في عالمنا العربي.**

– إطلاقًا لم تأخذ من اهتمامنا شيئًا. كان لدى طه حسين ذلك الوعي، وقام هو بنفسه، بترجمات جميلة للمسرح اليوناني والفرنسي، وترجم لأندريه جيد، وتبني مشروع الألف كتاب الأول، وقدم فيها أعمالاً رائعة، ولكن منذ مات طه حسين، حتى المشروع القومي للترجمة الآن – في المجلس الأعلى للثقافة – لم نهتم إطلاقً بالترجمة.

*** ما أهم المترجمة التي قرأتها؟**

هناك ترجمات شكلت وجداننا، أذكر ترجمة محمد عوض محمد لفاوست، وحسن عثمان في ترجمة دانتي، وسامي الدروبي، وترجمات الألف كتاب الأولى.

*** أبناء رفاعة، كيف ترى دورهم في الترجمة؟**

– يكفي ما قلته لك عن طه حسين باعتباره أنبغ أبناء رفاعة، لكن لا يمكن أن يقوم مشروع

للترجمة، دون أن تحتضـنه مؤسسـة كبيـرة، أو الدولـة. تذكر أنه عنـدما تبنـت هيئـة الكتـاب مشـروع ترجمـة أعمـال ديستويفسـكي قـدم لنـا سـامي الـدروبي هـذه الأعمال، لابد أن تكون هناك مؤسسة لـديها القـدرة علـى التمويل، وأدباء لديهم استعداد للتضـحية، الترجمـة نـوع من الكرم، لأنك تود أن تقدم للآخرين شـيئًا أعجبـك، مـا لم يتوفر التمويل والمتـرجم القـارئ، لـن تكـون هنـاك حركة ترجمة جديرة باسم حركة.

*** في عام ١٩٧٠ م ترجمـت مسـرحية " فاصـل غريب " لـ " يوجين أونيل " وبعـد ربـع قـرن، تحديـدا في عام ١٩٩٦ م وترجمت روايـة " سـاحر الصـحراء " لـ " باولو كويلهو " قل لـي مـا المعـايير التـي تحكـم عملية الترجمة عندك؟**

– ذوقي الشخصي.

*** وماذا عن تجربتك مـع هـذين العملـين، ولـم أنت مقل في الترجمة أيضا؟**

– في الحقيقة أنا شـخص كسـول جـدا، أعتـرف لك بذلك، بالنسـبة للعمـل الأول ترجمتـه، لأننـي كنـت

أريد أن أتـزوج، ومعظـم الأشـياء التـي ترجمتهـا فـي البرنامج الثاني وجريدة المسـاء وغيرهـا، كنـت أحتـاج للمكافأة. بالنسبة ل " ساحر الصحراء "، أنـا أحببـت هـذا العمـل ... علـى فكـرة، و " فاصـل غريـب " أحببتـه أيضا، وأنا الذي اقترحته عنـدما طلـب منـي أن أتـرجم عملاً. ويصدق هذا علـى كـل مـا ترجمتـه. تشـيكوف، وليم ساورويان، دافنـي دي موريبيـه، وغيـرهم. ترجمـت للكتاب الذي أحببتهم فقط.

*** أكل عيش قائم على الحب.**

– طبعا، لا أستطيع أن أترجم شيئًا لا أحبه.

*** أثيـر أن بـين " سـاحر الصـحراء"، و " أنـا الملك جئت " تشابها ... ما تعليقك؟**

– التشابه أن التجـربتين رحلـة فـي الصـحراء، حتى في وصـف الصـحراء، وأنـا الـذي أثـرت هـذا الموضوع، المؤكد أن " كويلهو " لـم يسـمع باسـمي مـن قبل، وأنا لم أكن قرأت له شيئًا قبـل هـذه الروايـة التـي كتبت بعد " أنا الملك جئت " بعشر سنوات.

*** إذن هو وقع الحافر على الحافر كما يقولون:**

– ليس أكثر.

*** حركـة الترجمـة فـي السـتينيات والآن، مـا شهادتك عليها؟**

– كانت حركة خصبة وجميلـة جـدا، وكانـت – في بيروت – أيضا حركة نشـطة بعضـها جيـد وكثيـر منها ليس كذلك، ولكن الترجمـات البيروتيـة لعبـت دورا هائلاً في تكوين جيلي، مـا زلـت أذكـر العاصـفة التـي أحدثتها ترجمة كتاب " الـلا منتمـي " لكـولكن ويلسـون. وكتـاب " المثقفـون " لسـيمون دي بوفـوار، وكتـاب " طريق الحرية " لسارتر، هذه الترجمـات أحـدثت ضـجة. الآن باستثناء المشروع القومي للترجمة، كمـا قلـت لـك، معظم الترجمات سيء وركيك.

*** ترجمت أعمالك إلى العديـد مـن اللغـات، مـا رأيك في الترجمة؟**

لي عمل واحد هو الذي ترجم إلـى لغـات عديـدة هو " خالتي صـفية والـدير " وبعـض القصـص. حاليـا تترجم رواية " الحب في المنفى ".

*** هل أنت راضٍ عن مستوى الترجمة.**

– جدا.

* * *

" في المنفى "

" بم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن " المتنبي

" يا هذا، الغريب ... من كله حرقة، وبعضه فرقة، وليله أسف، ونهاره لهف، وغداؤه حزن، وعشاؤه شجن، ورؤاه ظنن، وجميعه فتن، ومفرقةهمحن، وسره علن، وخوفه وطن.

الغريب من غربت شمس جماله واغترب عن حبيبه وعزاله، يا هذا أنت الغريب في معناك ". أبو حيان التوحيدي.

أستاذ بهاء: أكثر من عشرين عاما غريبا، كيف احتملت.

قال بأسى، كأن سحابة قد غشت وجهه: كيف احتملت بقدر كبير جدا من الفشل، وقدر قليل من النجاح، على المستوى الشخصي واجهت محنًا كثيرة. وعلى المستوى الأسري يكفي، وهذا جرح لن يندمل قط، إنني فقدت أمي وأنا في الغربة، ولكني احتملت.

*** لم يكن خروجك من مصر اغترابًا، أنت حريص على ألا تسميه كذلك ... بمعنى.**

– بمعنى أنني لم أعش لحظة واحدة على طريقة أدباء المهاجر، أنا لم أنغمس قط في حياة ... **يصمت قليلاً قبل أن يكمل:** في حياة الغرب، وربما يكون هذا عيبا. لو كنت انغمست انغماسا كاملاً – بالتأكيد – كنت سأعرف تجارب أكثر مما عرفت، كنت على هامش المجتمع الذي عشت فيه، هذه هي الخسارة، ولكن المكسب الأكبر طبعا أنني لم أضع، أو أفقد نفسي.

أنا شاهدت مواهب قد تكون أكبر مني بكثير، بددها ذلك الاغتراب الباطني الذي عاشه هؤلاء الأشخاص في الغرب. شاهدت قدرا هائلاً من المواهب ضاع. كثير منهم انتقلوا بوجدانهم للمجتمع الجديد متعللين بمبرر ساذج هو " فقدان الجذور "، مع أنه حقيقي، فالإنسان – كما يقول أحد الأشخاص " حديقة غير عادية " – مثل النبات لا يجود أو يصلح إلا في تربته.

*** تجربة الغربة ما تقييمك لها؟**

– أنا قلت لك، على المستوى الشخصي كانت خسائري فادحة وهزائمي، ولكن على مستوى الكتابة استفدت كثيرا، لأنه على ما يبدو يحتاج الواحد منا إلى درجة من البعد، بعيدا عن الانغماس في التجارب اليومية، لكي ترى الصورة بشكل أوضح، أو على الأقل هذه تجربتي.

*** لو عاد بك العمر، هل كنت تختار نفس التجربة؟**

– إطلاقًا.

*** كانت الكتابة في المنفى – كما قلت – بديلاً للموت، بديلاً للانتحار، كيف؟**

– شوف أنا لا أكتب اعترافات ذاتية، ولكن الجو الموجود في " بالأمس حلمت بك " جو حقيقي، هذه الوحدة والإحساس بأنك نبت في غير تربته، جو قاتل فعلاً، لهذا كانت الكتابة – بشكل حقيقي – بديلاً للموت المعنوي الذي قتل عشرات المواهب كما قلت

لك، أيضا الموت المـادي الـذي يمكـن أن تـدفعك إليـه الكآبة.

*** كـان المنفـى مصـدر كتابتـك، أعنـي سـر توهجك، ولكن الوضع تغير بعد العودة، ما تعقيبك؟**

– هذا اتهام لا أدفعـه ولا أنفيـه ولا أؤيـده، أنـا حتى في المنفى، كنت مقلاً جدا.

*** توفيق الحكيم، يحيي حقـي، سـهيل إدريـس، الطيب صـالح، بهـاء طـاهر، مـا الفـرق بـين غـرب هؤلاء؟**

– أنا أقدر توفيق الحكـيم، والمؤكـد أننـي فتنـت بيوميـات نائـب فـي الأريـاف وعـودة الـروح وأهـل الكهف، ولكن دعني أعترف بقدر كبير مـن الخجـل أننـي لست مفتونًا به. أما غربة فهو مقارنة خفيفـة بـين ماديـة الغرب وروحانية الشرق، وهي مقارنـة بهـا قـدر كبيـر مـن التبسـيط، لا الغـرب مـادي صـرف ولا الشـرق روحاني صرف. المسألة أعقد من ذلك بكثير جدا.

أما يحيي حقي ففـي رؤيتـه للغـرب قـدر مـن العمق يفوق رؤية توفيـق الحكـيم، المسـألة هنـا ليسـت

المعادلة بين الروحية والمادية، ولا إعلاء طرف على آخر، إنما هي محاولة التركيب، محاولة إيجاد مركب موضوعي لهذين العالمين المتنافرين ... الشرق والغرب، لكن مع احترامي ليحيي حقي وعشقي له، رؤية طه حسين في " أديب " أعمق ؛ لأنه يرى العالمين ويرى الفرق بينهما ليتكلم عنه ... مثلاً إذا كانت الحرية الفردية موجودة في الغرب، فلماذا لا توجد في الشرق، أو يرى روح التضامن الإنساني والبشري المتحققة في الشرق ... وهكذا، ويرى في نفس الوقت عيوب المجتمعين، وأنا أزعم أن طه حسين – في أديب – لا يحاول التوفيق بين العالمين، بل يرفضهما معا، ويقول: إن " اليوتوبيا " هي مركب من هذين العالمين، مركب يضيف إليهما شيئًا، لا يأخذ من هنا شيئًا ويضيفه إلى هناك أو العكس. أقصد أن مدينة طه حسين الفاضلة ليست انتقائية، وهو يرفض أشياء في جذور ثقافة العالمين، ولهذا أرى أن " أديب " هي أعمق رؤية في هذا الجيل لمشكلة العلاقة بين الشرق والغرب.

وسهيل إدريس؟

– في الحقيقة، وليس هذا تهربا من الإجابة، أنا قرأت " الحي اللاتيني " زمان، فور صدورها، وليس لدى الآن تصور أو أتذكر مضمونها حتى أجيب على سؤالك،

والطيب الصالح.

– رؤيته شديدة الغضب، شديدة الرفض لذلك الغرب الاستعماري الذي حطم مصطفى السعيد، وحاول مصطفى أن يحطمه، وفي رأيي أن " موسم الهجرة للشمال " لا يمكن فهمها إلا في إطار الظروف التاريخية التي كتبت فيها. ظروف الصحوة الأفريقية ضد الغرب، ولا تكون منطقية إلا في إطار هذا الظرف.

وماذا عنك؟

– غيري أقدر على الحكم مني، ولكن هناك كاتبة نرويجية اسمها " جانفر ماجد "، كتبت دراسة عن صورة الغرب في قصصي. رأت أن رؤيتي مختلفة تماما عمن سبقوني في الكتابة عن الغرب. بمعنى أنني

أحاول أن أفهم ... أي لا أصدر أحكامـا أخلاقيـة لا عـن الشرق ولا عن الغرب، وإنما أحاول مـن منظـور إنسـان شرقي ومصري وعربي أن أفهـم العـالمين ؛ ولـذلك لـن تجد – كما تقول الكاتبة – في أعمالى إدانة لأي منهما.

وفي رأيي، أقصى ما يمكـن لـلأدب أن يسـاعدنا عليه هو الفهم والاقتراب.

*** لماذا يكرهنا الغرب؟**

– لأنه مستعمر، ومـا زال يسـتعمرنا، وأنـت لا تستطيع أن تستغل إنسانًا، وتعتبره – فـي نفـس الوقـت – ندا لك. لابد أن تجد أسـبابا تجعـل هـذا الإنسـان أدنـى منك. هذا هو الجوهر، بعد ذلك هنالـك التـاريخ والعـداء والحروب القديمة والجديدة.

*** وهل ديمقراطية الغرب عادلة؟**

– ليست عادلـة علـى الإطـلاق. أنـا أريـد أن أعرف، هل الديمقراطية الإنجليزيـة كانـت عادلـة وهـي تستعمر الهند ومصر وغيرها مـن البلـدان، حتـى هنـاك في بلاد الإنجليز كانت ديمقراطية للصـفوة، اقـرأ شـارز

ديكنز، لترى لنرى كيف كان يعيش الغلابة. كانوا يعيشون كأبناء مصر أو الهند المستعمرة.

الديمقراطية لا تكون حقيقية إلا إذا كانت شاملة، شاملة لأبناء الوطن وللتعامل مع العالم.

*** أسلوب حياة.**

– بالضبط. أما الديمقراطية التي تواصل – بشكل أو بآخر – الانحياز للصفوة ضد العبيد، أنا لا أعترف بها؛ لأن الديمقراطية الحقة أن يكون الإنسان عادلاً، وديمقراطية الغرب ليست عادلة نحو النساء ولا نحو الضعفاء أو الفقراء. ليست عادلة. وأعظم من نقد الديمقراطية الغربية، هو ديستويفسكي في كتابه " مذكرات شتاء عن رحلة صيف "، ترجمة سامي الدروبي، وأنا لخصته في "أبناء رفاعة ".

*** ما الفرق بين المنافي ... باريس، داكار، روما، سويسرا ... الخ؟**

– أنا لم أعش في داكار، لكن البلاد التي عشت فيها فترات يمكن التحدث عنها هي سويسرا، إيطاليا، فرنسا، وهي كلها منفى واحد.

*** لــو أردت أن تلخــص المنفــى فــي كلمــة واحدة، ماذا تقول؟**

– لا أستطيع أن أرد علـى لغـز. لأن المنفـى لا يمكن تلخيصه في كلمة واحدة.

*** وأنت هناك، إيه أكتر حاجة كانت بتوحشك؟**

– كل شيء.

*** وما الأغاني التي كنت تسمعها؟**

أم كلثوم، وفيروز، وعبد الوهـاب القـديم، وفـايزة أحمد، و " الليلة الكبيرة " طبعا، وأغـاني سـيد درويـش، بالذات أغنية " أهو ده إللي صار ... ما لكـش حـق تلـوم عليّ " إللـي سـمعها صـنع الله إبـراهيم وعـيط فـي " بيروت ... بيروت " أنا كنت مثله.

*** في الشارع، في الوظيفة، في سائر مناحي الحياة، هل كنت تقارن بيننا وبينهم؟**

– بطريقة عمدية لا، لم يكـن هنـاك وقـت. أنـا كنت أعمل عملاً قاتلاً، كنت أشتغل مـن الثامنـة صـباحا إلى الخامسة والنصف مساء، بشكل متواصـل، فلـم يكـن يتاح لي وقت للتنفس. علشان كدة قلـت لـك، هـذا النـوع

من العمل ضـيع مواهـب كثيـرة، أنـا رأيـت روائيـين وشعراء كثيرين ماتوا تحت ضـغط العمـل. وكـان هـذا إنذارا لي. المهم كنـت أرجـع مـن العمـل شـبه ميـت، ورغم ذلك كنت أرتاح قليلاً ثم أكتب بالليل.

*** ألم يكن لك أي نشاط أدبي هناك؟**

– كان هناك نـادي الكتـاب العربـي فـي الأمـم المتحدة، وكانت لنـا أنشـطة، أبرزهـا أننـي بعـد فـوز محفوظ بجائزة نوبل، كتبـت دراسـة أعتـز بهـا عـن " مصر القديمة عند نجيب محفـوظ "، وكانـت لنـا أنشـطة أخرى لكن قليلـة بسـبب ظـروف العمـل، المفارقـة أن معظم الذين كانوا يحضرون هذه الأنشـطة مـن الأجانـب العاملين في الأمم المتحدة، لا من العـرب وهـم بـالآلاف في جنيف!!

*** كنت سأسألك: مـا الـذي يـربط العـرب فـي المنفى؟**

– العرب في المنفى هم صـورة مكـررة للعـرب في الـداخل ... نفـس حالـة التشـرذم والضـياع التـي نعيشها في الوطن، هي هي في المنفـى، لا اخـتلاف بـين

الحالتين، الغربة لم توحدهم، هناك جاليات بينها تضامن شديد جدا، اليونانيين، الإيطاليين، ولكن العرب – مع الأسف الشديد – أكثر فرقة من الداخل، لا حوار بينهم من أي نوع.

*** والمنفى ماذا يترك في الروح؟**

– جرحا غائرا.

*** وأنت هناك، ألم تفقد مكانك في العالم.**

– حين كنت في جنيف جاءتني دعوة من " بودابست " لحضور أحد المؤتمرات. كان معي: صبري حافظ، ومحمد برادة، وإدوار الخراط، وإميل حبيبي، وأدونيس، ومجموعة من الأصدقاء. ساعتها انتابني شعور غريب جدا، من الصعب أن أصفه لك، أن هؤلاء مجموعة واحدة وأنا الغريب بينهم. برغم أن منهم من يعيش في باريس أو لندن! لكن جاءني هذا الإحساس ... أني منتزع من مكاني، وأني لا أنتمي لأي مكان.

أنا أتذكر جيدا هذا الشعور، لا أدري هل يجيب عن سؤالك أو لا؟

*** بأي لغة كنت تفكر؟**

– بالعربي طبعا.

*** ألم تكتب شيئًا بلغة أخرى.**

– لا.

*** ماذا عن تجربة زواجك بأجنبية.**

– لم يكن هناك تخطيط لذلك، أنا تزوجت بعد طلاقي من زوجتي الأولى بست سنوات، لم تكن لدي نية الزواج مرة أخرى.

*** زهدا في الفكرة.**

– زهدا في الفكرة، وكنت قد تعودت على الوحدة. تعودت ألا يشاركني أحد في حياتي، ولكن يبدو أنك لا تستطيع أن تنفذ قراراتك بنسبة ١٠٠ %، المهم حدث أنني حين التقيت بزوجتي الحالية، وجدت أن أشياء كثيرة تجمعنا، ولا سيما أنها من أصل بلغاري، وفي البلغار روح شرقية لا تقاوم، وكانوا – مثلنا – تحت حكم الأتراك فترة طويلة فاستأذنت أولادي وتزوجت.

*** ألم ترغب في الإنجاب مرة أخرى؟**

– لا.

*** هل ضايقك أنك لم تنجب ولدا؟**

– بالعكس أنـا أحـب البنـات، ولـو كـان فـي مقدوري الآن أن أنجب، لتمنيـت أن أنجـب بنتًـا ثالثـة. لست صعيديا في هذه الجزئية، أنـا صـعيدي فـي أشـياء أخرى.

*** فيم تختلف المرأة الغربية؟**

– لا يوجد شـيء اسـمه المـرأة الغربيـة علـى إطلاقها ولا المـرأة الشـرقية علـى إطلاقهـا، السـمات النمطية للمرأة سمات كاذبـة. قـد تجـد امـرأة مصـرية أكثر تحررا مـن أي امـرأة غربيـة والعكـس صـحيح. هناك سمات اجتماعية، بمعنى أن المجتمـع يعطـي للمـرأة أوضاعا معينة في الشـرق، والمجتمـع يعطيهـا أوضـاعا معينة في الغـرب. لكـن المـرأة هـي المـرأة فـي أي مجتمع.

*** لماذا قررت أن تعود؟**

– كان من الممكـن أن اسـتمر، عرضـوا علـى في الأمم المتحدة ذلـك، ولكنـي انتظـرت حتـى اسـتحق المعاش، بعد ذلك قـدمت اسـتقالتي وعـدت، لأن العـودة كانت حلمي طول الوقت ... من أول يـوم سـافرت فيـه. أنا أتذكر أنه في عام ١٩٣٨ م، ولم يكـن قـد مـر علـى سفري بشكل دائم سوى عـامين، عـرض علـى الأسـتاذ فهمي عمر، وكان رئيس الإذاعة وقتهـا، أن أرجـع مـرة أخرى للإذاعة، ولم تكن هناك موانع أمنيـة. وأنـا رحبـت بالرجوع وفرحت بـه، لكنـه تراجـع عـن هـذه الفكـرة تماما، ولما سألته عن السبب، قـال لـي: لـن أسـتطيع أن أخبرك بشيء حتى أخرج إلى المعاش. بعـد ذلـك قابلتـه في معرض الكتاب وذكرته بما وعد، فضـحك وقـال لـي: هناك ناس واصلين اعترضـوا علـى رجوعـك. تـذكرت لحظتها " الناس الواصـلين " الـذين كـانوا السـبب فـي خروجـي مـن الإذاعـة ومـنهم، بـل أولهـم، يوسـف السباعي!!

*** هل أنت سعيد بالعودة؟**

– هذا هو الوضع الطبيعـي، دعـك مـن مسـألة السعادة هذه، يمكن لو كنت سافرت في سـن صـغيرة مـا كنت رجعـت، ولكـن سـافرت وأنـا كبيـر ... بعـد أن تكونت وارتبطت بالأرض.

بالعكس أنا كنت أدين مـن يسـافر، كنـت أقـول، وهذا صحيح،: إن هناك خطة لتفريغ مصـر مـن عقلهـا، حتى وجدت نفسي فـي موقـف الاختيـار، فـي الموقـف الصعب ... أما أن أسافر أو أجوع، وسافرت.

* * *

" عن الوطن "

*** كم مرة زرت مصر وأنت في المنفى؟**

– مرات كثيرة جدا.

" مـاذا حـدث للمصـريين " مـا بـين ١٩٧٥ م، تـاريخ خروجـك و١٩٩٥ م، عنـدما عـدت نهائيـا ... وكيف ترى الحال الآن؟

– لأنني أنتمي لشريحة ما فـي الطبقـة الوسـطي، أول ما لفت نظري هو انتهاء الطبقـة الوسـطي بـالمفهوم الذي تركتهـا عليـه. يعنـي كانـت هـذه الطبقـة طبقـة الموظفين والمتعلمين، وهـم جمهـور الكتـاب والمسـرح الجاد. أيضا جمهور السياسة الجـادة. هـذه الطبقـة بهـذا المفهوم لم يعد لها وجود.

ولأنني أحد أبنائها أبحـث الآن عنهـا ولا أجـدها. الرواية التي أكتبهـا حاليـا (*) تحـاول أن تقـول: مـاذا حدث. خذ مثلاً على ما أقوله لك مـن حركـات التطـرف الديني. أبناؤها وكوادرها من الطبقة الوسـطي. مـا يقولـه هؤلاء ومنطقهم الإرهابي لـم يكـن – فـي السـتينيات –

(*) نقطة النور .

غير مقبول من أبناء نفس الطبقة فقط، وإنما لو كنت تقول هذا الكلام في الجامعة، أو في أي تجمع آخر كانت الناس تضحك عليك. واقرن ذلك بأنواع الجرائم التي تحدث الآن. جرائم الستينيات كانت القبض على موظف منحرف أو مزارع اختلف مع مزارع آخر علشان الري. حاليا نقرأ عن جرائم لا يصدقها عقل إنسان. اقرأ صفحة الحوادث في الجرائد سيصيبك الهلع. زوجة تقتل زوجها، ابن يقتل أمه، ماذا يحدث، لا أعرف، ولكني ما زلت أندهش ولله الحمد!

هذا عن المدينة، أما القرية فلا أعرف ماذا جرى فيها، ولكن أحد أقربائي قال لي: إن القرية التي كتبت عنها في " خالتي صفية والدير " اندثرت. هناك ريف جديد تماما، لا أستطيع أن أصدر حكما عليه ... توقف لحظات عن الكلام، واستكمل بوجع، وبسخرية أيضا ... التغير فادح يا أستاذ بها، ويحتاج منا لمجهود كبير لفهم ما حصل ولماذا!

*** لا التعليم يعلم، ولا الإعـلام ينيـر، ولا الثقافـة تصل إلىمستحقيها، هذا ما قلته في أحـد حواراتـك. مـا الذي أوصلنا إلى ذلك، وكيف الخروج من هذا النفق.**

– أيضا، لن أجيبك بشكل مباشـر، ولكنـي أسـمع عن شـيء اسـمه " المجـالس القوميـة المتخصصـة "، واقرأ عن لجان عليا لكل شـيء وعنـدنا جمعيـات أهليـة وخبراء في كل تخصص ... دعك من هـذا كلـه، سـأذكر لك شيئًا ... في الأربعينيات كانت مجلـة الرسـالة تـوزع عشرات الآلاف من النسخ فـي مجتمـع عـدد سـكانه ١٧ مليونا، حاليا نحن ٦٥ مليونـا أو أكثـر، وليسـت هنـاك مجلة أدبية تطمح أن تطبع – لا أن تـوزع – نصـف مـا كانت تطبعه الرسالة. لا أريد أن أتحسر علـى مـا فـات، لكني أريد أن أقول: إن المجتمع كان جـادا، كـان عنـدما يطلع كتاب مثل " مسـتقبل الثقافـة فـي مصـر " يصـبح موضوع حوار اجتماعي، ويحـدث تـأثيرا خطيـرا جـدا في المجتمـع. أنـا واثـق أن لـدينا الآن مـن التربـويين ورجال التعليم، من لديهم القدرة علـى كتابـة سلسـلة مـن الكتب تقدم فلسفة لإصلاح التعلـيم، ولكـن المشـكلة أنـه

بينما كان كتاب طـه حسـين موضـع اهتمـام عـام مـن المجتمع، مثل هذه الأبحـاث والنـدوات والمـؤتمرات الآن تنزلق على سطح الوعي الاجتماعي.

ما الـذي أدى إلـى أن يفقـد مجتمعنـا اهتمامـه بالقضــايا الجــادة، وأن يغــرق ... ســكت متحيــرا، وغاضبا، ثم أردف ... ماذا أقـول، يغـرق فـي الترفيـه والاهتمام بكل ما هـو تافـه، مـاذا أقـول ... الاهتمـام بمباراة واحدة من مباريات كـأس العـالم فـي التليفزيـون وفي الصحف أضعاف أضعاف الاهتمـام الـذي تسـتغرقه الثقافة على مدار سنة في نفس الأماكن ... ماذا حدث؟

ثم قال بحدة ... دعنـي أسـأل بشـكل أصـرح: هل هذه الحكاية متعمدة؟ هل يعتمد مـن يضـع السياسـات التعليمية والإعلامية والثقافية إلهاء النـاس وإبعـادهم عـن الاهتمام بمشاكلهم الحقيقيـة، كـي يغرقـوا فـي مسـتنقع التفاهة، قد يكون هذا صحيحا، لأن العـالم كلـه وقـع فـي نفس المستنقع في فترة الحرب الباردة، حـين كـان هنـاك مسعى لصرف أنظـار النـاس عـن الاهتمـام بقضـاياهم

الحقيقية وإلهـائهم بالملعـب لا بالمسـرح [*] هـل فتـرة الحرب البـاردة التـي اسـتبدلت ثقافـة المسـرح بثقافـة الملعب هي المسئولة عن الوضع الراهن الذي نحياه.

نحن نلهـي النـاس كـي لا يهتمـوا بالتشـكيلات النقابية أو الأنشطة السياسية والمهنيـة، ثـم نسـينا أنفسـنا في التيار، حتى بعد انتهاء مبررها. هل كنـا غـافلين عـن أننا إذا نحن خلقنـا فـي المجتمـع ثقافـة الملعـب هـذه، فسوف تنتهي اللعبة بتحويـل النـاس إلـى مجـرد أطفـال يلعبون! أريد أن أقول: إن المجتمع بوجـه عـام ولأسـباب عديدة بعضها متعمـد، وبعضـها نتيجـة طبيعيـة لتـردي الأوضاع الاقتصـادية، وبعضـها لظـروف ديموغرافيـة كالانفجـار السـكاني والعشـوائيات السـكنية والتعليميـة، لهذه الأسباب مجتمعة أصبح مكان العقـل، وهـو الوسـيلة الوحيدة للنهوض بـأي مجتمـع، علـى هـامش الملعـب، أقسم لك لو ظهر بيننـا مفكـر هـو الخلاصـة المركـزة للطهطاوي، وطه حسين، وقاسـم أمـين، ومحمـد عبـده،

(*) يقصد بالملعب الحضارة الرومانية ، أما المسرح فدلالة على الحضارة اليونانية .

وديستويفسكي، وشكسبير، أقصى ما يمكن أن يحظى به هو نشر مقال له في صفحة الرأي بإحدى الجرائد!

لن يتحول الفكر إلى وسيلة للعمل أبدا.

*** وكيف نخرج من هذا النفق؟**

– اسأل الحكماء، أنا لست حكيما، لكن نقطة البدء في تصوري أن يعود للكلمة أو العقل مكانتها في المجتمع. أن يعود الحوار الفكري الخصب الذي يؤدي إلى فعل فى هذا المجتمع، نحن الآن نعيش بلا فكر على الإطلاق ... على الإطلاق ... كررها مرتين بعصبية، قلت: بلا رأس، فقال يائسا:

بلا رأس، وأنا أزعم – دون أدنى مبالغة – أنه لا يوجد تصور فكري لا عند الحزب الحاكم، ولا عند أحزاب المعارضة ولا عند أحد.

* ١٩٦٧ م، ١٩٧٣ م، لحظتان فاصلتان في تاريخ الوطن. كيف ترى اللحظتين.

قال وقد تراجع برأسه قليلاً، ورفع حاجبين خفيفين خلف نظارته الكبيرة. سؤال مفاجئ. طبعا " ٦٧ " زلزال ما زلنا نعيش توابعه حتى الآن. المسألة

ليست مسألة هزيمة عسكرية، ولـو أن مـا أوجعنـا غايـة الوجع في حينهـا، هـو الهزيمـة العسـكرية. إنمـا هـذه اللحظـة كشـفت بالفعـل أن هنـاك خلـلاً هيكليـا فـي مجتمعنا. وأذكر أن أحمد بهاء الدين كـان أول مـن دعـا إلى المراجعة. قـال: إنهـا هزيمـة علميـة. إذن لابـد أن نأخذ بأسباب العلم في المجتمع. السـادات ميـع بعـد ذلـك هذا الطرح حين أطلق شعاره " دولـة العلـم والإيمـان "، وكأن هناك تعارضـا بينهمـا. فـي حـين أن العلـم هـو السعي الحثيث إلى فهم مـا أوجـد الله مـن حـق وخيـر وجمال في الكون. هذه هـي العبـادة الحقيقيـة، أن تعبـد الله باكتشاف ما أبدع. إنما السـادات قـال: " دولـة العلـم والإيمان " بمعنى الدروشة.

" ٧٦ " كانت هزيمـة حضـارة، وكنـا نسـتطيع الخروج منها، لو أننا أخـذنا فعـلاً بطـرح مثـل طـرح أحمد بهاء الدين وغيره مـن الكتـاب فـي ذلـك الوقـت، ولكننا لـم نفعـل. " ٧٣ " رغـم أنهـا نصـر عسـكري محدود، إلا أنها شفت جرح الهزيمة العسـكرية، لكنهـا لـم تطور الـدعوة التـي ظهـرت فـي أعقـاب " ٦٧ " إلـى

الإصلاح الحضاري، هي شفت جرح الهزيمة ولكنها لم تشف العلل التي أدت للهزيمة، مع تقديري الكامل بالطبع لبطولة أبناء قواتنا المسلحة. ولكن الإحساس بأن هناك شيئًا ناقصا، أدى إلى أن الإحساس الفاجع بهزيمة " ٦٧ " ما زال متجذرا في حياتنا ... الثقافية، والاجتماعية، بينما الفرح الصادق بمعركة " ٧٣ "، لم يحدث نفس الأثر الثقافي الذي أحدثته النكسة. ليس معنى هذا أننا نحب الندب أو أننا ننظر إلى النصف الفارغ في الكوب. إنما معناه أننا لم نستثمر هذا النصر العسكري لإحداث تغيير اجتماعي شامل.

*** وما أثر النكسة والنصر على جيلك؟**

– تأثير النكسة ما زال موجودا في الكتابة كما قلت لك.

الأثر المباشر.

– هو هذا.

*** هل لا يزال الجيل الضائع ضائعا؟**

- أظن أن المجتمع كله في حالة ضياع الآن... بلاش كلمة ضياع، لأنها مش لطيفة. مجتمعنا يبحث عن نفسه.

*** ماذا ينقص المصريين؟**

- أن يكون لنا مشروع. سبب إعجابي بعبد الناصر هو هذه الفكرة، مشروع يمكنك أن تنقده أو تهاجمه، أو ...، ولكن منذ انتهت التجربة الناصرية لم يعد هناك مشروع، ولم نعد نلتف حول شيء نقتنع به ونحاول أن ننفذه.

*** الاشتراكية، القومية، الوحدة العربية، ماذا تثير فيك هذه الكلمات الآن؟**

- انتهت – طبعا – أوهام الشباب. الآن أحلم بدرجة من العدالة الاجتماعية بدلاً من أن تقول اشتراكية علمية أو غير علمية. درجة من العدالة التي سعت الاشتراكية إلى تحقيقها. أحلم بدرجة من التوحد حول أهداف ومبادئ معينة في الوطن العربي. ليست

بالضرورة أن تكون وحدة سياسية أو خلافه، إنما تكامل اقتصادي مثلاً.

توقف عن الكلام، ثم علا صوته فجأة وتوترت نبراته العميقة وهو يقول:

أعداؤنا في منتهى الوحدة يا أخي، لماذا نحن متفرقون، أعداؤنا متوحدون ويعاملوننا كوحدة. يقولون العرب، فكيف نواجه هذا العداء المتكتل ضد أمتنا ونحن في هذه الحالة من الشرذمة والتفرق. هذا ما تعنيه لي الوحدة، والقومية. الأهم من هذا كله أن فلسطين كانت وما زالت تعني لجيلي التجسيد والرمز لهذه المعركة الحضارية المستمرة التي تخوضها أمتنا بقدر كبير من العجز.

*** البعض يرى أن مصر بمعاهدة السلام مع إسرائيل قد فتحت الطريق للحلول الفردية، ومن ثم فرقة الصف العربي، بعد حرب أكتوبر التي اجتمع فيها العرب لأول مرة. ما تعقيبك؟**

– جزء من هذا الاتهام صحيح والجزء الأكبر منه التماس للأعذار، بمعنى أنه لو أن العرب كانوا

رافضين حقيقة للحـل الفـردي الـذي اختـاره السـادات، كان عليهم أن يسعوا منذ ذلك الحـين لبلـورة فكـرة حـل جماعي ما، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، بـل أكـاد أقـول: إنهـم كانوا سعداء حين اختار السادات هـذا الحـل، لأنـه رفـع عنهم الحرج، رفع عنهم الإحساس بـأن علـيهم أن يفعلـوا شيئًا.

هل منعت مصر المقاومة في جنـوب لبنـان مـن إخراج إسرائيل بقوة السـلاح، أنـا ولأننـي عشـت فـي الخارج عقب اتفاقيات كامب ديفيد، علـى رفضـي الكامـل لها في وقتها، رأيت أن خصوم هـذه الاتفاقيـات لا يقلـون انتهازية، ولا بعدا عـن الـروح القوميـة الحقيقيـة ممـن وقعوها.

*** وما رأيك في الاتفاقية، هل كانت ضرورة؟**

– الآن أصبحت في ذمة التـاريخ، وفـي التـاريخ لا تستطيع أن تصدر أحكامـا قيميـة. ولـنكن صـرحاء، المعارضة لاتفاقيات كامب ديفيـد فـي مصـر لـم تكـن معارضة حقيقية. الناس وعدوا بأن السـلام سـوف يفـتح البـاب للرخـاء والتنميـة وإنهـاء الحـروب، فظلـت

المعارضة لها مقصورة علـى مجموعـات مـن المثقفـين واليساريين، لكن السادات لم يوقـع وحـده كامـب ديفيـد. وقعها معه المجتمع كله في ذلك الحـين. باسـتثناء الأقليـة المثقفة التي كانت تنظر للآثار والمسـاوئ بعيـدة المـدى، ولم تتأخر كثيـرا – يقصـد المسـاوئ – اجتيـاح لبنـان واستفراد إسرائيل بالدول العربيـة نتيجـة غيـاب مصـر التي كانت – على الأقل – تردع إسرائيل عن العربدة.

*** فـي أغسـطس ١٩٩٠ م، وأنـت فـي المنفى،وقعت مغامرة كانت لهـا آثـار فادحـة مـا زلنـا نعاني منها، وستظل إلى أمد بعيـد. كيـف اسـتقبلت مـا حدث، وما تقييمك له؟ المقدمات، النتائج، والتداعيات.**

إف ... قالها بعنـف، فخرجـت الفـاء متفجـرة مشوشة، وكانت كثيرة ... [٣ فـ فـ فـ] مـا لفـت نظري وأنا أتطلع إلى وجهـه، نفسـه الطويـل المكتـوم وهو يخرج حادا فيـرج بطنـه وصـدره ورأسـه. وكـان يطوح بيديه في الهواء كأنه يطـارد شـبحا، ثـم سـحب نفسا من سيجارة ربما تكـون السـيجارة العاشـرة فـي مدى ساعة، ولم يسترسل، قال:

هذا هـو الزلـزال الثـاني بعـد " ٦٧ ". زلـزال حقيقي. **وتوقف فسألت:**

كيف استقبلته؟

– بنفس المشـاعر الداميـة التـي اسـتقبلت بهـا الزلزال الأول، ومـا زلـت حتـى الآن لا أعـرف كيـف نسكت شعوبا وساسة ومثقفين عـن تلـك المجـزرة التـي تحدث يوميا لشعب عظيم كالشعب العراقي.

*** ألم تكتب شيئًا عن حرب الخليج أيامها؟**

– ولا أظن أنني أستطيع.

*** وما أفدح الخسائر؟**

– أنا لا أدري، هل ما حدث للعـراق بسـبب تبلـد الشعور القومي العربي، أم تبلد هـذا الشـعور نتيجـة لمـا حدث في العـراق! مـا أريـد أن أقولـه لـك: إن مسـألة الشعور القومي ليست مسـألة أيديولوجيـة. إنهـا حيـاة أو موت. كيف يغيـب عـن وعينـا وعـن فعلنـا إدراك أن تحطيم الشعب العراقي، مقدمـة لتحطـيم بقيـة الشـعوب العربية على مهل وافتراسها واحدة بعـد الأخـرى. كيـف يغيب هذا عنا!

*** ألا تلاحظ شيئًا؟**

– نعم.

*** إن الكويت لم يرد لها ذكر في كلامك.**

في الحقيقة، أنـا كتبـت كلمـة عاطفيـة سـاذجة وقت الأزمة، لم يعبرها أحد، اقترحـت فيهـا أن ينسـحب صدام من الكويت فورا، وأن يقوم بـين العـراق والكويـت اتحاد كونفدرالي، تجنبا للحـرب. أنـا أدرك الآن أن هـذا الحل رومانسي خايب لا يمكن تحقيقه.

*** ولمـاذا لـم تطالـب بانسـحاب العـراق مـن الكويت، على أن تبقى الكويت دولة لهـا سـيادتها بعيـدا عن أي اتحاد.**

- أنـا قلـت ذلـك، لأن الانسـحاب كـان معنـاه إقرارا بالهزيمة، والعراق لم يكن مستعدا لشـيء مـن هـذا القبيل في ذلك الوقت. لـيس حفاظـًا علـى مـاء الوجـه، وإنما أن تخـرج مـن المحنـة بشـيء إيجـابي ... أولاً يكون حلاً عربيا، ثانيا يحقـق للكويـت مطلبهـا وهـو أن تظل دولة مستقلة، ويحفـظ لنـا العـراق، قـوة عظيمـة

محسوبة للرصيد العربـي، ولكنهـا أصـبحت مخصـومة منه.

*** إذن أنت لا تبرر الغزو.**

– إطلاقًـا طبعـا، ولا أوافـق عليـه ولا أقبلـه، ولكننا مع الأسف شاركنا في هزيمة العراق المرة.

*** فـي تصـورك، مـا أهـم القضـايا الأولـى بالمناقشة في عالمنا العربي الآن؟**

– التكامل الاقتصادي والسياسـي طبعـا، لا يوجـد شيء أكثر حيوية مـن ذلـك. أرم جانبـا أي كـلام عـن وحدة الهدف والصف والمصير، وفكر فيمـا قلتـه لـك ... إن أعداءك يتعاملون معك ككيان واحـد، فكيـف تـواجههم متفرقًا! لابد من السـعي أولاً إلـى التوحيـد الثقـافي، ثـم ماذا تعمل الجامعة العربية هـذه، مـا لـم يكـن مـن أول مهامها أن تدعو إلى وحدة التعلـيم والثقافـة فـي الـوطن العربي. لا أعرف كيف يكون لـدينا هـذا العـدد الهائـل من المجامع اللغوية ولا يجمعهـا مجمـع عربـي واحـد. ولمصلحة من عزلة الكتـاب العربـي داخـل حـدود كـل دولة عربيـة، لا يخـرج منهـا إلا بمعجـزة. لا أعـرف!

لكن أهم قضية على الإطلاق هـي مـاذا تفعـل لمواجهـة العدو الصهيوني.

*** الجيل الجديد من الحكـام العـرب، هـل تعتقـد في قدرته على التغيير؟**

سمع السؤال، وقال بغضب: بـص يـا بهـاء أنـا غير مؤهل للكلام فـي التفاصـيل السياسـية، أنـا لسـت رجل سياسة أو محلـلاً أو عضـوا فـي حـزب سياسـي. قلت له: ولكنك مثقـف – قلتهـا بإصـرار – يهـم النـاس رأيك فيما يشغلهم من قضـايا. ونـاورت فعـدت أسـأل: هل هؤلاء الشبان مهيؤون فعلاً للقيادة؟ قال:

– دعنا لا نحكم عليهم مسبقًا، دعنـا نحكـم علـيهم بعد أن نرى أعمالهم.

*** في قطرشاب يحكم من فترة طويلة.**

قلت ذلك بينما كـان يقـاطعني مصـرا – مـا زال – على وجهة نظره ... ألا يـتكلم فـي التفاصـيل، لكنـه مـا إن سـمع كلمـة " قطـر " حتـى نسـي، أو تناسـى إصراره وقال بالتفات مؤكد:

*** قطر هذه قضية أخرى ولي عليها علامات استفهام كثيرة.**

*** ما هي**

– أهمها الدور الذي تلعبه في المنطقة والإعلام والسياسة والعلاقات مع إسرائيل، لا يمر يوم دون أن تستضيف. قناة الجزيرة مفكرا أو صحفيا أو أستاذًا من إسرائيل يتكلم في كل شيء. وما من شيء نعتز به في عالمنا العربي، على قلة ما نعتز، إلا وتجد هذه القناة المشبوهة قد دقت إسفينًا فيه بقصد تشويهه. وما من قضية حيوية ومهمة للمستقبل العربي إلا شوهتها بدعوى الحرية. حاولت مثلاً دق إسفين بين سوريا ولبنان بالكلام عن أن هناك هيمنة سورية على لبنان. حاولت أن تشوه كل تجارب الحكم في مصر. جمال عبد الناصر، السادات، حسني مبارك، وحاولت أن توقع بيننا وبين السودان، ماذا يريدون؟

*** ربما كانت تتبلور توجهات سياسية.**

– طبعا لا شك في هذا. تبلور – بقدر كبير من الدهاء – توجهات سياسية امبريالية تهدف للسيطرة

على هذا الوطن، مـثلاً ... تـذيع برنامجـا عـن الوحـدة القومية ... الخ، وتذيع – بعده مباشـرة! – برنامجـا عـن التيـارات الأصـولية فـي الـبلاد العربيـة، وتستضـيف رموزها في لندن، وتتحـدث عـن هيمنـة سـوريا علـى لبنان ... الخ.

*** قل لي ... لماذا نجحت إسرائيل؟**

– كنا، وما زلنـا، فـي حالـة تفكـك حضـاري وثقافي وعلمي، أما إسرائيل فهي قمـة الحضـارة الغربيـة ... من الذي جاء يحاربك؟ هم خلاصـة جيـوش الحلفـاء في الحرب العالميـة الثانيـة، يحـاربون جيوشًـا تنتمـي للقرون الوسطي.

*** فضلاً عن الإيمان بالفكرة.**

– نجحت إسـرائيل لأننـا ضـعفاء، أمـا الفكـرة فعنصرية تنتمي للأساطير. أي فكرة تنطـوي علـى أقـل قدر من الإنسانية، تلك التي تحرضك علـى طـرد النـاس من أرضهم!

*** هل صور الأدب العربي – على نحو مرض – الصراع مع إسرائيل؟**

أظن أن جهودا كبيرة بذلت في ذلك، مثل غسان كنفاني، شعر المقاومة، الفلسطينية، وعندنا ما كتبه صنع الله في بيروت ... بيروت ... الخ.

*** قيل: إن القضية الفلسطينية هي التي صنعت محمود درويش، سميح القاسم، غسان كنفاني، ما تعليقك؟**

– لو كان هذا صحيحا، لكانت قد صنعت آلاف الشعراء، ولكن هؤلاء شعراء موهوبون، كانت القضية هي موضوعهم.

*** ما رأيك في هوجة التطبيع التي تجري الآن؟**

– غني عن القول أنني ضد التطبيع على طول الخط.

*** لماذا نهرول الآن على شيء رفضناه من قبل؟**

- قال بضيق: لأننا ضـعفاء، كـررت ذلـك ألـف مرة، وضعفاء لأننا ألغينا العقـل ودوره فـي المجتمـع، لا أحزابنا فيها كوادر واعية بأوضـاع النـاس، ولا لمثقفينـا كيان محترم، ولا ... سـكت وتنهـد مـن أعماقـه وهـو يكمل بيأس:

... لأننا ضعفاء يا أخي.

*** هل من الممكن أن يقـوم سـلام بيننـا وبـين إسرائيل؟**

صمت فترة مـن الوقـت قبـل أن يقـول: والله إذا استجيب لكل الحقوق العربية المشـروعة، وعلـى رأسـها عـودة اللاجئـين إلـى ديـارهم، والـذي يبـدو مطلبـا مسـتحيلاً، وعـودة القـدس، وإزالـة المسـتوطنات مـن الأراضي العربية، إذا حدث ذلك، يمكـن أن يكـون هنـاك حديث عن السلام.

*** سلام أم حديث عن السلام؟**

لماذا تريد أن تستدرجني، أنـا قلـت رأيـي. قـال ذلك بغضب، ونظر لي ببهـاء طـاهر نظـرة لا أنسـاها. كانت مرهقة ومعاتبة وزاجرة، لا تقبـل أي عشـم مـن أي

نوع. لم أكن استدرجه كما فهم، بل كانت رغبتي مشتعلة في المضي معه ... عنه وعنا، إلى أبعد الحدود، قال: كفاية كدة، وشعرت بالخجل من إلحاح قد يبدو غير مقبول، على شيء قال فيه ما يريد.

هل كنت أود أن يقول كل ما يريد، أو – بالأحرى – ما أريد!

وقفت أحول عيني بعيدا عنه، إلى برج الجزيرة، الذي يبدو طرفه المدبب من مكاني ... كانت الشمس قد غابت، لكن ضوءا خافتًا كان يضئ المكان.

لا أدري لماذا بدا لي البرج من شرفة الصالون، كوخزة في الضمير ... إبرة حادة وهائلة.

هل حملت الرجل فوق ما يطيق؟

حين قال لي، عقب سؤال " السلام " الفائت، ... هذا الفصل السياسي لا أهمية له في الكتاب. قلت: سنرى، لكن هناك – أيضا – فصل " القضايا الساخنة"، دعنا ننهيه قبل أن أمضي.

* * *

" بقية من ضوء ورمق "

أسئلة في: السياسة، الدين، الفن، وقضايا أخرى

* ... ...

– مصر تتمتـع بحريـة رأي نعـم، لكـن ليسـت هناك ديمقراطية، هنـاك حريـة كـلام. أمـا الديمقراطيـة فهي حرية الكلام وحرية الفعل. إنها شيء صعب.

* ... ...

– أحزابنا السياسـية – للأسـف – أحـزاب مـن ورق، أحزاب رديئة جدا بما فيها الحزب الحاكم:

* ... ...

– الوحدة الوطنية هـذه مسـألة حيـاة أو مـوت، وجود أو فناء، على فكرة، رفاعـة أيضـا، وأنـا اعتبـره رأس النهضة المصرية، هو أول مـن انتبـه إلـى قضـية الوحدة الوطنية حين قـال: إن مصـر أم لبنيهـا، والأم لا تفرق بين أبنائها.

* ... ...

– بعض الناس يقولـون: إن الشـريعة الإسـلامية مطبقة بنسـبة ٩٩ % فـي القـوانين القائمـة حاليـا، ولا

تبقى إلا بعض التفاصيل الخاصة بمسـائل مثيـرة للجـدل والتي لا يعتبر تطبيقها حتميا.

أما إذا كنت تقصـد بالشـريعة الإسـلامية الـدول الدينية، فأنا ضـد الدولـة الدينيـة علـى خـط مسـتقيم، أرفضها مهما كانت التطمينات، لأنها ببسـاطة تحكـم فينـا من يدعون فهم الدين.

* ... ...

– أعوذ بالله، كيـف يكـون الفـن حرامـا. كيـف يكون الحق والخير والجمال حراما ونحـن نعبـد الله مـن خلالهم؟

* ... ...

– هذه مسألة حرية شخصية، ولكـن لـيس معنـى أن تضع فتاة أو امرأة الحجاب على رأسـها أن تـتهم مـن لا تضعه بالكفر، إذا سـلمت بالحريـة لنفسـك، يجـب أن تسلم بها للآخرين.

* ... ...

– ظـاهرة الإرهـاب – رغـم انحسـارها الآن – كارثة على المجتمع وعلى مستقبلة.

* ... ...

– الشللية للأسف موجودة بشدة، وبالأخص في الوسط الثقافي. أظن أن منطقهم هو أن المرء ضعيف بنفسه كثير بإخوانه ... يضحك بسخرية ويستكمل ... وبعضهم يقولون: علشان مواجهة الشلل الأخرى. وكلها حجج باطلة، لأن الفن إبداع فردي، وعلى الكاتب أن يحافظ على درجة من الاستقلال بعيدا عن أي شلل.

* ... ...

– أتابع كتابة الشباب بكل حب واهتمام. لا تنس أنني قدمت كثيرا ممن كانوا شبابا، وقت عملي في البرنامج الثاني. كنت أقدمهم – بحب – في " بريد المستمعين " والآن صاروا ملء السمع والبصر.

وبعد ما سافرت إلى الخارج، كنت أحرص على أن يكون في حقيبتي إصدارات الشباب. حاليا أتابع بشغف كتابتهم. آخر مقالين كتبتهما في الأدب، واحد عن مجموعة نجيب محفوظ الأخيرة، والمقال

الآخر عن روايـة اسـمها " دكـة خشـبية تسـع اثنـين " لكاتب جديد اسمه شحاتة العريان.

أنـا أتـابع باسـتمرار الأصـوات الجديـدة دون إصدار أحكام قيمية مستندة إلى الأجيـال. إن جيلنـا كـان يعمل كذا وجيلهم يعمل كـذا. أنـا لا أعـيش حيـاتهم ولا هم يعيشون حياتي. أنا أقرؤهم باهتمـام وحـب، وأرفـض أن أكون وصيا علـيهم، كمـا رفضـت فـي أول حيـاتي وصاية الجيل السابق على.

* ... ...

– ردة فكرية، ودي محتاجة سـؤال! طبعـا هنـاك ردة فكرية فظيعة في المجتمع العربـي كلـه، لا المجتمـع المصري فحسب.

* ... ...

– بطبيعة الحال، هنـاك محنـة تواجـه التنـوير، والخروج من هذه المحنة من أشـق الأمـور، لأن العيـون تكلسـت، وللسياسـة دور فـي ذلـك. وللإعـلام والفقـر وتدخل الدول النفطية دور، وتـدخل الـدول الاسـتعمارية له دور، عوامل لا أول لها ولا آخـر. الحمـد لله أن هـذا

المشروع لم يمت تماماً. ما زالت هناك بقية من مقاومة ... بقية من ضوء ورمق.

* ... ...

– مقارنة بما عانيناه لا توجد أزمة نشر. هناك سلاسل كثيرة لنشر الإبداع الجديد. فضلاً عن النشر الإقليمي. لكن كل ذلك أضع أمامه علامة استفهام. لأن هناك مواهب حقيقية، خاصة في الأقاليم، ولا تجد طريقها إلى النشر. هل هذا جزء من الخلل الثقافي العام؟ لا أعرف.

* ... ...

– مرة كتبت عن كلمة قالتها الدكتورة نعمات أحمد فؤاد وأعجبتني، قالت: ما فيش أغاني شبابية، هناك أغاني هبابية ... يضحك، والدكتور على الراعي، وكان بالمناسبة صاحب صوت جميل. كم مرة سمعته يغني لعبد الوهاب القديم، كان مهموما بحالة الغناء، وما آل إليه بعد عبد الحليم، ومحمد قنديل، وفايزة أحمد، وأم كلثوم.

ماذا حدث. لا أتساءل عما حـدث فجعـل هـؤلاء المطربين يغنون. كل واحد في الدنيا مـن حقـه أن يغنـي! إنما ماذا حدث للذوق العام الذي يتقـبلهم بهـذه السـهولة، لا كلمات ولا ألحان ولا أصـوات. مـاذا يبقـى إذن؟ أنـا مندهش يا أخي. طبعا هناك استثناءات. أنـا أحـب أنغـام وبعض أعمال ماجـدة الرومـي، وبعـض أعمـال محمـد الحلو، أما الأسماء التي ذكرتها لك، فأنـا أسـمعها طـوال الوقت تقريبا.

* ... ...

- لا أعترف بهـذه التسـمية ... الأدب النسـائي، حتى الكاتبات اليوم يرفضـن هـذه التسـمية. إمـا أدب أو لا أدب، سواء كتبه ذكر أو أنثـى، ولكـن يمكـن، نظـرا لأن الكتابة كانت على مدى التاريخ همـا ذكوريـا، يمكـن أن نكتشف بعـد مـرور زمـن طويـل، الإضـافة التـي أضافتها المرأة للأدب.

* ... ...

- لم أقترب من أدب الخيال العلمي، ولا أحبه.

* ... ...

– أحب الرواية البوليسية جدا ... **ضاحكًا** ... بجد، أنا نشأت عليها ... على أرسين لوبين، وأجاثا كريستي، وشرلوك هولمز. وما زلت حتى الآن حين أمر بأزمة نفسية أرجع إلى أجاثا كرستي واستغرق فيها، وفي أحيان كثيرة أتوصل لحل لغز الجريمة. **نضحك معا**.

* ... ...

– المرأة طوال عمرها كانت تعمل. من أيام الفراعنة وهي تعمل. في الريف المصري تعمل. الذين يتحدثون عن عمل المرأة، يقصدون المرأة البرجوازية في المدينة. يريدون لها أن تبقى محظية كما كانت على مدى التاريخ. أما المرأة العادية، سواء في مصر أو في الهند، أو في أفريقيا، فهي تعمل دون شوشرة أو لغط. هذه حاجة اجتماعية واقتصادية ملحة. وأنا قرأت أن ٢٥ % من الأسر تعولها امرأة. لعدم وجود عائل. ما المقصود إذن بإثارة مثل هذه المسائل؟

* ... ...

– ما يثير الدهشة حقًا، هو عدم وجود هذه " السلبية " لا وجودها ... **قالها بسخرية ثم ضحك مستأنفًا** ... إذا كانت كل المبادرات تواجه بالقمع. يا راجل دا أنا كنت مرة في إحدى الجامعات ألقي محاضرة، ففوجئت بالأستاذ الذي دعاني يقول لي على استحياء: ما فيش داعي ندخل في السياسة!!

شوف أستاذ الجامعة خايف تتهور، وأنت تتكلم في الأدب فتدخل في السياسة! قمع المبادرة والتعرض للمخاطر بسبب ... لا أقول بسبب الشجاعة، وإنما من أجل أن تعيش حياة طبيعية. هذا القمع جعل الناس في غاية السلبية.

* ... ...

– اسأل الجماعة الاقتصاديين عن البطالة.

* ... ...

– الأمية مشكلة المشاكل. أذكر أن بابا شارو – الله يرحمه – قال لنا في سنة ١٩٧٢ م، عندما كنت أحضر دراسات عليا في جامعة القاهرة، تصوروا أن اللجنة التي عملت دستور ١٩٢٣ م حددت أنه بعد ٥

سنوات سيتم القضاء نهائيا على الأمية فـي مصـر. يعنـي في سنة ١٩٢٨ م. ونحن الآن – يقول بابـا شـارو – فـي سنة ١٩٧٢ م، ولم يحدث شيء.

أنظر نحن الآن فـي سـنة ٢٠٠٠ م ولـم يحـدث شيء! في حين أن القضـاء علـى الأميـة هـو الخطـوة الأولى لنجاح أي تنمية فـي هـذا المجتمـع، لـيس فقـط الأمية الكتابية، إنما الأمية العلمية والثقافيـة بوجـه عـام. وبما أن ذلك لا يحدث، فإن كـل خططنـا للتنميـة تتعثـر، مع أن المسألة في غايـة البسـاطة ... فـي كوبـا قفلـوا الجامعات لمدة ٣ سنوات حتى قضوا علـى الأميـة، كـان الطلبة والأساتذة يعلمون الناس، هـذا أكسـب ألـف مـرة من جامعات مفتوحة، لكنهـا لا تفيـد أحـدا. لـيس هنـاك لغز إذن. ما ينقصنا هـو الإدارة السياسـية لكـي نقضـي على الأمية وغيرها من المشكلات.

* ... ...

– هذه مشكلة يا أستاذ بهاء أنا جاهـل بهـا تمامـا، لكني أذكر – في جيلنـا – أن متعـاطي المخـدرات كـان

شخصا محتقرا، مـا أراه الآن مـرض اجتمـاعي يحتـاج لعالم اجتماع.

* ... ...

– مع الأسف الشديد، وأقولها بكـل ألـم: إنـه لـم يعد لدينا جامعات. طه حسـين الله يرحمـه، كـان يقـول: إن في مصر جهلاً يحمل الـدكتوراه، أنـا أسـمع أسـاتذة في اللغة العربية يخطئون في اللغـة. وقـال لـي صـديق، أستاذ في كلية الطب: إن بعـض الأطبـاء يخطئـون فـي قراءة نتائج التحاليل المكتوبـة بالإنجليزيـة، وهـذا يمثـل خطرا على حياة الناس، الجامعة فـي حاجـة إلـى إعـادة نظر من الألف إلى الياء.

أذكر أن أستاذنا الدكتور محمد فـؤاد شـكر، دخـل علينا في قسم التاريخ فشهق، قال ٢٠ طالبـا فـي سكشـن: دي بقت مدرسـة ابتـدائي، **يضـحك يتحسـر** ... التعلـيم الحقيقي أن تتلقي العلم عـن أسـتاذ بينـك وبينـه علاقـة حميمة، فهل يمكن أن يحدث ذ لـك الآن، هـل يمكـن أن تكـون هنـاك صـلة حميمـة بـين أسـتاذ و ٥ آلاف طالب ... كيف؟

* ... ...

– بـرغم كـل الظـواهر التـي تـوحي بـالعكس، وبرغم ضرب الانتماء في مناطقـه الأصـيلة ... زي مـا لكش دعوة، وأنـت مالـك ... الـخ. لكنـي أتصـور أن الانتماء لمصر عميق جدا لدى المصـريين. لكنـه يظهـر في وقت اللزوم، زي حكايـة الطيـار علـى مـراد الـذي رفض أن يفتش الإسرائيليون طائرته. كـل الـرأي العـام تضامن معه.

أنا أعتقد، بـرغم ضـرب الانتمـاء علـى مـدى فترات طويلة، وأسمح لنفسي أن أقـول: إن بدايـة ضـرب الانتماء جاءت مع تبرير السادات لوقـف حـرب أكتـوبر ؛ بحجة أنه خائف علـى أولاده! كأنـه يقـول للنـاس: إن التضحية من أجل الوطن عبث. بدأ ضـرب الانتمـاء مـن هنا، وأصبحت الولاءات لدول الخلـيج، بـدلاً مـن مصـر وحلمها الذي حدثتك عنه. لكن الانتمـاء مـا زال عميقًـا – رغم ذلك – في أعماق المصـريين. يظهـر فقـط – فـي اللحظات الجادة.

* ... ...

– تابعت، باهتمام شديد، تفاصيل قانون الأحوال الشخصية الجديد، وأوافق عليه بشدة؛ لأنه، كما قال أحد القضاة: من العار على رجل أن يمسك امرأة لا ترغب في الحياة معه.

* ... ...

– فيها جانب إيجابي، وجانب سلبي. الجانب الإيجابي في المركزية، أنها حافظت على وحدة النسيج المصري من أيام الفراعنة حتى يومنا هذا. مصر من البلاد النادرة التي لا تجد فرقًا فيها ما بين أقصى قرية في الصعيد، وأقصى قرية في الدلتا. وفي إحدى القصص قلت ... كأن النيل قد صنع النموذج، نموذج القرية، ورماه على جانبيه.

روح الوحدة هذه شيء إيجابي طبعا، لكن الشيء السلبي أنه لا يتيح فرصة للمبادرة الفريدة ويؤدي إلى الكارثة التي تكلم عنها الراحل العظيم جمال حمدان، من أن مصر كلها عبارة عن رأس كاسح، هو العاصمة وجسد كسيح هو الإقاليم، وليس

هذا شيئًا قدريا. إنما هو شيء يمكن علاجـه عـن طريـق الأخذ بقدر أكبر من الـلا مركزيـة ... أن نعتبـر الحكـم المحلي أداة لتنمية الأقاليم، لا لضـمان ولائهـا للعاصـمة. ممكن، لكني لست مع التفتيـت، أنـا مـع التخفيـف مـن قبضة المركزية، لكني لست مـع التفتيـت. مصـر ليسـت كذلك.

* ... ...

– الفطرة السليمة هي الـدين السـليم، وإذا كانـت الفطرة تقول: إن الانفجـار السـكاني يحـول دون التعلـيم الصحيح والعيش الصـحيح، فتنظـيم النسـل هنـا شـيء يتفق مع الدين، لأن الـدين يريـدنا أقويـاء وأعـزاء. لـو نحن أقل، وليست لدينا أيد عاملة كما يقـول يحيـي حقـي، كان لابد أن نتكاثر ونتناسل. هذه هي الفطرة السليمة.

* ... ...

– اسأل الاقتصاديين عـن المشـروعات القوميـة العملاقة هذه، أنا لا أفهم في هذه المسائل.

* ... ...

– الفســاد الإداري موجــود فــي مصــر طــوال عمرها. اقرأ المقريــزي والجبرتــي "و الكتــاب الأســود " لمكرم عبيد، ومــا كتــب عــن نظــام الحكــم الناصــري. الفساد موجــود، لكــن المشــكلة تتعلــق بالمبــدأ. تتعلــق بالدرجة ... درجــة الفســاد الإداري. مكــرم عبيــد كــان يعيب على النحاس، وهو مــن أنــزه رؤســاء الــوزارات، أنه رقي مدير مكتبة مــن الدرجــة الرابعــة إلــى الثالثــة متخطيا زمــلاءه ... يضــحك ســاخرا ... هــذه الواقعــة الآن وسام شرف علــى صــدر النحــاس باشــا. الخــلاف حول درجة الفســاد التــي أصــبحت عميقــة جــدا، هــذه الأيام، وسببها بســيط ... أن المرتبــات لــم تعــد تكفــي المعيشة. إذا لــم تعــط الموظــف الــذي يمســك بمقاليــد البيروقراطيــة المصــرية فــي يــده مرتبــا يكفيــه، مــن الطبيعي أن ينحرف.

* ... ...

المنحرف موجود على مــدى التــاريخ ولا يشــكل نسبة. وغالبا ينكشف آخر الأمــر زي ســرحان البحيــري

في " ميرامار "، الانحراف موجود دائمـا، لكـن المصـيبة أو الكارثة أن يتحـول الانحـراف إلـى قاعـدة، سـاعتها سيسرق أيضا غير المحتاجين الـذين تسـألني عـنهم. أنـا قرأت في إحدى الجرائد الأجنبيـة أن الحكومـة المصـرية تتظاهر بأنهـا تعطـي لموظفيهـا مرتبـات، والموظفـون المصريون في المقابل يتظاهرون بـأنهم يـؤدون أعمـالاً، ضحك، ولكنه ضحك كالبكـاء!، ثـم أكمـل ... الموظـف يبحث عن المـورد الـذي يكفـي معيشـته، يعمـل آخـر النهار سائق تاكسـي، أو فـي بقالـة ... الـخ، والأغلبيـة تستسهل فترتشي، قل لـي: مـاذا يعملـون!! الفسـاد حـل سهل ... نزل الأسعار أو ارفع المرتبات!!

* ... ...

ضحك بمجرد مـا سـمع ... الانتخابـات، ضـحك طويلاً ورددهـا بصـوت خافـت سـاخرا، كمـن يحـدث نفسه ... الانتخابات! لم أندهش، فقـد كنـت أعـرف رده، لكني مثلت الدهشة وسألته: لماذا تضحك؟ فقال:

اسمع هذه النكتـة، مـرة أخـى الطبيـب، تـوفى رحمه الله، وكان من أعـز أصـدقائي، مـرة ذهبنـا معـا

لأحد الاستفتاءات، قلنا: عـايزين نعـرف حكايـة النتيجـة دي اللي بتطلع دايمـا ١٠٠ %، رحنـا للجنـة السـعيدية الثانوية في الجيزة، صـوتنا ... بـ ـ " لا " مـش متـذكر موضوع الاستفتاء، لكن النتيجة خرجـت مـع ذلـك ١٠٠ %. **يضحك**.

أيضا، واحد قريبـي فـي مصـر الجديـدة عمـل تجربة أخرى، كان بيته قريبا مـن اللجنـة، فظـل يراقـب المترددين حتى الخامسـة، كـانوا قلـة قليلـة لا تتجـاوز عشرات، لكنه قرأ في جرائد الصـباح، أن النـاخبين فـي هذه اللجنة كانوا بالآلاف.

يا أخي الشعب المصري، لم يعد يثـق فـي حكايـة الانتخابات هذه، لكن أملي كبير فـي أن يجعـل الإشـراف القضائي على الانتخابات، أن يجعـل لهـا مصـداقية عنـد الناس. أتمنى.

* ... ...

– الذوق العام فـي غايـة التـردي، ولـيس هـذا ذنب الناس. الناس على دين موجهيهم، فـإذا كـان التعلـيم لا يربي لدى الـنشء القـدرة علـى تـذوق الجمـال، وإذا

كان الإعلام يبث القبح والأعمال المتخلفـة، فكيـف تريـد من الناس أن يكون عندها ذوق، وإذا كـان التوجـه العـام الآن نحو الثروة ... إللـى معـاه قـرش يسـاوي قـرش. كيف تريد أن يكون لدى الناس ذوق. الـذوق العـام عـاني من انحطاط رهيب في العقود الأخيرة.

" عن العالم، والمذاهب، والأصدقاء "

*** روح العالم، ماذا تعني بالنسبة لك؟**

– أسأل باولو كويلهـو، أنـا لا دخـل لـي بهـا، وليس لدي مفهوم عنها.

*** هل تعتقد أن هذا العالم مؤمن؟**

– طبعا هذا العالم مـؤمن علـى مـدى التـاريخ. كما أن هناك جوعا للجسـد، هنـاك جـوع للـروح، وأي مذهب أو فكرة يغفل هـذه الناحيـة، فـإن مصـيره إلـى الفشل.

*** منذ مطلع التسـعينيات، يسـيطر علـى العـالم قطب واحـد هـو " أمريكـا " إلـى أيـن سـتأخذنا فـي تصورك؟**

سـكت لحظـات وبـدأ يتحـدث ... إلـى طريـق مسدود في الحقيقـة. أولاً، ولا جديـد فـي المسـألة، مـا يحدث الآن هو ما كان يحدث طـوال التـاريخ، إن الحكـم لمن غلب كما يقـول ابـن خلـدون. أمريكـا غلبـت فـلا غرابة في أن تحكم. كـون هـذا الحكـم يبقـى اسـمه ... الاستعمار، الاحـتلال، الاسـتعمار الجديـد، العولمـة ...

الخ، المسألة هي هـي. إن الحكـم لمـن غلـب، وتـاريخ أمريكا، مع الأسف الشديد، فـي حكـم مـا تضـع يـدها عليه، لا يبشر بأي خير، سواء مـن ناحيـة إبـادة الهنـود الحمر في القارة، أو التعامل مع الزنـوج داخـل أمريكـا. أو من ناحية القنبلة الذرية التي ألقيـت علـى هيروشـيما، أو من ناحية مـا يخصـنا نحـن ... الانحيـاز المسـافر لسرقة وطن منا.

لا يبشر حكم الغالـب الآن بـأي خيـر. بـالأمس فقط خطرت لي فكرة – لا أدري مبعثها – لمـاذا لـم تلـق أمريكا القنبلة بعيدا عن هيروشـيما أو نجـازاكي ... فـي الصحراء، إذا كان المقصـود هـو الإرهـاب والتخويـف، كما قالت في معـرض التبريـر بعـد ذلـك، الغريـب أن اليابان كانت توشك أن تستسلم!!

لماذا لم يلقوها في مكان خال مـن البشـر. ألـيس المقصود منها هو الإعلام، ألم يكن ذلك أحسـن مـن قتـل ربع مليون إنسان؟

أنا في الواقع خائف، لأن أمريكـا لا ترعـى فـي أحد إلا ولا ذمة.

*** بماذا تسمى القرن العشرين؟**

– لست أنا الذي أسميه. هو قرن الأحلام العظيمة والإحباطات العظيمة. بدأ القرن بأحلام العدالة الاجتماعية وانتهى بالعولمة. وفي مصر بدأ بثورة ١٩١٩ م، وتحرير المرأة، وأحلام الحرية والجامعة، وانتهى بالتكفير والهجرة وعذاب القبر، والتعليم الذي لا يعلم شيئًا. مأساة!

*** أدباء ترى أنهم تاريخيون، بمعنى أنهم غيروا مجرى الأدب في القرن العشرين.**

في مصر أم العالم

في مصر، طبعا طه حسين هو أول اسم، وهناك شوقي، وصلاح عبد الصبور، ونجيب محفوظ مؤسس الرواية، ويوسف إدريس ... احد عباقرة القصة، أما في العالم، فهناك أنطوان تشكيوف، أول اسم يخطر على بالي. وديستويفسكي، رغم أنه مات قبل بداية القرن العشرين، إلا أن تأثيره امتد على مدى القرن. هناك أيضا كافكا، وهيمنجواي، وسارتر، وألبير كامي، وجارثيا ماركيز، وليم فوكنر، أندريه مالرو.

وفي مصـر لابـد أن تـذكر – أيضـا – ثـروت عكاشة وأثره التاريخي، والعقاد، ولو أنـي لسـت معجبـا به.

لماذا؟

– العقاد عقلية جبارة، لا أشـك فـي هـذا، ولكـن في نهايـة الأمـر لا أدري مـا رسـالته. أي كاتـب مـن الكتاب الذين ذكرتهم لك، له رسـالة، ولكـن مـا رسـالة العقاد؟

قالهـا بحسـم مسـتفز. ودافعـت عـن رسـالة العقاد، لكن لم يبد عليه أنه اقتنـع، وظـل صـامتًا لمـدة دقيقة ثم رد بقوله:

– أنا قرأت للعقاد وخرجت بالنتيجـة التـي قلتهـا لك: إنه عقلية جبـارة. أو دعنـي ألخـص لـك المسـألة بشكل آآخر ... أنـا كنـت أراوغ، لكـن أصـارحك الآن، أو أسألك ... لـو لـم يكـن هنـاك العقـاد، مـاذا كانـت ستخسر الثقافة المصرية، أنا أقول لـك: مـاذا تكـون قـد خسرت، لو لو يكن هناك طه حسـين أو ثـروت عكاشـة

أو صلاح أو أي اسم ذكرته لك. لكن مـاذا كانـت تخسـر مصر، ولو لم يكن هناك العقاد؟ لا شيء!!

يكفي يا أستاذ بهاء أن العقاد جعـل للكتابـة قيمـة، وللكاتب: لأنه كاتب، لا شيء آلخـر، فـي عصـر كـان يتهكم على " الأدباتية ".

أنت تتحدث عن الإنجاز.

الإنجاز رسالة، فضلاً عـن أهميـة العقـاد كناقـد وكاتب كرس حياته للتجديد والتنـوير والـدفاع عـن قـيم الحرية والعدالة.

أنا أتحدث عن الأثر الثقافي في المجتمع.

ثم سكت لحظة متحيرا واستأنف كلامـه ... أنـا الآن أراوغ – أيضا – فـي الحقيقـة، لأن الأثـر الثقـافي للعقاد في المجتمع أثر مـدمر، التلميـذ المباشـر لـه هـو سيد قطب، وإذا مددت جذور الفكـر السـلفي الآن ارجـع بها للعقاد!! أنا كنت أعفي نفسي حين قلـت: إنـه لا تـأثير له، كنت أعفيها من إصـدار هـذا الحكـم، لكـن وأقولهـا بكل صراحة. أثـر العقـاد سـلبي ولـيس إيجابيـا. ثـم مستدركًا بسـخرية قـال متكئـا علـى التنـوين: ولـيس

إيجابيا، وضحك. من ناحيتي لم أوافقه الرأي، لكن سكت وسألته ... الشرق أوسطية، النمور الآسيوية، العالم الثالث. الأوهام، والأحلام، والواقع. كيف ترى المستقبل. فقال:

أنت تدري أنت قومي عربي، وأقول هذا دون خجل، ولكن قومي عربي ليس بمعنى الاعتراف بمشايخ البترول، إنما قومي عربي بمعنى الإيمان بأن توحد العرب هو توحد للمستقبل، ولكل القيم التي حدثتك عنها. أما الشرق أوسطية فتعني التخلي عن هذا الحلم. تعني القبول بالتبعية والعولمة وبكل الآفات البغيضة. أنا دون أن أكون خبيرا بالاقتصاد أو بالاستراتيجية، هناك شيء ما يجعلني – بالحدس – أرفض هذا المصطلح رفضا مطلقًا.

والنمور الآسيوية:

– لست خبيرا اقتصاديا كما قلت لك، ولكن لدى تساؤل ... لماذا، إذا كانت نجحت هذه التكتلات، لماذا انهارت فجأة. أنا يخيل لي أن اقتصاد هذه الدول اقتصاد تابع. ما زالت منطلقات عبد الناصر – دون

الدخول في جدل حول الناصرية – سليمة ... أن يبقى لديك نوع من الاستقلال الاقتصادي، رفض التبعية للأسواق العالمية حتى لو جعت أو عشت ببطائق التموين. أذكر، هل قلت لك، حكاية كتبتها مرة. أيام صدرت قرارات التأميم، أدهش جدا أن أجد من ضمن الثائرين على هذه القرارات أناسا لا يملكون شرونقير. غريبة ... هذه القرارات لصالحهم ومع ذلك. أنظر ماذا فعلوا؟ هل الإنسان يؤثر الاستئثار على العدل؟ هذا سؤال مهم جدا. لماذا فشلت على مدى القرن تجارب الاشتراكية، والعدالة الاجتماعية، وشعارات الإخاء والمساواة، هل لأن هذه الأفكار تريد من الإنسان شيئًا من التضحية، والإنسان – بطبيعته – لا يضحي. هل الإنسان يطمح لأن يكون متملكًا لكل شيء؟ لا أعرف!!

والعالم الثالث.

– بنظام العولمة هذه، سيرجع إلى الوراء أكثر. الضعفاء في مجتمع الغابة لا مكان لهم.

*** التسعينيات، لماذا خلت من العمالقة في العالم؟**

– هذه هي بشاير العولمة، ولكن يـا أخـي النـاس تحن دائما للعظمة، كاسترو في قمة الألفيـة الأخيـرة، كـل الناس ذهبت إليـه دون بقيـة الرؤسـاء. لمـاذا؟ وعنـدما عرض فيلم " عبد الناصر " الـذي قوبـل بتعتـيم شـديد، كادت الناس أن تكسر دور العـرض مـن الزحمـة، أريـد أن أقول: إن الناس ما زالـت تحـن إلـى الرمـوز التـي تجسد أحلامها، فالبشـر هـم إفـراز الواقـع الاجتمـاعي والسياسي، وإفراز التحدي.

وارد أن يخرج مـن بيننـا الآن شـخص عمـلاق في مجتمع ما، ولكن كما قـال جمـال الـدين الأفغـاني " بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثـرة، والغمـة تلـد الهمة ".

*** في اعتقادك، ما أهم المذاهب التـي أثـرت فـي الواقع الثقافي المصري في القرن العشرين؟**

– الاشـتراكية طبعـا هـي أول شـيء. كـانوا يسـمونها فـي بدايـة القـرن العشـرين " الاجتماعيـة " تقريبا، فـي حقبـة السـتينيات كانـت هنـاك الوجوديـة كمسعى للخـلاص الفـردي والحريـة الفرديـة. أظـن أن

هذه كانت أهم التيارات، ولا تـنس الليبراليـة التـي مثلهـا على مدى عقود طويلة الوفد، والسلفية الآن.

*** الحداثـــة، العولمـــة، مفاهيمنـــا لهـــذه المصطلحات تشبه – كما يقـال – وصـف عميـان لفيـل! ماذا تعني لك هذه المذاهب، وما مستقبلها؟**

– أنا شخصيا أفهم الحداثـة علـى أنهـا اسـتجابة لمتطلبات العصر الحـديث الـذي لا يكـف عـن التجـدد باستمرار. كلما كان هنـاك تجـدد فـي المجتمـع، كلمـا كانت هناك حاجة إلى تجدد فـي الأدب والفكـر والسياسـة والاقتصاد وكل شيء.

الواقع الحـديث يفـرض معالجـة حديثـة، وهنـا تصبح كلمة " حديثة " نسبية، لأن ما كـان حـديثًا منـذ ٥٠ عاما لم يعد حديثًا الآن. أو حتى بعد عشـر سـنوات، أمـا الحداثة الكهنوتيـة التـي تتعلـق بأسـاليب فـي التعبيـر ويرجع فيها إلى كهنة مخصوصـين فـي الغـرب، فهـذه حداثة لا مستقبل لها. وأفخر بأنني أجهلها!!

*** والصخب الذي يدور حولهـا الآن فـي مصـر، ما تعقيبك عليه؟**

– هو جـزء مـن تخلينـا عـن معركـة حداثـة الحقيقة التي خاضها رواد الفكـر المصـري منـذ القـرن التاسع عشر. الحداثـة الحقيقيـة هـي مواجهـة تحـديات الواقع الحديث طبقًا لمتطلبـات كـل مرحلـة، هـذه هـي الحداثة التي أفهمها.

*** العولمة؟**

– العولمة، هي اسم الدلع للهيمنة.

*** كيف ترى العالم الآن؟**

– العـالم الآن، فـي حالـة مخـاض، ولا أحـد يستطيع أن يتنبـأ بنـوع المولـود القـادم. المعركـة فـي تصوري هي معركة بين تلـك العولمـة/ الهيمنـة، وبـين النزعة الإنسانية الفطرية إلى الاستقلال والحرية.

*** ماذا تعني الصداقة بالنسبة لك؟**

– هي أنبل علاقة إنسانية، أنا دائمـا أقـول ذلـك، سواء أكانت صداقة بـين رجـل ورجـل، أو بـين رجـل وامرأة، بكافة أشكالها.

في الحب المسألة أخذ وعطـاء، علاقـة الصـداقة هي أكبر مكسب كسبته في حيـاتي. وفقـدان مـن رحلـوا من الأصدقاء يشـعرني باسـتمرار أننـي شـخص غيـر الذي كنته من قبل. شخص مبتـور. شـعرت بـذلك حـين مات صديقي أحمد حسن، رحمـه الله. كـان أحمـد شـقيق روحي منذ تعرفت عليه من عشرين عاما.

*** وما رأيك في صداقة المسلم لغير المسلم؟**

ضحك وقال في براءة: يـا أخـي أنـا أعتقـد أن كل الديانات تحـض علـى الصـداقة، لـم يكـن سـؤالي مقررا سـلفًا، بـل أردت أن أداعبـه أو أذكـره ... كـان بهاء طاهر هنـا فـي مطـروح، رئيسـا لمـؤتمر أدبـاء مصر في دورته الخامسـة عشـر ... سـبتمبر ٢٠٠٠م، ومكث فترة بعد انتهاء الدورة. وفي أحـد المسـاجد كـان يصلي الجمعة حين لفتت نظره ثـورة الخطيـب العارمـه ونهيه عن صداقة المسلم لغيـر المسـلم، كـان الخطيـب قاطعا وهو يحرم هذه الصـداقة. واندهش بهـاء طـاهر وهو يخبرني مـن أن ذلـك يحـدث وفـي مسـجد تـابع

لوزارة الأوقاف!!! قلـت لـه ... وربمـا فـي الكنـائس أيضا. تبقى كلمت!!.

كيف يريدون منـا أن نعـيش فـي سـلام، قـال منفعلاً، كيف يسمحون لهذا الخطيب أن يقول ذلك؟

قلت له: اكتب جزءا آخـر مـن " خـالتي صـفية والدير "، وعدت أسأل: ماذا تفعل حـين ينقلـب الصـديق إلى عدو؟

– قـال: ادفـع بـالتي هـي أحسـن، أو عليـك بالسكوت

* * *

" رأس مثقل بالتساؤلات "

*** لماذا تحب الليل؟**

– والله لا أعرف، احتمال لأنني أحب الهدوء.

*** ما أول فكرة تخطر على بالك حين تصحو من النوم؟**

– أن أستأنف النوم مرة أخرى. يضحك، لكن بالليل تأتيني أحلام يقظة كثيرة. أتخيل أنني في بنما أوفي العصر العباسي، أو أتحاور مع الملك فاروق، وأظل هكذا حتى يدب النعاس في عيني.

*** ما أكثر شخصية ترددت في أحلام يقظتك.**

– الملك فاروق.

*** لماذا؟**

– لا أدري.

جاملني في أشياء كثيرة، أهمها أنني استطعت تجاوز محن كثيرة في حياتي، ربما تعثر فيها غيرى. مثلاً أنا أنهيت تعليمي الجامعي، رغم ظروف الفقر الشديد، وعملت لمدة عشرين سنة في مكان أحبه وهو الإذاعة المصرية. ومنها أنني تماسكت حين فصلت من

الإذاعة، وعملت بالأمم المتحـدة، وأديـت رسـالتي نحـو بناتي فيما أعتقد.

*** أي الأشياء يحرك دوافعك العميقة؟**

– الظلم في أي صورة من صوره.

*** حدثني عن عيوبك.**

– أنا أضحك عندما يسألون أحـدا فـي التليفزيـون هذا السؤال، فيقول: عيبى الصـراحة ... يضـحك، وكـان عقلة الذي لا ينام أبدا قد أعد الإجابـة أثنـاء ذلـك، والآن يتكلم ... أنا لست صريحا، وهذا عيبـي الأول، أنـا أكـتم ما ينبغي أن يقال، وربمـا كـان هـذا سـببا فـي تعـب المعدة. أنا كتوم حتى في علاقـات الحـب. عنـدما أحـب واحدة لا أتخذ خطـوة نحوهـا، إلا إذا شـعرت باسـتجابة منها. وليس لدي حـس عملـي، حتـى اتهمنـي الـبعض بأنني غير طموح. هذه أهم عيوبي.

*** يتفق أغلب النقاد على أنـك مـن أكثـر أبنـاء جيلك موهبة. ماذا لو قيل لك: إنه يمكـن أن تكـون أكثـر سعادة لو أنك أقل قدرا من الذكاء والموهبة.**

فكر بهاء طاهر صامتًا.

ثم رد قائلاً:

سؤال صعب. أولاً، أنا لم أقل عـن نفسـي إنني أكثر أبناء جيلي موهبـة، ولا أحـب أن يقـال ذلـك؛ لأن الأحكام عرضة للتغير. دع الزمن يحكـم. إنمـا علـى أي حال لا أفضـل أن أكـون أكثـر سـعادة وأقـل موهبـة. السعادة هذه شيء مجاني.

بمعنى ...

– بمعنى أنها ليست الهدف الأسـمى الـذي يسـعى إليه الفنان، أنا أعتقد أن الامتلاء بالتجربـة أجـدى عليـه، حتى لو كان مصحوبا بالأمل، ثم قال كأنـه يختـار للمـرة الأخيرة: لا، لا أفضل أن أكون أقل ذكاء وموهبة.

* مَنْ من المبدعين شعرت نحوه بالغيرة؟

– الغيرة الفنية تشعر بها من كـل كتابـة جميلـة. ورغم أنني لم أطرح علـى نفسـي هـذا السـؤال، لكنـك تستطيع أن تسألني عن الروايات التـي أعجبتنـي. هنـاك "بداية ونهاية" و " خان الخليلـي " و " العسـكري الأسـود " و " البيضاء " ليوسف إدريـس، وشـهيرة بتاعـة سـعد

مكاوي، و " هكذا خلقت " لمحمد حسين هيكل وأستطيع أن أعد لك كثيرا من الروايات.

*** هل أنت سريع الغضب؟**

– أنا سريع التأثر، إذا كنت تريد الحقيقة. نظرة عين يمكن أن تؤرقني لمدة أيام.

*** قرارات ندمت عليها.**

دعني، أولاً، أحدثك عن قرار لم أندم عليه ... **يضحك** ... لم أندم أبدا على عدم الاستمرار في العمل بدولة خليجية ما. في وقت أزمة مالية طاحنة بعد فصلي من الإذاعة، شعرت أنهم يستعلون علينا بالمال. فلم أستمر أكثر من ثلاثة أسابيع، ولم آخذ قرشًا واحدا ورجعت.

ويقول كأنه يتذكر ... لكن ما القرارات التي ندمت عليها يا بهاء؟ طبعا هناك أشياء خاصة جدا أستطيع أن أكلمك فيها ... كأنك تقدم على علاقات، ثم تكتشف بعد فترة أنها كانت غلط ... الخ. لكن الندم الأكبر أنني قابلت الحب الحقيقي الذي لا يقابله المرء في حياته سوى مرة واحدة، وتركته يهرب من يدي.

هنا في مصر.

لا. قالها وهو يشعر بأسى حقيقي، ثم استأنف ... هذا أكبر قرار ندمت عليه.

*** هل جئت في الوقت المناسب؟**

– كنت أحب أن أكون في مرحلة طه حسين، ومحمد حسين هيكل، وهؤلاء الناس العظام. ثم يضحك ملتفتًا مرة أخرى إلى الندم، قال: تسألني عن الندم. أنا نادم على أنني عشت حتى رأيت صداقة غير المسلم حراما، وعذاب القبر والحاجات دي. كانت الناس في هذا العصر من الممكن أن تتعثر، لكن الحياة كانت تسير إلى الأمام.

الآن أشعر أننا ننحدر من قمة جبل ... لا ... كنت أحب أن أعيش في النصف الأول من القرن العشرين.

*** من كان مثالك الأعلى في الحياة؟**

– طه حسين.

*** بماذا كنت تحلم في صباك؟**

– بشكل أو بآخر، كنت أحلم أن أكون كاتبا.

*** هل أنت انطوائي؟**

– جدا، برغم علاقاتي الواسعة.

*** ألم تحاول علاج هذه المسألة؟**

– هـل مـن المصـلحة أن أعالجهـا. بالنسـبة للكاتب الانطواء شيء مهم.

*** في أي المواد كنت متفوقًا أثناء الدراسة؟**

– في اللغة العربية، لدرجـة أن المدرسـين كـانوا يظنون أن أبي هو الذي يكتب لـي موضـوعات الإنشـاء، وفي التاريخ، لكنني كنت خائبا جدا في الرياضيات.

*** ما إحساسك الآن، وأنت كاتب مشهور؟**

– ولا مشهور ولا حاجة، أنت يخيـل إليـك إننـي مشهور. أنا قلت مرة. لـو أن أعظـم أديـب فـي مصـر مشى بجوار مطرب أو ممثل لقـالوا: مـين إللـي ماشـي جبن فلان ده. أو فـي أحسـن الأحـوال سـيعتقدون أنـه سكرتيره.

*** ما علاقتك بالكمبيوتر؟**

– بناتي يعتبرون أنني أنتمـي للعصـر الحجـري، لأنني لا أفقه شيئًا في الكمبيوتر.

*** ماذا عن الرياضة واللعب في حياتك؟**

– كنت أخيب إنسان، ولو كانـت هنـاك درجـات على هذه الألعـاب لبقيـت حتـى الآن فـي سـنة أولـى ابتدائي.

*** لمن تغني وأنت وحدك؟**

– لعبد الوهاب في أغلب الوقت.

*** بتقول إيه؟**

سكت ليه يا لساني. نضحك معا. كـان كـل شـيء حولنا هادئًا، لا يجرح سكون الليـل غيـر مـوج البحـر، وضحكاتنا ذاهبة إلى أبعد مدى من شـرفة الفنـدق، كـان بهاء طاهر يحس بنشاط غير عـادي مـن خمـس دقـائق فقط قضاها أثناء النهار في مياه البحر، رأيـت مـن بعيـد قامته النحيلة مثل عود قصـب، بكـرش صـغير مترهـل، مغموسة في الماء تحـت الشـمس، ولمـا خـرج كانـت تضوي.

وفي المساء فوجئت به. كان شخصـا آخـر، كـان سعيدا، تكاد السعادة تهشـم جسـمه الضـامر، قـال لـي: أكلت في العشاء كما لم آكـل فـي حيـاتي. قالهـا بمـرح

ظاهر. وها هـو أمـامي فـي الشـرفة، أتأملـه ... بـين لحظتين اختلاف الرجل. لم تكـن ضـحكته السـرية تـذهب بعيدا هكذا، لم تكن لها قرابـة بصـوت المطـر السـخي، ولم يكن هو نفسه هكذا ... لقـد دبـت الحيـاة فجـأة فـي خديـة المتجـوفين، وفكـرت ... إن الفـرح كـامن فـي طباعة العميقة لكنه يعزل مشاعره إلا عمـا يريـد ... إنـه " موناد " محاصـر بـالاعتزال، ذلـك الإنجـاز المطلـق، أرجـع إليـه الآن ... إلـى ضـحكته وأسـأله قبـل أن تتلاشى.

ماذا تغني لعبد الوهاب أيضا؟

– مقاطع من أوبريت " مجنـون ليلـى "، وأحـب جدا عبده السروجي.

غريب الدار.

– آه، وأحب نجاة الكبيرة، وفـايزة أحمـد طبعـا، وكل فيروز، وعبد الحلـيم حـافظ، وأم كلثـوم، وبعـض الأغاني الجديدة. أحب أغنية أنغام. إلا أنـا، وأنـا بعشـقك لميادة الحناوي، أنا أسمع موسيقي وأغاني طول النهار.

*** هل حققت كل أحلامك؟**

– لا أحد يحقق كل أحلامه في الدنيا، وإلا ماذا يفعل بعد ذلك؟

*** هل تقرأ أعمالك بعد طباعتها في كتاب؟**

– نعم، حتى أعرف أخطائي، ولو أن هذه مسألة غير مفيدة ؛ لأن للكتابة حياتها الخاصة بالنسبة لي. لا أستطيع أن أفرض على كتاباتي أي قواعد مسبقة. الكتابة هي التي تقودنى، وعندما أحاول التدخل تكون في منتهى السماجة.

*** ما الشيء الذي تحترمه في بهاء طاهر؟**

– العناد ... أنا لا أستسلم بسهولة لأي شيء.

*** هل قلت كل ما تريد؟**

– لا. هناك أشياء أخرى.

*** لماذا لم تقلها؟**

– لأنها خاصة.

*** إذن لا أستطيع سـؤالك عـن العـادة السـرية مثلاً أو حياتك الجنسية.**

– لا أحب أن أتكلـم فـي هـذا. أنـا أتصـور أن حياة الكاتب فيما يتعلق بالأمور العامة هـي ملـك للنـاس، لكن حياته الخاصة ملك له وحده.

*** ما أكبر المفاجآت في حياتك؟**

صمت طويلاً، فيما يردد كلمـة مفاجـأة ... قالهـا بصوت خافت وأكمل ... يمكـن حصـولي علـى جـائزة الدولــة التقديريــة. وأردت أن أســاعده علــى التــذكر، فسألت ... هل كان طلاقك مفاجأة بالنسبة لك؟ فقال:

علـى الإطـلاق ... النـاس تطلـق فـي لحظـة غضب، وأنا طلقت في سـنوات ... **يضـحك** ؛ لأننـي أب. لم أكن أتمنى أن يحدث ذلك. ولم أفاجأ به.

*** هل تجيد التنبؤ؟**

– أنا أحدس، من الحدس، ولكـن لا أجيـد التنبـؤ، حدسي عال خاصة تجاه الأشخاص. لـيس مـن السـهل أن أنخدع في أحـد. وأغلـب أحكـامي فـي النـاس كانـت صائبة.

*** أهم مرحلة في حياتك؟**

– مرحلة التعليم الجامعي.

*** ألم تتعرض للسرقة المادية أو الأدبية؟**

– قال مبتسما ... للاثنين، وأضاف: سرق مني مبلغ كبير في روما، وله قصة طريفة، فقد ظللت أبحث حتى توصلت إلى زعيم النشالين في روما، طلع اسكندراني **أغرقت في الضحك وضحك بهاء طاهر معي من قلبه. ثم واصل كلامه** ... مشى الرجل معي في المنطقة وهو يقول لي: دي قهوة النشالين الصوماليين، ودي قهوة النشالين اليوغسلاف، ودي قهوة مش عارف إيه. وحاول مخلصا، في الحقيقة، مساعدتي، لكنه لم يوفق. فقال: للأسف المهنة لمت يا أستاذ! لم يكن الرجل يستظرف، بل كان جادا، لأن هناك نشالين خارج النقابة كما قال لي، ولو كان من داخل النقابة، لأمكن العثور عليه. أذكر أنه قال بغضب: دا حتى الروس بقوا ينشلوا، عمرك شفت واحد روسي بيسرق، لم يكن الاتحاد السوفيتي قد سقط، أما السرقة الأدبية، فأذكر أنني رأيت مشاهد كاملة

مأخوذة من قصتي " بالأمس حلمت بها " في أحد الأفلام، ولا أذكر اسمه، ولم أهتم.

*** النقلة من الجيزة إلى الزمالك. كيف تراها؟**

– لا تستطيع في حقيقة الأمر أن تعتبرني زملكاوي. أنا في منطقة شعبية جدا، البيت الذي أسكنه يمكن أن تنقله كما هو إلى الجيزة أو السيدة زينب. أنا على هامش الزمالك، ولو خيرت لاخترت أن أعود إلى بيتنا في الجيزة.

*** إيه حكايتك مع المرض؟**

– لا أعرف، أنا من صغري مستعد للمرض، قابل له، وأمي كانت تعتقد من الطفولة أنني لن أكمل، لكنني أكملت ... **يضحك**.

*** ماذا تذكر من الأعياد؟**

– كانت الأعياد أكثر بهجة ونحن أطفال. المراجيح، والسنيما، وركوب الدراجات والعيدية طبعا. الآن أنا أعطي العيدية وأتواجد دائما مع أسرتي الكبيرة في هذه المناسبات.

*** هل أنت متشائم؟**

– أنـا واقعـي، ولأننـي أعـيش فـي عصـر متراجع، فأنا أعتبر التفاؤل فيه ضربا من السذاجة.

*** ما مفهومك عن السعادة؟**

– لكل إنسـان سـعادته الخاصـة، ليسـت هنـاك سعادة كاملة هكذا لكل الناس!

*** هل السعادة وليدة المصادفة؟**

– أعتقد أنك لكي تسـتطيع أن تخلـق سـعادتك، لا تطلب من نفسك أكثر ممـا تسـتطيع أن تعطيـه ولا مـن الزمن. هذه هي المصادفة التـي قـد تجعلـك قريبـا مـن السعادة في تصوري.

*** مـن وجهـة نظـرك مـا مقومـات الشـعور بالسعادة؟**

– الحـب، بالنسـبة لـي، هـو أعظـم مقومـات السعادة.

*** ما المبادئ التي حكمت سلوكك، في حياتك الخاصة والعامة؟**

– أن أكون نافعا لمن حولي. أنـا حاولـت، علـى مستوى الأسرة وعلى مستوى العمـل وككاتـب، أن أكـون نافعا بشكل من الأشكال.

علـى المسـتوى الشخصـي حاولـت أن أحقـق السعادة لمن حولي. هذا ما يعنيني.

*** بأي وسـيلة مـن هـذه الوسـائل (السـيارة، السفينة، الطائرة) تفضل أن تسافر؟**

– كنـت أحـب السـفر، أمـا الآن فهـو عـذاب بالنسبة لي، لكني لـو سـافرت أحـب أن أسـافر سـفرية طويلة بالباخرة، لأني لم أسافر بها أبدا. رغـم أنـي أحـب ركوب المياه وأجيـد التجـديف، وبسـبب هـذه الحكايـة تعرضت لمهالك ... أتذكر أني كـدت أغـرق مـرة فـي النيل، ومرة في نهر " نيفا " فيما كـان يسـمى لييننجـراد، سانت بطرسبرج الآن، كنت أجدف في هـذا النهـر، وهـو أسرع نهر في العالم. فأخذتني دوامة عنيفـة كـدت أهلـك بسببها في منتصف الليل.

*** هل للحظ دور في نجاحك؟**

– لا أستطيع أن أصف نفسي بأنني إنسان محظوظ في الحقيقة، لأن أي تقدم صادفني كان نتيجة تعب شديد، لا نتيجة خبطة حظ. المصادفات السيئة كانت أكثر في حياتي.

*** ألم تذهب للعرافين؟**

– ذهبت بدافع الفضول، لكني لم أصدق أي شيء، ولا شيء حدث معي مما قالوا.

*** فيم تتأمل غالبًا وأنت وحدك؟**

– أتأمل، غالبا، في موضوع العمل الذي أكتبه، وأحيانًا كثيرة يستغرقني التأمل في البحر وفي نفسي، لأنني أستبطن مشاعري كثيرا.

*** حدثني عن القلق.**

– أنا قلوق، وخيالي يذهب دائما للاحتمالات الأسوأ. وأنا إنسان موسوس، أرجع بعد الخروج؛للتأكد أن الباب مقفول، والبوتاجاز مقفول ... الخ. شيء صعب.

*** ما شروط النجاح كما تراها؟**

– أن يحقق المرء مشروعه. مشروع حياته.

*** ما الفترة الأكثر تعاسة في حياة بهاء طاهر؟**

– أعتقد أنها طفولتي، والفترة التي أعقبت خروجي من الإذاعة.

*** كيف تنظر الآن إلى ماضيك، وحاضرك، ومستقبلك؟**

– الماضي ... زي الأفلام المصرية، الحياة كفاح، أنا في حياتي لم أكسل ولم أستبد على رأي طرفة بن العبد.

أما الحاضر فهو امتداد للماضي بهذا المعنى ... بمعنى أنني أتعب جدا ويتملكني إحساس فظيع بالذنب حين لا أعمل. هكذا خلقت.

والمستقبل وراء ظهري ... خلاص انتهى!!

*** هل تعتقد أن مهمة الأديب هي تغيير العالم؟**

– قال باطمئنان ... نعم أعتقد أن تغيير العالم هو وظيفة الأديب والمفكر.

*** هذا العالم ... هل هو أفضل عالم ممكن؟**

– هذا هـو السـؤال الـذي حيـر البشـر. حيـر أرسطو، وشكسبير وغيرهما. هل هذا العـالم هـو أفضـل عالم ممكن. **بدا بهـاء طـاهر كأنـه يتسـاءل معـي، أو يسأل نفسه، ثم قال:** لا إجابة عنـدي علـى هـذا السـؤال في الحقيقة.

*** ما الذي يحكـم تصـرفاتك دائمـا ... العقـل أم القلب؟**

– دائمــا يقــودني العقــل للأســف فــي كــل تصرفاتي، كنت أتمنى أن أكـون أكثـر تلقائيـة وعاطفيـة مما أنا. كنت أتمنى.

*** من يقرأ أعمالك قبل النشر؟**

– بعـدما انتهـى مـن العمـل أسـتعين بـبعض الآراء، وأكثر قارئـة صـعبة مـن قارئـاتي هـي بنتـي الكبرى دينا. ونادرا ما ترضى. ويسـر ابنتـي الصـغرى أصعب.

*** هل تعتبر نفسك حالما؟**

– نعم ... جدا.

*** ألا يتنافى ذلك مع العقل؟**

– لا، لأن كل شيء تنفذه في حياتك نتيجة شيء حلمت به.

*** الحب، الفن، المال والشهرة، أيهم تحس فيه بالسعادة أكثر؟**

– في الحب. لا تحقق في الحياة أجمل من تحقق الحب.

*** هل تكتب تحت تأثير أي مكيفات؟**

– أنا لا أستطيع أن أكتب إلا وأنا في حالة فوقان كامل.

*** ما أهمية الخيال بالنسبة لك؟**

– الخيال هو أساس الإبداع، والخيال والحلم شيء واحد. والإبداع كله حلم تجسده على الورق.

*** وما السخرية؟**

– كان معروفًا عني، وأنا صغير، أنني ساخر، لكن هموم الدنيا ركبتني عندما كبرت. أحكي لك حكاية ... أثناء عملي في البرنامج الثاني كان مكتبي عبارة عن مضيفة كبيرة، وكان كثير من الممثلين –

الذين أصبحوا الآن نجوما – كـانوا يـأتون إلـى المكتـب ويخرجون بإفيهات من الجلسة. وكـان المرحـوم المـأمون أبو شوشة يقول لي: ما تسلفنا حاجة كـدة علـى الماشـي. كان يقدم برنامج " مسرح المنوعـات "، وفـي يـوم كنـت أحكي معه فقلت له: أنـا منحـدر مـن أسـرة عريقـة لا تكف عن الانحدار، يضحك، فأخـذها وعملهـا حلقـة فـي البرنامج. كان جـو المكتـب شـبيها بنـدوات البشـرى، وحافظ إبراهيم، وكان لي باع طويـل فـي التنكيـت مـع المرحوم محمد علـى مـاهر، رحمـه الله. كـان معروفًـا عني أنني ابن نكتة. الآن أطرب للنكتة.

* * *

*** ماذا تمثل لك " الحقيقة "؟**

– البحث عن الحقيقـة هـو شـغل الأديـب فـي المقام الأول، إن لم يكن هو شغل الإنسان.

*** والشك والإيمان؟**

– أعمق إيمان في الـدنيا هـو الإيمـان الـذي لا يخلو من التساؤل، أو مـا تسـميه الشـك. وفـي القـرآن الكريم يقول سيدنا إبراهيم – عليـه السـلام – " ... ولَكِـن

ليطْمئِن قَلْبِي ... ". فالتساؤل جزء أساسـي مـن مكونـات الإيمان الحقيقي.

*** كلمني عن تقلباتك الدينية.**

– لم أكن في يـوم مـن الأيـام فـي فرقـة مـن الفرق، لكن – مثلي مثل كل إنسان – مـرت بـي لحظـات عصيبة من التساؤل وأعقبتها لحظات إيمان وهكذا.

*** في أي مرحلة تحديدا؟**

– في مرحلة الشباب.

*** هل تؤمن بوجود الله؟**

– نعم.

*** كيف ترى رسالة الديانات؟**

بدا متحيرا وهو يقـول: الـديانات هـي الوسـيلة الوحيدة لإرواء ظمـأ الـروح. إذا كانـت هـذه رسـالتها، فهي رسالة جوهرية مطلوبة بشـدة، ولهـذا السـب تـؤمن الناس. أما إذا تحول هذا الإيمـان إلـى محاولـة السـيطرة على الآخرين، فهنا يتحول الإيمان إلى نقمـة عانـت منهـا البشرية طويلاً ... هـي الحـروب الدينيـة، سـواء بـين الديانات أو بين أبناء الدين الواحد. لكن الـديانات فـي حـد

ذاتها رسالة عظيمة موجهة لخـلاص الإنسـان. لخـلاص روحه، وإذا فهمت علـى هـذا المعنـى فسـتكون نعمـة عظيمة على البشرية.

*** والأنبياء.**

– نحن كمسلمين، نـؤمن بـالله وملائكتـه وكتبـه ورسله، لا نفرق بـين أحـد مـن رسـله، ألـيس كـذلك. فالأنبياء – عليهم الصلاة والسـلام – قـدوة لنـا، نسـتفيد من مواقفهم ليمكننا احتمال الوجـود، مـثلاً محنـة سـيدنا إبراهيم – عليه السـلام – فـي ذبـح ابنـه التـي كانـت موضوع كتاب من أجمل ما قرأت فـي حيـاتي ... كتـاب كير كجارد " خوف ورعدة "، أو معانـاة النبـي محمـد – صـلي الله عليـه وسـلم –، أو معانـاة المسـيح – عليـه السلام.

أظن لو أننـا نظرنـا إلـى الأنبيـاء دون تفرقـة، وعلى أنهم قدوة لنا، ستجد إنك تحتـاج فـى كـل مرحلـة من مراحل عمرك وتفكيرك إلى التأسي بنبي.

*** لماذا يلحد الإنسان؟**

– يلحد الإنسان، لأنه في مرحلة التساؤل الحتمية التي يسلم بها الدين، لا يجد من يرشده أو يقوده من هذا التساؤل إلى مطمأن اليقين. الخطأ هنا قد يكون في النفس، أو في الأسرة، أو في البيئة والمجتمع. ولكن الإلحاد شيء سلبي، وهو كقيمة قيمة سلبية جدا، بمعنى أنه يلغي التساؤل، وإذا فعلت ذلك وقبلت بأن يستمر عطش الروح هذا، فستموت ظمأ.

وأنا لم أجد في حياتي أضيق أفقًا من متعصبي الجماعات الإسلامية في مصر، إلا الذين يشهرون إلحادهم! هم الوجه المقلوب للجماعات المتعصبة، أو ظهر العملة.

*** هل تحج؟**

– ناوي إن شاء الله.

*** وما رأيك في تجربة " التصوف "؟**

– نظرا لأن أحد أعظم أصدقائي، وهو المرحوم أحمد حسن كان متصوفًا، فأنا أكن لتجربة التصوف أعظم تقدير، لأني رأيت بعيني تطبيقها

العملي في إنسان. كان قمة في السماحة والخلق وإنكار الذات، فإذا كان هذا هو التصوف فنعما هو، لكني أرفض الدروشة والتواكل.

*** هل أنت قدري؟**

– قال: دعني أفكر في هذه المسألة. **وراح في تأمل عميق، ثم بدأ يتحدث:** أنا مؤمن بأن هناك أنواعا مختلفة من القدر ... هناك قدر تصنعه ظروفك، وقدر تصنعه شخصيتك التي ولدت بها. مثلاً أنت من مواليد برج الثور وعصبي جدا. هذا قدر، وهناك قدر يصنعه المجتمع الذي تعيش فيه ... إذا كان مجتمعنا عادلاً أو ظالما أو قامعا، كل هذه أقدار مختلفة، فلا يجب أن نلوم الأقدار على عيوب من صنع أيدينا كما يقول شكسبير.

*** لكن ماذا يكون رد فعلك يا أستاذ بهاء لو خططت لشيء وجاءت نتيجته على غير ما كنت تتوقع؟**

– في الدين، الأمور بالنية، لا بالنتيجة.

*** وإذا جاءت عكس النية؟**

– لابد أن تتقبل ذلك ... أن هناك كلمة عليا.

*** الدين، والعلم، والفلسفة ... كيف ترى العلاقة بينهما**

في الظروف المثالية لابد أن يجتمعوا، وإنما، كما قال طه حسين: إن المشاكل تبدأ عندما تدخل الدسيسة بين الدين والعلم والفلسفة، وهي السياسة. عندما تدخل السياسة تبدأ المصائب ... يعدم سقراط وينفي نصر حامد أبو زيد وأشياء أخرى مضحكة!!

* * *

***من هم أولئك الذين غيروا مجرى حياتك؟**

– طه حسين، وسعد لبيب وبعض من أحببت من النساء.

*** وأشخاص لا تنساهم؟**

– أول واحدة أحببتها في حياتي وآخر واحدة.

*** خصومات لا تنساها.**

– ليست لي خصومات.

*** أول من قدمك للحياة الأدبية؟**

– يوسف إدريس وأفخر بذلك كثيرا.

*** هل تقرأ ما يكتب عنك؟**

– آه طبعا.

*** حتى ولو كان ضدك؟**

– حتى لو كان ضدي.

*** هل تؤدي الواجبات الاجتماعية؟**

– أحبها جدا، وإذا لم أؤدها أشعر بتقصير شديد.

*** ما شكل علاقتك بالجيل السابق واللاحق؟**

– أكثر ما أتأثر به هو حب الشباب لي، وعلاقتي بالجيل السابق كانت علاقة صداقة وطيدة.

*** والبائعون ... كيف تتعامل معهم؟**

– علاقتي بهم طيبة جدا، ولي شعبية لدى البائعين في كل مكان أسكنه.

*** ما الخطة التي تنفذها لو كنت وزيرا للثقافة؟**

– أعفنى من الإجابة عن هذا السؤال.

*** وكيف تتعامل مع ناشري كتبك؟**

قال وهو يضحك: علاقتي بهم سيئة للغاية، بمعنى أن حقي دائما مهضوم، تخيل لم أقبض من " بالأمس حلمت بك " و " أنا الملك جئت " أكثر من ٤٠٠ جنيه.

*** أهم من كتبوا عنك؟**

– كثيرون، أهمهم على الراعي، وشكري عياد، ومحمود أمين العالم، وصبري حافظ، وجابر عصفور، وفاروق عبد القادر، ومحمود عبد الوهاب. أنا محظوظ من هذه الناحية. لكني لا أريد أن أحصى حتى لا أنسى.

*** إهداء كتبته، وإهداء إليك لا تنساه؟**

– أنا ضعيف في كتابة الإهداءات هذه، أكتب دائما ... مع المودة والتقدير، مع خالص التحية، وأشياء من هذا القبيل، لدرجة أن واحدة من سوريا زعلت لأنني لم أعرف كيف أكتب لها إهداء شاعريا، هي تتصور أن الكتاب حين يكتبون إهداء، لابد أن يكون شاعريا ... يضحك.

وإهداء إليك لا تنساه؟

– إهداء مـن علـى الراعـي رحمـه الله، كلمـا أتذكره تترقرق فـي عينـي الـدموع. كنـت عائـدا مـن الخارج، وهذا الرجل المسن بـرغم تعبـه الشـديد، جـاء يزورني ويهديني كتابه " الرواية فـي الـوطن العربـي "، وعليه إهداء فـي غايـة الرقـة، إهـداء جعلنـي – فـي الحقيقة – أرتجف تأثرا.

*** ما أفضل عصور التاريخ من وجهة نظرك؟**

– العصر العباسي الثـاني، واليونـان فـي القـرن الخامس قبل الميلاد، وفرنسا في القرن التاسع عشر.

*** ما علاقتك بالمقاهي، والشوارع، والمدن؟**

– أنا مدمن مقاهي وشـوارع ومـدن. أنـا كـائن مديني، لا أستطيع العيش فـي الريـف أو الصـحراء، إلا لفترات قصيرة جدا، لأني ولـدت وعشـت فـي المدينـة، وأحب حين أنظر من بيتـي فـي منتصـف الليـل مـثلاً، أحب أن أرى قهاوي وبقالين، وتلك الحياة النابضة.

*** هل هناك مقاهٍ معينة ارتبطت بها؟**

– في الكتاب التذكاري عن سليمان الفياض بمناسبة بلوغه السبعين كتبت عن المقاهي التي ارتبطت بها. لا أظن أن هناك مقهى بوسط البلد لم أرتبط به، أو لم يكن لي تاريخ فيه. وحتى الآن، مقاهي الزمالك البلدية أنا زبون دائم فيها. وأعرف جوها واحدة واحدة.

*** أين تقضي الصيف؟**

– أنا عاشق قديم للإسكندرية، ذهبت إلى مصايف مصر كلها لكني مرتبط ارتباطاً خاصاً بالإسكندرية.

*** والقاهرة ... ماذا تمثل لك؟**

– القاهرة بالنسبة لي هي كل شيء، هي حياتي.

*** ما أكثر الأماكن التي تشعر بالحنين إليها؟**

– الإسكندرية، تحديدا منطقة ستانلي وجليم. حين أزورها أرتجف.

*** هل تتذكر أول فلوس تقاضيتها من الأدب؟**

– دعني أتذكر ... أول قرش دخل جيبي من الأدب، أظن والله أعلم، كان من مجلة البوليس، كان رجاء النقاش مسئولاً عنها مع سعد الدين وهبة، ونشرت فيها مسرحية " بلا رجل " في أواخر الخمسينيات، فأعطوني ٥ جنيه، وربما ٣ جنيه.

*** ما علاقتك بالملابس والتحف؟**

– أنا مهتم بالملابس لأنني، من صغري، أشعر بخجل شديد من نحافتي، وكانت أمي تشعرني دائما أن نحافتي ذنب أنا مسئول عنه، لذلك أحب الملابس كي أداري نحافتي.

وأحب اللوحات الجميلة المعبرة، ولو كان معي فلوس، لكان بيتي شبيها بمتحف محمد محمود خليل.

*** هل تعير كتبك؟**

– أنا فقدت مكتبة كاملة بسبب هذه الإعارة.

*** ما أهم مقتنياتك؟**

– لوحات الأصدقاء مصطفى أحمد، وسعد عبد الوهاب، وجورج البهجوري، وبهجت عثمان.

*** ما خلاصة مشوارك في الحياة؟**

– أنا ضعيف في الحكم والمواعظ، أما إذا اعتبرت أن هذا المشوار جدير بأن يوصف، فهو مشوار عمل متصل، قد تكون نتائجه أقل مما ينبغي من حيث الكم، لكن هذا هو ما استطعته، وهو أقصى ما يمكنني أن أقدمه بكل إخلاص.

* * *

" الحياة"

" صور وأصدقاء وتأمل منفرد "